

السُّنَنُ مِنَ الْأَهْلِ

فِي

الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

السُّنَنُ الْأَلِهِيَّةُ
فِي
الْقُرْآنِ الْكَبِيرِ

من دُرُوسِ التَّفْسِيرِ

بِمُحَاضَرَةِ جَمْعِ الدِّينِيِّ

الشيخ محمد اليعقوبي

هوية الكتاب

هوية الكتاب: السنن الإلهية في القرآن الكريم

تأليف: سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)

الطبعة: الأولى

السنة: ١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٥ م

طبع ونشر

دار الصادقين للطباعة والنشر والتوزيع

العراق - النجف الأشرف - شارع الرسول (ص)

هاتف: ٠٠٩٦٤ ٧٨١٠١٩٥٤٨٠

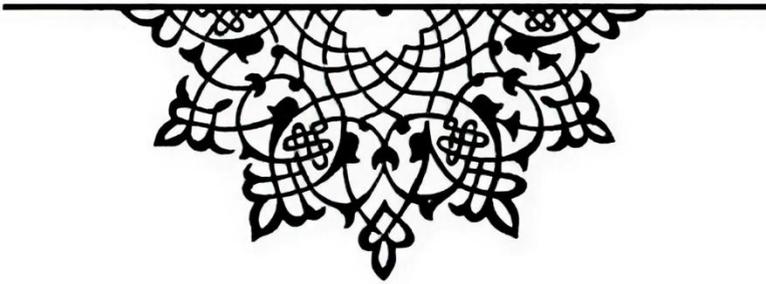


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



السنن الإلهية في القرآن الكريم

قراءة في تفسير (من نور القرآن) للشيخ محمد اليعقوبي دام ظله



المقدمة

السنن الإلهية في القرآن الكريم

قراءة في تفسير من نور القرآن للشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله الطاهرين، الذين حملوا مشعل الهداية، وبلغوا رسالات ربهم بالحق واليقين.

إن التأمل في التاريخ البشري، والوقوف على أحداثه الكبرى، يكشف لنا أن وراء كل واقعة قانوناً إلهياً، وسنة ربانية، جعلها الله تعالى حاكمة على مسيرة الإنسان فرداً وجماعة، لتبقى مرجعاً ثابتاً يستضيء به العقلاء، ويهتدي به المصلحون؛ فالسنن الإلهية تمثل - في حقيقة الأمر - البنية التحتية لحركة الكون والإنسان والمجتمع، وهي قوانين ثابتة لا تعرف المحاباة، ولا تتغير

﴿١٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

بتغيير الزمان والمكان، كما قال تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسِنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسِنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^١.

ومن هنا تأتي أهمية البحث في السنن الإلهية، إذ لا يمكن لأمة أن تعي موقعها في حركة التاريخ، أو أن ترسم لنفسها طريق النهوض، ما لم تفهم هذه القوانين التي تحكم صعود الحضارات وسقوطها، وعزة الأمم وذلقتها، وتمكين المستضعفين وإهلاك المستكبرين.

لقد اعتنى القرآن الكريم ببيان هذه السنن، فجعلها دروساً للأجيال، وأدوات للفهم والاعتبار^٢؛ فهو حين يعرض قصة نبيٍّ أو أمة، لا يقصد السرد التاريخي فحسب، بل يريد أن يكشف عن قاعدة عامة، ومبدأ مستمر: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^٣.

تعريف السنن الإلهية:

فالسنن الإلهية هي القوانين التي أجراها الله تعالى في خلقه، لتكون ضوابط في التعامل مع الحياة، ومناهج في النظر إلى وقائعها؛ فهي ليست

١ - فاطر: ٤٣.

٢ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ١، ص ٩.

٣ - آل عمران: ١٣٧.

أحكاماً تشريعيةً فحسب، بل قوانين تكوينية وتاريخية واجتماعية، تبين أن الله تعالى نظاماً في معاقبة الظالمين، وتمكين المستضعفين، ونصرة المؤمنين، وابتلاء الصادقين، حتى يتميز الخبيث من الطيب. وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «...فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنْ وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرْنٍ وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا وَأَزْفَتْ بِأَفْرَاطِهَا وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا...»^١، وعن الأصْبَغِ بْنِ نَبَاتَةَ قَالَ سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَقُولُ: «نَزَلَ الْقُرْآنُ أَثَلَاثًا ثَلَاثٌ فِينَا وَفِي عَدُونَا وَثَلَاثٌ سَنَنْ وَأَمْثَالٌ وَثَلَاثٌ فَرَائِضٌ وَأَحْكَامٌ»^٢.

أقسام السنن الإلهية:

وقد انقسمت السنن الإلهية بحسب مجالها إلى أقسام متعددة:

- فمنها: السنن الكونية التي تحكم نظام الطبيعة كالليل والنهار، والحياة والموت، والتبدل بين الشدة والرخاء.^٣

١ - نهج البلاغة (للصبيحي صالح)؛ ص ٢٨١.

٢ - الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج ٢؛ ص ٦٢٧.

٣ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ١، ص ٢٣٠.

• ومنها : السنن الاجتماعية التي تحكم حركة المجتمعات والأمم^١، مثل سنّة التدافع، حيث قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَّا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾^٢.

• ومنها : السنن الفردية النفسية التي تبلي الإنسان بالفتن والامتحانات: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^٣.

وهذه الأقسام جميعاً تتكامل لتشكّل منظومة واسعة من القوانين التي لا مهرب للإنسان منها، فالسنن الكونية تمهد لظهور السنن الاجتماعية (كالأساء والضراء والجفاف والرخاء)^٤، والسنن الاجتماعية تعكس تفاعل السنن الفردية (إذ إنّ فساد المجتمع يبدأ من فساد أفرادهِ)، وبهذا يكون الإنسان محوراً في منظومة القوانين الإلهية.

ولكي لا يبقى البحث في السنن الإلهية في إطار التنظير المجرد، فإنّ القرآن الكريم والسيرة التاريخية قدّما لنا مجموعة غنية من النماذج التطبيقية^٥، التي تجسّد هذه السنن في حياة الأمم والأفراد، فتارةً: يريك كيف أهلك الله

١ - اليعقوبي ، محمد ، تفسير من نور القرآن ، ج ٥ ، ص ١٠١ .

٢ - الحج: ٤٠ .

٣ - العنكبوت: ٢ .

٤ - اليعقوبي ، محمد ، تفسير من نور القرآن ، ج ١ ، ص ١٣ .

٥ - اليعقوبي ، محمد ، تفسير من نور القرآن ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

٦ - اليعقوبي ، محمد ، تفسير من نور القرآن ، ج ١ ، ص ٢١٩ .

الظالمين بعد طول استكبار ، وتارةً: يبين لك كيف نصر المؤمنين بعد صبر
وابتلاء ، وأخرى يظهر لك كيف تداولت الأيام بين الأمم، وكيف استبدل
قومٌ بآخرين، ومن خلال تتبعها يمكن للقارئ أن يدرك كيف تتحرك القوانين
الإلهية في الواقع، وكيف أن مسيرة البشرية محكومة بقواعد دقيقة لا تحابي
أحداً ومنها :

أولاً: سنة التدافع؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾^١.

ثانياً: سنة الاستدراج؛ قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾^٢.

ثالثاً: سنة الابتلاء والتمحيص؛ قال تعالى: ﴿أَحْسِبُ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^٣.

رابعاً: سنة التداول بين الناس؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^٤.

١ - البقرة: ٢٥١.

٢ - الأعراف: ١٨٢-١٨٣.

٣ - العنكبوت: ٢.

٤ - آل عمران: ١٤٠.

﴿١٤﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

خامساً: سنّة نصرّة المؤمنين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رِيسَلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^١.

سادساً: سنّة التغيير من الداخل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^٢.

سابعاً: سنّة هلاك الظالمين؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾^٣.

ثامناً: سنّة العقابة للمتقين؛ قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^٤.

السنن الإلهية والقضية المهدوية:

لذلك من يراجع النصوص الدينية يرى أن القضية المهدوية في عقائد المسلمين ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمسألة السنن الإلهية، والفكرة المهدوية هي مزيج من تحقيق عدة سنن إلهية، منها:

• سنّة ولاية الصالحين بما يتوافق مع ولاية الله، بحسب الآية ٥٥ من سورة المائدة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ

١ - غافر: ٥١.

٢ - الرعد: ١١.

٣ - الكهف: ٥٩.

٤ - الأعراف: ١٢٨.

يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٩﴾، والآية ٥٩ من سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

• سنة انتصار الحق على الباطل بشكل نهائي، بحسب الآية ١٦ من سورة النساء ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، والآية ٨ من سورة الأنفال ﴿لِيَحِقَّ الْحَقُّ وَيُبْطَلَ الْبَاطِلُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

• سنة خلافة المستضعفين في الأرض، بحسب الآية ٥ من سورة القصص: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

• سنة نجاة المؤمنين بحسب الآية ١٠٣ من سورة يونس ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

• سنة حكومة الصالحين، كما ورد في الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، والآية ٥٥ من سورة النور ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ

مَنْ بَعْدَ خَوْفِهِمْ أَمَّنَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٦﴾.

- سنّة هيمنة الإسلام على الأديان الأخرى، بحسب الآية ٣٣ من سورة التوبة ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، والآية ٢٨ من سورة الفتح ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وكذلك سنّة الاستخلاف، والامتحان، والتمحيص، والإملاء، والاستدراج، ومن خلال الآيات القرآنية والروايات، لها ارتباط وثيق بمسألة المهديّة، وغيبة الإمام المهدي عليه السلام، وانتظار الفرج.

خصائص السنن الإلهية:

وإذا أردنا أن نقف على خصائص هذه السنن نجد أنها:

- ثابتة لا تتخلف قال تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾!

- عامّة لا تختصّ بأمة دون أخرى^١ قال تعالى : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾^٢، وشاملة لكلّ جوانب الحياة.
- مبنية على العدل والرحمة والحكمة قال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾^٣.
- قوانين مطّردة، لا تحابي أحدًا، حتى لو كان من المؤمنين، ما لم يحقق شروطها، قال تعالى : ﴿سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسِنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^٥.
- ترتبط بالأسباب الطبيعيّة والاجتماعيّة، لأنّ الله تعالى أراد أن تجري شؤون الخلق على مقتضى النظام لا على خرق العادة؛ قال تعالى : ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾^٦.
- تجمع بين الحتميّة وبين مجال الاختيار الإنسانيّ. فهي حتميّة من حيث وجودها وعدم تبدّلها، لكنّها مشروطة بسلوك الإنسان وإرادته^٧. فإذا غير ما بنفسه جرت عليه سنن التغيير، وإذا صبر

١ - اليعقوبي ، محمد ، تفسير من نور القرآن ، ج ٥ ، ص ١٦٩ .

٢ - الأعراف : ١٦٨ .

٣ - هود : ١٠١ .

٤ - اليعقوبي ، محمد ، تفسير من نور القرآن ، ج ٥ ، ص ١٧٥ .

٥ - الأحزاب : ٦٢ .

٦ - محمد : ٤ .

٧ - اليعقوبي ، محمد ، تفسير من نور القرآن ، ج ٥ ، ص ٢٢٨ .

وصدق جرت عليه سنن النصر والتمكين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾^١.

دواعي الاهتمام:

ولعلّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا نهتمّ بالسنن الإلهية؟ والجواب: إنّ معرفتها - السنن - ضرورة دينية وحضارية؛ لأنها تمثل القوانين الضابطة لمسيرة التاريخ، والمفسرة لحركة الأمم، والضامنة لبقاء القيم. وهذا يعني أنّها حاکمة على الجميع، فمن لم يلتفت إليها اصطدم بجريانها، ومن وعى بها واستعدّها لها سار وفق مسارها؛ لأنّها:

- تخرج الإنسان من عقلية الانتظار السلبي، وتغرس فيه روح الجدّ والاجتهاد^٢. فالنصر مشروط بالعمل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^٣.
- تعزّز الثقة بعدل الله تعالى؛ فالابتلاء سنة إلهية لتربية النفوس وامتحانها^٤: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾^٥.

١ - الرعد: ١١.

٢ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٢، ص ٣٦٣.

٣ - الأنفال: ٦٠.

٤ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٥، ص ١٨٩.

٥ - محمد: ٣١.

• تضع الأمة على طريق النهضة، وقد أكد أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة حين قال: «مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رِبْحَ وَ مَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ وَ مَنْ خَافَ أَمْنٍ وَ مَنْ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ وَ مَنْ أَبْصَرَ فَهَمَّ وَ مَنْ فَهَمَ عَلِمَ»^١.

• جزء من الرسالة القرآنية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^٢.

ومن هنا كان اهتمام العلماء الواعين، ومنهم سماحة الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)، بتأسيس خطاب متكامل حول السنن الإلهية، ليكون منطلقاً لإصلاح الأمة وبناء نهضتها.

السنن الإلهية في فكر الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله):

وعند الحديث عن منهج المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) في عرض السنن الإلهية، نجده يقدم قراءة معاصرة لهذه القوانين، مستنداً إلى النصّ القرآنيّ أولاً، ثمّ إلى سيرة النبيّ والأئمة عليهم السلام، مع إسقاطها على الواقع الاجتماعيّ والسياسيّ الراهن.

١ - نهج البلاغة (للصبيحي صالح)؛ ص ٥٠٦.

٢ - الروم: ٤٧.

فهو لا يتعامل مع السنن على أنها مفاهيم نظرية جامدة، بل بوصفها حقائق حية، يجب أن تكون بوصلة حركة الأمة، ودليلها في مواجهة الفتن والابتلاءات، ويشدد سماحته على أن فهم هذه السنن يعصم الأمة من الانبهار بالباطل، ويمدّها بالقوة في مواجهة الطغيان، ويزرع فيها الأمل بتمكين المستضعفين، كما وعد الله تعالى.

ويمتاز خطاب سماحته (دام ظلّه) بكونه امتداداً للمنهج القرآنيّ الأصيل في قراءة الواقع وتوجيه الأمة على ضوء القوانين الربّانية الثابتة^٢، فهو ينطلق من:

أولاً: مركزية القرآن الكريم:

ينطلق سماحته دام ظلّه دائماً من القرآن باعتباره المصدر الأوّل لفهم السنن الإلهية، ويرى أن كلّ سنّة إلهية لها جذور واضحة في النصّ القرآنيّ، وأنّ التفسير الموضوعيّ للآيات هو السبيل لفهم هذه القوانين^٣.

فهو لا يكتفي بالقراءة التجزئية التي تقتصر على حادثة أو آية واحدة، بل ينطلق بقراءة شاملة فيجمع الآيات المتفرقة تحت عنوان واحد ليستخلص منها قانوناً إلهياً متكاملًا، قال تعالى: ﴿سَنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ

١ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٥، ص ٨٤.

٢ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٣، ص ٢٢٥.

٣ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٧، ص ٢٨٦.

تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا^١، وهذا النص القرآني هو الأساس الذي ينطلق منه سماحته (دام ظلّه) لإثبات أنّ السنن قوانين كونية ثابتة.

ثانياً: الربط بين النص والواقع:

من أبرز سمات منهج سماحته (دام ظلّه) أنّه لا يقف عند حدود التنظير الأكاديمي، بل يربط السنن الإلهية بالواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي المعاصر؛ فهو يشرح كيف تجري هذه السنن اليوم كما جرت في الأمم السابقة، وينبّه على الأخطاء التي تقع بها الأمة بسبب جهلها بهذه القوانين^٢.

فمثلاً: عند الحديث عن سنّة التدافع، يربطها سماحته (دام ظلّه) بالصراعات الفكرية والحضارية الحديثة، مؤكداً أنّ وجود تحديات خارجية أو داخلية لا يعني الهزيمة، بل هو شرط لبقاء الحياة الإسلامية متجددة^٣.

ثالثاً: المنهج التحذيري - الإصلاحية:

يركّز سماحته (دام ظلّه) على البعد التربوي والإصلاحية، فهو لا يطرح السنن للترف الفكري، بل للتحذير والإنذار؛ فهو يذكّر الأمة^٤ بأن الاستدراج سنّة واقعية قد تطل الشعوب الغافلة، وأنّ الابتلاء يمحصّ الصفوف، وأنّ

١ - غافر: ٨٥

٢ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٣، ص ٢٥٤.

٣ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٤، ص ٣٢٠.

٤ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٣، ص ٢٦٢.

هلاك الظالمين حقيقة لا مفرّ منها^١؛ وهذا المنهج يجعل من السنن الإلهية وسيلةً للنهضة والإصلاح، لا لمجرد المعرفة.

رابعاً: البعد الحضاري :

يتعامل سماحته (دام ظلّه) مع السنن الإلهية باعتبارها قوانين حضارية كبرى، تفسّر حركة التاريخ^٢، وهو بهذا يقف في مصاف المفكرين الكبار كابن خلدون وغيره، لكنّه يضيف البعد الشرعيّ الإلهي، بحيث تصبح قراءة التاريخ أداة لاستشراف المستقبل^٣.

فمثلاً: سنة التداول بين الناس عند سماحته (دام ظلّه) ليست مجرد تعاقب طبيعيّ للقوى، بل هي خاضعة لشروط أخلاقية وقيميّة، فالحضارة التي تفقد بعدها الأخلاقيّ مصيرها إلى الزوال^٤.

خامساً: الوضوح واللغة الميسرة:

يمتاز أسلوب سماحته (دام ظلّه) بالوضوح، فهو لا يقتصر على النخب الفكرية، بل يقدم السنن بلغة قريبة من وجدان الناس، ويستعين

١ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٧، ص ١٢٤.

٢ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٥، ص ٨٣.

٣ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٣، ص ٤٠٢.

٤ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٦، ص ٢٦٤.

بالأمثلة اليومية والحوادث المعاصرة^١، هذا ما جعل مشروعه يحظى بانتشار واسع بين الشباب والخواصّ والعوامّ، لأنّه يخاطب الجميع بلغتهم^٢.

سادساً: التأصيل الشرعيّ والروائيّ:

إلى جانب القرآن، يعتمد سماحته دام ظلّه على الأحاديث والروايات المعتمدة عن النبي وأهل البيت عليهم السلام في ترسيخ السنن، فهو يربط بين المفاهيم القرآنية وبين الموروث الروائي ليكون منظومة متكاملة^٣؛ فمثلاً: يستشهد بقول الإمام عليّ عليه السلام: «**مَنْ نَظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ سَلِمَ مِنَ النَّوَائِبِ**»^٤، باعتبارها تطبيقاً عملياً لفهم السنن الإلهية في مجال الحكمة والتخطيط.

سابعاً: الواقعية العملية:

فسماعته (دام ظلّه) لا يطرح السنن طرحاً نظرياً بحثاً، بل يهتم بأن يكون له أثر على العقيدة والسلوك ويوجّه الأمة نحو كيفية التعامل معها بـ:

• التسليم أمام ما لا يمكن دفعه^٥.

١ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٢، ص ٣٩٧.

٢ - وهذا الوضوح والتيسير لا يقتصر على تفسير من نور القرآن بل يسري الى كل خطابات سماحته دام ظلّه ومحاضراته وسائر كلماته. راجع موسوعة خطاب المرحلة المؤلفة من ١٤ جزء.

٣ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٣، ص ٣٢٠.

٤ - عيون الحكم و المواعظ (لليثي)؛ ص ٤٣١؛ الرقم: ٧٤١٣.

٥ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٦، ص ٢٠٥.

• العمل بالأسباب حيث يكون التغيير ممكناً^١.

• الاعتبار من التاريخ والوقائع الماضية^٢.

وبهذا المنهج الشامل، لا نغالي إذا قلنا أن سماحة المرجع الشيخ محمد اليعقوبي دام ظله إنفرد عن غيره من فقهاء مدرسة أهل البيت عليهم السلام في تقديمه مشروعاً رائداً يعيد إحياء مفهوم السنن الإلهية - هذا البعد المغفول من التفسير القرآني - ويربط الأمة بجذورها القرآنية، ويمنحها أدوات عملية لفهم الواقع وتغييره. وهو بذلك يحقق المقصد الأسمى: جعل الأمة على بصيرة من أمرها^٣، لئلا تصدم بنتائج لم تحسب لها حساباً، بل لتكون حركتها دائماً منسجمة مع سنن الله التي لا تبدل ولا تتحول^٤.

لذلك جاء هذا الكتاب (السنن الإلهية في القرآن الكريم)، لكي يلبي حاجةً مصيريةً تمس حياة الإنسان الفرد والمجتمع والأمة بأجمعها. وتقديم صورة متكاملة وموضوعية لهذا المفهوم القرآني العظيم، فامتاز بأنه:

قرآني المنطلق: يستند مباشرةً إلى النص الشريف، جامعاً للآيات المتفرقة في بنية واحدة، تظهر القانون الإلهي كاملاً.

١ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٦، ص ٢٥.

٢ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٣، ص ٢١٠.

٣ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٦، ص ٢١٢.

٤ - اليعقوبي، محمد، تفسير من نور القرآن، ج ٦، ص ٣١٠.

واقعيّ الاتجاه: يسقط هذه السنن على الحاضر، ويبين مصاديقها في التحديات السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة المعاصرة.

تربويّ الغاية: لا يطرح السنن للبحث الأكاديميّ البحت، بل لتربية النفوس، وشحذ الإرادة، وتنبيه الأمة إلى مخاطر الغفلة.

حضاريّ البعد: يجعل من السنن قاعدة لفهم التاريخ، وأداة لاستشراف المستقبل، وجسراً بين الماضي والمصير.

من هنا، تتجلّى أهمّيّته؛ فهو لا يعطي القارئ معلومةً عابرة، بل يزوده بـ (مفتاح الرؤية)، ويعلمه (كيف يقرأ الواقع بعين قرآنية نافذة)، فلا ينخدع بزخارف القوّة المزيّفة، ولا ينهزم أمام لحظات الابتلاء المؤقتة، بل يرى حركة التاريخ في ضوء القوانين الإلهيّة الثابتة.

نسأل الله أن يحفظ سماحته (دام ظله) ويمدّ في عمره المبارك لخدمة معارف القرآن الكريم وشريعة سيّد المرسلين ﷺ وعترته الطاهرين عليهم السلام.

والله ولي التوفيق

السُّنَنِ الْأَلْمِيَّةِ

فِي

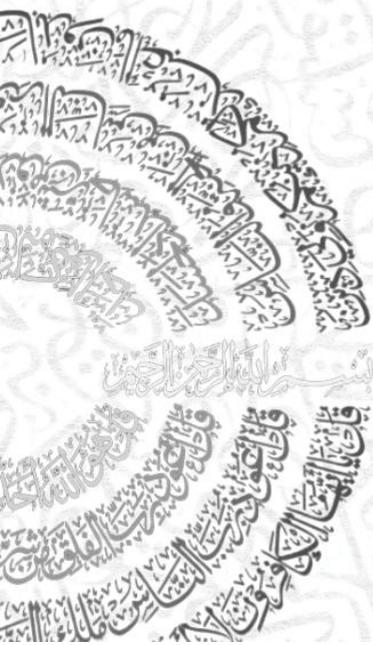
الْقُرَابِ الْكَبِيرِ

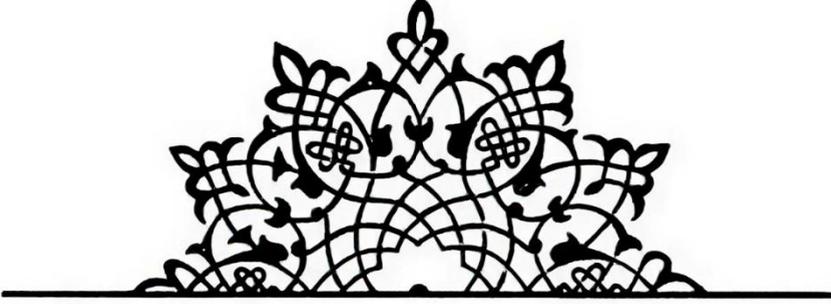
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ

وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

سُورَةُ الْأَحْزَابِ : ٦٢





سنة التدافع



﴿وَلَوْ لَّا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾

[البقرة : ٢٥١]

سنة التدافع

من السنن الإلهية:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَّا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^١.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ لَّا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلِيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^٢.

تكشف هاتان الآيتان عن سنة إلهية عظيمة وفريضة واجبة على المسلمين وهي : سنة التدافع أي دفع الكفر بالإيمان، والشر بالخير، والفساد بالصلاح، والباطل بالحق، والمنكر بالمعروف، وتظهر عظمة هذه السنة من اندراج

١ - البقرة: ٢٥١.

٢ - الحج: ٤٠.

﴿٣٤﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

فريضتين عظيمتين تحت عنوانها وهما : الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مضافاً الى الطاعات الاخرى كالدعوة الى الخير والنصيحة والارشاد والموعظة.

من وحي القرآن:

وهنا نلتفت إلى عدة أمور نستوحىها من الآيتين الكريمتين:

١- جعل هذه السنّة الإلهية من منن الله تعالى وأفضاله على العالمين في الآية الاولى، رغم أنّ هذا التدافع يقتضي حصول تضحيات بالأرواح والأموال ومفارقة الأهل والأوطان وبذل الجهود الكبيرة لأنها حرب مستمرة ضارية، وتفسير ذلك بوجوه يأتي احدها ونذكر هنا وجهاً ذكرت الآية حاصله انه : لولا هذا الدفع لامتلأت الأرض بالشر والفساد والظلم والكفر ولم تستقم فيها حياة إنسانية كريمة، ولأزيلت كلّ مظاهر الخير والصلاح التي أشير إليها في الآية الثانية بأسماء دور العبادة والذكر في الديانات التوحيدية.

٢- مادام هذا التدافع سنة إلهية فهي ثابتة وحتمية ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^١ ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^٢ ولا يمكن التخلص من هذه المواجهة بالهروب من الواقع أو الانزواء أو غض الطرف ودفن الرأس في التراب، لأن النتيجة حينئذ ما ذكرته الآية الشريفة.

وإن هذه المواجهة مستمرة ولا تقتصر على زمان ومكان محدودين، لأنها مرتبطة بوجود الناس على هذه الأرض وانقسامهم إلى فريق في الجنة وفريق في السعير.

٣- يظهر من الآيتين أن الغرض من التدافع - ومنه الجهاد بل العمل الإسلامي عموماً - هو تثبيت كلمة التوحيد وحفظ شعائره ومشاعره، وإخراج الناس من عبادة العبيد وتحريرهم ليكونوا عباداً لله تبارك وتعالى ولم يشرع القتال والتدافع بأي نحو كان - ومنه التدافع والتنافس السياسي - طلباً لدنيا أو مال أو توسيع سلطة ونفوذ أو أي مغنم أخرى غير رضا الله تبارك وتعالى وإعلاء كلمته خلافاً لأهداف غير الربانيين فإنها لتلك الأهداف الدنيوية وهذا يجب عن الإشكالات عن تشريع الجهاد في شريعة الإسلام.

١ - الأحزاب: ٦٢.

٢ - فاطر: ٤٣.

﴿٣٦﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

وما قلناه أنفاً يدعوننا إلى تصحيح مقاييس النصر والربح والنجاح في ثقافتنا:

ظنوا بأن قتل الحسين يزيدهم كذبوا فقتل الحسين يزيدا^١

وان نرتب أولوياتنا بشكل صحيح ونعرف بماذا نضحى ومن اجل ماذا نضحى بعد معرفة الأهم والمهم، إذ يظهر من الآية أن الهدف الأسمى هو إعلاء ذكر الله تعالى وإقامة شريعته ويهون دون ذلك القتل والقتال والتدافع بكل أشكاله وبذل كل شيء، وليس العكس بأن يجعل الدين وسيلة لكسب الدنيا.

٤- وان الدفع يعني عدم إمكانية اجتماع الطرفين المتدافعين معاً كالمعروف والمنكر أو الحق والباطل بل إن كلاهما يسعى لإزالة الآخر واجتثاثه، فلا مجال للمداهنة ولا لأنصاف الحلول لتصادم الأحكام والتشريعات الإلهية مع القوانين الوضعية التي تخضع للأهواء والنزوات، لأنهم لا يرضون إلا بمحو الدين وإلغاء هوية أهله التي عبرت عنها الآيتان بالهدم، وقال تعالى عنهم ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنَّ آتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^٢.

١ - ديوان الوائلي للشيخ أحمد الوائلي (رحمه الله): ١١١

٢ - البقرة: ١٢٠.

٥- إنَّ اللهَ تعالى قادر على إعزاز دينه ونصره بقدرته اللامحدودة فيقول للشيء كن فيكون ويقطع دابر الفساد والكفر والشر، إلا انه تعالى أبى إلا ان تسير الأمور وفق أسبابها الطبيعية قال تعالى : ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْتَصِرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾^١، وقال سبحانه : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^٢، وقال سبحانه : ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةِ وَيَحْيَىٰ مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيْنَةٍ﴾^٣، فجعل تعالى دفع الأشرار بعمل الأخيار وحركتهم المباركة مع تأييد الله تعالى وإمداده قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾^٤، وقال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^٥ وقال سبحانه : ﴿وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾^٦، فلا بد إذن وفق هذه السنّة الإلهية من عمل دؤوب متواصل.

وحذرت الآياتان من التقاعس عن العمل والمرابطة في مواجهة قوى الشر والانحراف والفساد؛ لأن النتيجة تسلط الطواغيت والفسقة وخلو الساحة لهم وهو ينطبق على الحديث النبوي الشريف «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُوَ صِرَارٌ مِمَّا يَنْصُرُ اللَّهُ الْغَالِبِينَ»^٧

١ - محمد: ٤.

٢ - المائدة: ٤٨.

٣ - الأنفال: ٤٢.

٤ - الأنفال: ٦٢.

٥ - الحج: ٣٨.

٦ - الحج: ٤٠.

﴿٣٨﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

الْمُنْكَرِ أَوْ لَيْسْتَعْمَلَنَّ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَيَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يَسْتَجَابُ لَهُمْ^١ ويقوم هؤلاء الأشرار باستعباد الناس ومحو كل شعائر الدين ومشاعره وشعاراته، ورمزها ومجمعها الذي اشارت اليه الآية الشريفة وهي المساجد فيعملون على هدمها وتخريبها.

٦- إنَّ هدم المساجد لا يقتصر على المعنى المادي أي إزالتها من وجه الأرض إذ قد يكون التخريب معنوياً - وهذا هو الأخطر - وذلك بحرمان الناس من بركاتهما وتعطيل دورها الذي ذكرته الآية الشريفة بأنه يذكر فيها الله كثيراً وتلى فيها آياته ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، والمساجد هي مراكز تجمع المسلمين وتعارفهم وتحشيد قواهم ونشر الوعي بينهم وتهذيب أخلاقهم وتعليمهم الدين.

وهذا التخريب المعنوي هو ما يلجأ إليه الطواغيت والمنافقون المستترون بالدين فهم يعمرون المساجد مادياً إلا أنهم يفرغونها من محتواها وتأثيرها في حياة الأمة كالذي شهدناه ايام الطاغية المقبور صدام وامثاله.

وقد يكون تأثير مساجد المنافقين معادياً للدين القويم ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفَنَّ إِنَّ أَرْدَنًا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ^١ وهذا شاهد على ما قلناه من كون التخريب المعنوي اخطر.

٧- وبناءً على ما قلناه من انّ التخريب المعنوي هو الأخطر وانه قد يكون من المتسترين بالدين من نفس المسلمين فانّ سنة التدافع تجري داخل المجتمع المسلم ايضاً وليس فقط مع الاعداء الخارجيين وتكون حينئذ مع من يحرف الدين ويدهن فيه ويعرقل مسيرته ويحارب المصلحين ويقف حجر عثرة في طريق الإصلاح مكتفياً بشكليات الدين ومظاهره الخارجية، كالذين واجههم أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وكانوا من العناوين الكبيرة في المجتمع المسلم، خصوصاً بعد الالتفات إلى الوصف الذي أعطته الآية للمساجد، والذي لا ينطبق على اولئك المتسترين بالدين.

٨- لا بدّ ان يلاحظ في آليات التدافع مناسبتها لما يستعمله العدو، لأنّه إذا لم يكن مناسباً ومكافئاً للعدو فلا يعتبر دفاعاً ولا تدافعاً، فإذا كان عمل العدو وهدمه فكرياً فلا بد من دحضه بفكر مثله وان كان إفساده أخلاقياً فلا بد من مواجهته بحملة مثلها، وهكذا إن كان سياسياً أو

إعلامياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو عسكرياً ونحو ذلك فإنه يقابل بمثله.

٩- إن الله تبارك وتعالى لطيف بعباده ولا يتركهم سدى فريسةً بأيدي شياطين الانس والجن بل يقيض من عباده من ينهض بهذا الحمل الثقيل لذا نسب تعالى الدفع إليه فهو الذي يدفع الناس بالناس، وهذا المعنى من قبيل ما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يَحْمَلُ هَذَا الدِّينَ فِي كُلِّ قَرْنٍ عَدُولٌ يَنْفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الْمُبْطِلِينَ وَ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَ اِتِّحَالَ الْجَاهِلِينَ...»^١ وإذا تقاعس قوم عن اداء واجباتهم فان الله تعالى يوفّق غيرهم لهذه الطاعة قال تعالى ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾^٢.

١٠- الوعد الإلهي لعباده العاملين المخلصين بالنصر وتأكيد ذلك بعدة مؤكدات في الآية، كاللام ونون التوكيد في قوله تعالى ﴿وَلِيَنْصُرَنَّ﴾، نعم قد يتأخر النصر لحكمة إلهية كحماية المؤمنين من العجب أو لتعريضهم لمزيد من البلاء لإنضاجهم وتأهيلهم، أو لكي يستشعروا أهمية وقيمة النصر، وقد يحقق الله تعالى النصر للمؤمنين لكن على نحو لا يفهمه الناس لاختلال القيم والمقاييس عندهم،

١ - بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ٢ ؛ ص ٩٣.

٢ - محمد: ٣٨.

وعلى اي حال فان هذا النصر مشروط بإخلاصهم لله تعالى وصدقهم في ما عاهدوا الله عليه، فقد وضحت الآية التالية للآية الثانية التي فيها الوعد بالنصر من ينصرهم الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَخَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^١.

١١- ورد في الروايات معنى آخر للدفع يناسب قوله تعالى:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^٢ لَأَنَّ فِيهِ مَنَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، ففي رواية عن الامام الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بِمَنْ يَصَلِّي مِنْ شِيعَتِنَا عَمَّنْ لَا يَصَلِّي مِنْ شِيعَتِنَا وَلَوْ أَجْمَعُوا عَلَى تَرْكِ الصَّلَاةِ لَهَلَكُوا وَإِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بِمَنْ يَصُومُ مِنْهُمْ عَمَّنْ لَا يَصُومُ مِنْ شِيعَتِنَا وَلَوْ أَجْمَعُوا عَلَى تَرْكِ الصِّيَامِ لَهَلَكُوا وَإِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بِمَنْ يَزْكِي مِنْ شِيعَتِنَا عَمَّنْ لَا يَزْكِي مِنْهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى تَرْكِ الزَّكَاةِ لَهَلَكُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَيَدْفَعُ بِمَنْ يَحُجُّ مِنْ شِيعَتِنَا عَمَّنْ لَا يَحُجُّ مِنْهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى تَرْكِ الْحَجِّ لَهَلَكُوا وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^٣...»^٤.

١ - الحج: ٤١.

٢ - البقرة: ٢٥١.

٣ - البقرة : ٢٥١.

٤ - بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ٧٠ ؛ ص ٣٨٢.

١٢- إنَّ الدفع وإن كان في المصطلح يعني مقاومة الشيء بعد وقوعه، إلا أن معناه هنا أوسع فيشمل ما يعرف بالرفع أي منع وقوع الفساد والظلم والانحراف أصلاً، بل أن العمل على النحو الثاني هو الذي يجب أن ن فكر فيه ونضع خططنا له على طريقة الحكمة القائلة (الوقاية خير من العلاج) فتهيئة أسباب الصلاح والبيئة المساعدة للإنتشاره وإقناع الناس به مقدّم على انتظار وقوع المنكر ثم التفكير في كيفية إزالته ومعالجته.

وهذا مبدأ مهم سار عليه قادة الإسلام العظيم فمن قصار كلمات امير المؤمنين عليه السلام: «**ازجر المّسيء بثواب المّحسن**»^١ وروي عن الامام الحسن المجتبي عليه السلام قوله: «**...السّدَادُ دَفَعُ الْمُنْكَرِ بِالْمَعْرُوفِ...**»^٢ فالأولى أن تكافئ المحسن وتشجّع العامل الصالح لتحفّز غيره على الإحسان وإتقان العمل ولا يبقى مجال ليفكّر بالعمل السيء وتعريض نفسه للعقوبة.

١٣- ولا بد ان نلتفت الى ساحة اخرى للتدافع وهو الذي سماه النبي صلى الله عليه وآله الجهاد الاكبر وهي ساحة النفس التي يتصارع فيها جنود الرحمن مع جنود الشيطان لتحسم المعركة بانتصار ارادة الخير او ارادة الشر، والاولى مؤيدة بالألطف الالهية والبصيرة والعقل

١ - نهج البلاغة (للصبيحي صالح) ؛ ص ٥٠١.

٢ - كشف الغمة في معرفة الأئمة (ط - القديمة) ؛ ج ١ ؛ ص ٥٦٨.

والمعرفة والعزم والحكمة، والثانية مزودة بالشهوات والاهواء
والميول النفسية.

روي في الكافي انه كان عند الامام الصادق عليه السلام جماعة من مواليه فجرى
ذكر العقل و الجهل، فقال الامام عليه السلام: «اعرفوا العَقلَ و جُنْدَهُ و الجَهْلَ و
جُنْدَهُ تَهْتَدُوا» قال الراوي: جعلت فداك لا نعرف الا ما عرفتنا، فذكر الامام
عليه السلام ان الله تعالى اعطى لكل منهما خمسة وسبعين جنداً وقال عليه السلام: «...الخَيْرُ
وَهُوَ وَزِيرُ الْعَقْلِ وَ جَعَلَ ضِدَّهُ الشَّرَّ وَ هُوَ وَزِيرُ الْجَهْلِ وَ الْإِيمَانَ وَ ضِدَّهُ
الْكُفْرَ...»^١ الى اخر الحديث.

الدعوة النبوية وسنة التدافع الخارجي:

لقد جسّد النبي صلى الله عليه وآله في رسالته الإسلامية هذه السنة - أي سنة التدافع -
بأوضح مصاديقها وبأشكال متنوعة فكانت دعوته صلى الله عليه وآله من أول أمره تستند
إلى عقيدتين متلازمتين هما إثبات الإلوهية لله تعالى ونفيها عما سواه، وكان
شعار دعوته المباركة «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»^٢ فلم يقتصر على القضية
الأولى - أي إثبات الإلوهية لله تعالى - ما لم تنضم إليها الثانية وهي رفض

١ - الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج ١؛ ص ٢١.

٢ - بحار الأنوار (ط - بيروت)؛ ج ١٨؛ ص ٢٠٢.

الوهية غيره لتكتمل عقيدة التوحيد، وإلا فإن المشركين كانوا يقولون بوجود الله تعالى وخالقيته ورازقته ﴿وَلئن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ سَخِرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾^١ ﴿وَلئن سَأَلْتَهُم مِّنْ نَّذَلٍ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾^٢ وغيرها؛ فالمشركون لم يعترضوا على هذا المقدار وكان بين ظهرائهم أحناف موحدون وأتباع الديانات السماوية لكنهم أعلنوا العداء بضراوة والحرب على النبي ﷺ لأنه دفع عقيدتهم وألغاه.

وقد بدأ النبي ﷺ التدافع بالجهر برفض تلك العقيدة الباطلة وقداستها المزيّفة التي صنعها المنتفعون بها وتلاه الإجراء الآخر وهو مباينة أهلها ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾^٣، ثم بالاستدلال على بطلانها وردّ دعاؤهم والإجابة على إشكالاتهم.

وهكذا تدرّجت وتنوّعت آليات التدافع والمواجهة حتى أذن له ﷺ بالقتال بعد أن مكّنه الله تعالى من زمام الأمور في المدينة المنورة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^٤ حتى فتح الله تعالى عليه

١ - العنكبوت: ٦١.

٢ - العنكبوت: ٦٣.

٣ - الكافرون: ١-٣.

٤ - الحج: ٣٩.

الفتوح المبينة وعمّت رسالته المباركة شرقها وغربها. هذا على صعيد التدافع الخارجي.

التدافع الداخلي:

أما على مستوى التدافع الداخلي فإجراءاته ﷺ مع المنافقين معلومة وهدمه وإحراقه لمسجدهم الذي اتخذوه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين في الرواية الموجودة في سبب نزول الآية المذكورة.

وسار على نهجه سبطه الشهيد الإمام الحسين عليه السلام فأقام بخروجه المبارك هذه السنّة الإلهية إذ انه لم يتقاعس ولم يذعن ولم يستسلم لبطش بني أمية وطغيانهم، ونهض بمسؤوليته وقام عليه السلام ليدفع المنكر والباطل، ولولا قيامه المبارك لنقض بنو أمية الإسلام عروة عروة ولتحقق المحذور الذي اشارت إليه آيتا التدافع حتى لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه، وقد قطعوا شوطاً واسعاً في هذا المجال لولا ان الإمام الحسين عليه السلام قلب الأمور عليهم وأعاد للإسلام وجوده ومضمونه ونقاءه وحيويته:

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذيني
وقد حقق الله له عليه السلام وعده بالنصر فهاهو ذكره المبارك يملأ الخافقين
ويهدي الناس إلى الحق ويحفظ دين الإسلام عزيزاً كريماً والمسلمين

﴿٤٦﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

مرفوعي الرأس، وأصبحت قضية الحسين عليه السلام من أعظم الحوادث التاريخية على الإطلاق وأعظمها انتشاراً، وها هي المسيرة المليونية في زيارة الأربعين شاهد على الكرامة والعزة والحرية والرفعة.

ايها الاحبة:

إنّ من أفضل أشكال التأسّي برسول الله صلى الله عليه وآله وبالإمام الحسين عليه السلام إحياء هذا القانون الإلهي العظيم في كل ساحاته سواء داخل كيان المجتمع المسلم أو خارجه وبالآليات المناسبة لكل مواجهة، ولا يسعنا القعود عن هذه الوظيفة المباركة وإلّا ضاع الدين واضمحل كيان الإسلام كما نبأت به الآية الشريفة، ومن تخلف عن هذه المواجهة لم يبلغ الفتح، كما قال الإمام الحسين عليه السلام في رسالته^١، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾^٢.

١ - بحار الأنوار - المجلسي: ٣٣٠/٤٤

٢ - محمد: ٣٨.



سُنَّةُ الْاِسْتِبدَالِ



﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾

[محمد : ٣٨]

سنة الاستبدال

من السنن الإلهية:

تبيّن الآية سنة إلهية وقانوناً ثابتاً وفي نفس الوقت توجه تحذيراً لكل الناس، مفاده أن المشروع الإلهي الذي حملته رسالة الإسلام العظيمة ماضٍ وسائر في طريق تحقيق الأهداف المرسومة له، وإن تقاعس واعراض البعض -مهما كثر عددهم- لا يعرقل هذه المسيرة الإلهية وإنما تعرض الرسالة عليهم وتطلب النصره منهم لطفاً بهم من الله تعالى وامتناناً عليهم ليحصلوا على شرف المشاركة وثواب العاملين في الدنيا والآخرة، فإذا أعرضوا عن هذا التكليف ولم يتحملوه فإنهم هم الخاسرون وسيوفق الله تعالى أقواماً غيرهم لينهضوا بهذه المسؤولية ويحصلوا على نتائجها المباركة.

شمولية الخطاب القرآني :

والخطابات القرآنية عامة شاملة لكل الأجيال ولكل الأزمان فلا يتصور أحد أن هذه الآية خاصة بالقوم الذين كانوا حول النبي ﷺ وإنه تهديد لهم فقط، وإنما هي سنة إلهية عامة ثابتة ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^١ ، وقد أشارت عدة آيات قرآنية إلى هذه السنة الإلهية :

﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يَعْذِبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٢

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلَىٰ أَنْ نُبَدَّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنَنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^٣

﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ، عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾^٤ .

١ - سورة فاطر : ٤٣ .

٢ - سورة التوبة : ٣٩ .

٣ - سورة الواقعة : ٦٠ - ٦١ .

٤ - سورة المعارج : ٤١ .

لماذا التقاعس والارتداء في أحضان الايديولوجيات الفاسدة؟

وقد تركت الآية كلمة (تولوا) بلا ذكر لمتعلقها، وإن التولي يكون عن ماذا؟ لتكون مطلقة وتكون السنة جارية في كل تولي واعراض سواء تعلق بأصول الدين أو فروعه أي مطلق طاعة الله تعالى.

إذ من الناس من يعرض ويتولى عن أصل الإيمان والدين ويتجرد منه ويتحول إلى لا ديني ويتبنى أفكاراً وأيديولوجيات مناهضة للدين ومشككة فيه بأي عنوان كان كالملحد أو الكافر ونحو ذلك، وهذا المورد من التولي والاعراض ذكرته آية أخرى قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾^١.

ومنهم من يؤمن نظرياً بالإسلام لكنه لا يقوم بالتزاماته وقد ذكرت الآيات المتقدمة على الآية محل البحث من سورة الحديد صوراً من الخذلان الذي يصيب الانسان كعدم الانفاق في سبيل الله تعالى وكالعودة عن الجهاد في آية سورة التوبة المتقدمة، أو أي فرصة من فرص الطاعة التي يهيئها الله تعالى للإنسان كمساعدة محتاج أو قضاء حاجة مؤمن فإنه إن فوتها ولم يستثمرها فإن الله تعالى سيقبض من يقوم بها وهو شاكر لله تعالى على توفيقه.

الإعراض عن طاعة النبي ﷺ:

ولا شك أنّ من أكثر الموارد التي تظهر فيها هذه السنة الإلهية هي طاعة من أمر الله تعالى بطاعته وهو النبي ﷺ ومن بعده الأئمة المعصومون عليهم السلام ثم العلماء العاملون المخلصون النواب عن الإمام عليه السلام في غيبته، فإن من يتقاعس عن طاعتهم والالتزام بتوجيهاتهم فضلاً عن شكك فيهم ويفتري عليهم ويسقطهم فإن التوفيق يسلب منه ويمنح إلى آخرين مطيعين مخلصين ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾^١؛ بل يكونون ثابتي الإيمان ذوي همم عالية وإصرار على العمل.

وهذا الابتلاء مرّت به الامم ففشل اكثرهم وتولّوا واعرضوا فاصيبوا بأسوء النتائج، لذا نجد أمير المؤمنين عليه السلام يدعو عندما خذله أصحابه وتقاعسوا وتفرقوا، «قال عليه السلام في سحرة اليوم الذي ضرب فيه: مَلَكْتَنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاذَا لَقِيتَ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوْدِ - أَيِ الْأَعْوَجَاجِ - وَاللَّدَدِ - أَيِ الْخِصَامِ -؟ فَقَالَ: ادْعَ عَلَيْهِمْ فَقُلْتُ: أَبَدَلْنِي اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَأَبَدَلَهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ مِنِّي»^(٢).

١ - سورة محمد : ٣٨ .

٢ - نهج البلاغة (للصبيحي صالح) ؛ ص ٩٩ .

نموذج معاصر من الإعراض عن طاعة الله تعالى:

خذ مثلاً السيد الشهيد الصدر الثاني قدس سره فإن كثيراً من العناوين الكبيرة وغيرهم داخل الحوزة وخارجها خذلوه وعارضوه وشككوا فيه وفي حركته فحرموا من هذا اللطف الإلهي، وهياً الله تعالى للسيد الشهيد شباباً مليئين بالإيمان والحيوية والتفاني أخذوا المواقع المخصصة لأولئك الذين حرموا أنفسهم من هذا الفضل العظيم، واستمرت هذه الحركة المباركة حتى بعد استشهاده ومرور (١٦) سنة على رحيله، لكن صدى حركته اليوم وآثارها المباركة أوسع مما كانت في حياته الشريفة.

نموذج تاريخي في وجدان الطف:

وإذا أردنا أن نعرِّج على كربلاء ونأخذ الشواهد منها، فهناك شخصان تقرب جريان سنة الاستبدال عليهما بحسب الظاهر.

أحدهما: عبيد الله بن الحر الجعفي أحد الفرسان المعروفين بالفتك وهو معدود من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وله نسخة يرويها عنه عليه السلام - بحسب رجال النجاشي -، التقاه الحسين عليه السلام في طريقه إلى كربلاء ودعاه إلى نصرته فامتنع عبيد الله عن الإجابة وقدم للحسين فرسه المسماة بالمحلقة وقال «هذه فرسي المحلقة فاركبها فوالله ما طلبت عليها شيئاً إلا أدركته ولا طلبني أحدٌ إلا فتنته حتى تلتحق بمأمئك وأنا ضمير بعيالاتك أؤديهم إليك»،

﴿٥٤﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

فقال الحسين عليه السلام: «لا حاجة لنا فيك ولا في فرسك، وما كنت متخذ المضلّين عضداً»^١ فنصحه الحسين عليه السلام بأن يغيب وجهه ولا يشهد واعيته وقال عليه السلام «فوالله لا يسمع اليوم واعيتنا أحد ثم لا يعيننا إلا كبه الله على منخريه في النار».

ثانيهما: الحر الرياحي الذي كان قائداً كبيراً في جيش الأمويين وهو الذي قاد الكتيبة التي اعترضت الإمام الحسين عليه السلام في طريقه ومنعته من العودة إلى أهله ودياره ورافقته حتى نزل كربلاء لكنه في لحظة من لحظات التوفيق والألطف الإلهية وقف وتأمل في مصيره وعاقبته وخير نفسه بين الدنيا المزخرفة التي كان يتمتع بها في ركاب بني أمية لكن عاقبتها النار، وبين القتال والشهادة بين يدي أبي عبد الله الحسين عليه السلام وختامها مسك والفوز والجنة ورضوان الله فقال كلمته التي نقلت عبر الأثير إلى كل الأجيال **«لَا أُخْتَارُ عَلَى الْجَنَّةِ شَيْئاً»** (٢).

والشاهد إن هذا المقعد في قافلة شهداء الخلود لما تولّى عنه عبيد الله وأعرض عنه ملاءه غيره وهو الحر الرياحي وفاز به ومضت القافلة في طريقها، وبقي عبيد الله نادماً متحسراً على تفويت هذه الفرصة فالتحق بالمختار لأخذ

١ - راجع تفصيل ترجمته ومصادرها في أدب الطف للمرحوم الخطيب السيد جواد شبر: ٩٤/١ -

الثَّارُ ثم اختلف معه والتحق بمصعب ثم اختلف معه وقاتله. ومن شعره المعبر عن عظيم حسرته:

فِيَا لَكَ حَسْرَةً مَا دُمْتُ حَيًّا	تَرَدَّدُ بَيْنَ حَلْقِي وَالتَّرَاقِي
حَسِينٌ حِينَ يَطْلُبُ بَدَلَ نَصْرِي	عَلَى أَهْلِ العَدَاوَةِ وَالتَّشَقَاقِ
وَلَوْ أَنِّي أُوَاسِيهِ بِنَفْسِي	لَنَلْتُ كِرَامَةً يَوْمَ التَّلَاقِي
مَعَ ابْنِ المِصْطَفَى نَفْسِي فِدَاهِ	فِيَا لِلَّهِ مِنَ أَلَمِ الفِرَاقِ
فَمَا أَنْسَى غَدَاةَ يَقُولُ حَزْنًا	أَتَتْرُكُنِي وَتَزْمَعُ لِانْطِلَاقِ
فَلَوْ فَلَقَ التَّلَهُّفُ قَلْبَ حَيٍّ	لَهَمَّ القَلْبَ مَنِّي بِانْفِلَاقِ
فَقَدْ فَازَ الأَلَى نَصَرُوا حَسِينًا	وَخَابَ الآخَرُونَ أُولُو النِّفَاقِ

الهزيمة الداخلية هي التي انتجت الاستبدال:

ولابد أن نلتفت إلى أن هذا الاستبدال من الله تعالى ما كان ليحصل في الخارج إن لم يسبقه استبدال في داخل النفس من قبل الشخص نفسه فاستحق ذلك التبديل ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^٢ ، ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾^٣.

١ - أدب الطف أو شعراء الحسين عليه السلام للمرحوم السيد جواد شبر: ٩٦/١.

٢ - سورة التوبة : ٣٨ .

٣ - سورة البقرة : ٦١ .

﴿٥٦﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

وهذا كله تطبيق لسنة الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوهُ مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾^١ سواء بإتجاه الخير أو الشر، ولذا كان من الادعية الواردة عن اهل البيت عليهم السلام «وَأَجْعَلْ لِي مِمَّنْ يَنْتَصِرُ بِهِ لَدَيْكَ وَلَا تَسْتَبْدِلْ بِي غَيْرِي»^(٢).

فعلينا أن نكون حذرين يقظين ونبادر إلى أي فرصة للطاعة ولا نفوتها أو نؤخرها أو نعتقد أنه لا أحد يستطيع أن يأخذها منا ويملاً مكاننا فيها، فإن الله تعالى غني عن خلقه ويستبدل بالمقصرين والعاصين من يحبهم الله تعالى ويحبونه ثم لا يكونوا أمثالكم.

١ - سورة الرعد : ١١ .

٢ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٢ ؛ ص ٥٥٣ .



سُترة الاستدراج



﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[القلم : ٤٤] ^(١)

سَنَّةُ الْاِسْتِدْرَاجِ

من سنن الله تعالى الجارية في عباده سَنَّةُ (الاستدراج) وهي من الابتلاءات العظيمة التي يمر بها الفرد والمجتمع، روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: « مَا ابْتَلَى اللَّهُ عَبْدًا بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ » ^٢ وقد ذكرها القرآن الكريم صريحاً في موضعين بنفس النص في العنوان، ولكن مضمونها ورد في آيات عديدة أخرى كما سيأتي ان شاء الله تعالى.

والاستدراج يعني الإيقاع بالكافرين والمنافقين واهل المعاصي تدريجياً درجة بعد درجة من حيث لا يعلمون فكلما ازدادوا في المعاصي ازدادت عليهم النعم والشواغل والملهيات عن التوبة والرجوع وهكذا حتى تنتهي مهلتهم ويتفاجأوا بالعذاب الذي يستحقونه وقد أحاط بهم وهم في ذروة سكر النعم وإقبال الدنيا

١- وردت هذه الآية في سورة الأعراف: ١٨٢، أيضاً.

٢- تحف العقول ؛ ص ٢٠٣.

﴿٦٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قال: «هُوَ الْعَبْدُ يَذْنِبُ الذَّنْبَ فَتَجَدَّدَ لَهُ النُّعْمَةُ مَعَهُ تَلْهِيهُ تِلْكَ النُّعْمَةَ عَنِ الاسْتِغْفَارِ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ»^١!

والذي يوقعهم في هذا الاستدراج ما ذكرته الآية التالية في الموضوعين ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾^٢ أي اغترارهم بالإمهال والاملاء وعدم التعجيل بالعقوبة على الذنوب ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ﴾ الذي هو رحمة وشفقة وإعطاء مزيد من الفرص للتوبة وليس عجزاً أو ضعفاً لأن الاستعجال ديدن من يخاف الفوت فيتوهمون أنهم على خير ولم يصدر معهم شيء سيء وإنهم يستحقون من الله تعالى إغداق النعم كقول قارون لما نصحه قومه بالإحسان كما أحسن الله تعالى إليه وعدم البغي والفساد في الأرض ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^٣.

فيتملكهم الغرور وتستولي عليهم الغفلة حتى ينتهوا إلى سوء المصير، قال تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ نَمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^٤.

(١) الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٢ ؛ ص ٤٥٢.

٢ - سورة القلم : ٤٥ .

٣ - سورة القصص : ٧٨ .

٤ - سورة آل عمران : ١٧٨ .

وسنة الاستدراج تأتي بعد الموعظة والتذكير والانذار والتحذير والتعريض لبعض الابتلاءات لعله يصحو من غفلته ويتبته إلى نفسه فاذا استمر بعصيانه وتمرده تواترت عليه النعم فينسى ربه وينسى نفسه ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾^١.

ومن الآيات الكريمة التي اشارت إلى هذه المراتب قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ○ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ^٢ وفي كتاب الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بَعْدَ خَيْرٍ فَأَذْنَبَ ذَنْبًا أَتْبَعَهُ بِنِقْمَةٍ وَيَذْكُرُهُ الِاسْتِغْفَارَ وَإِذَا أَرَادَ بَعْدَ شَرٍّ فَأَذْنَبَ ذَنْبًا أَتْبَعَهُ بِنِعْمَةٍ لِيَنْسِيَهُ الِاسْتِغْفَارَ وَيَتِمَادَى بِهَا وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بِالنِّعَمِ عِنْدَ الْمَعَاصِي»^٣.

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِذَا أَحْدَثَ الْعَبْدُ ذَنْبًا جَدَّدَ لَهُ نِعْمَةً فَيَدْعُ الِاسْتِغْفَارَ فَهُوَ الِاسْتِدْرَاجُ»^٤.

١ - سورة الحشر: ١٩ .

٢ - سورة الأعراف ٩٤ - ٩٥ .

٣ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٢ ؛ ص ٤٥٢ .

٤ - بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ٥ ؛ ص ٢١٥ .

لذا يجب على الانسان العاقل أن يكون حذراً عندما تُقبل
 النعم عليه قال امير المؤمنين عليه السلام: «**أَوْلَى النَّاسِ بِالْحَذَرِ أَسْلَمَهُمْ مِنَ
 الْغَيْرِ**»^١ أي من لا يتعرض للابتلاءات والصعوبات ويرفل بالنعم
 وعنه عليه السلام «**إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ يَتَابِعُ عَلَيْكَ النَّعْمَ فَاحْذَرَهُ**»^٢؛ بأن لا
 تبطره النعمة ولا يشعر بالعجب والزهو وان يتعاهد نفسه بالمحاسبة
 دائماً ولا يغفل عن أداء حق الله تعالى عليه في هذه النعم، فنعمة
 الايمان عليها حقوق ونعمة العقل عليها حقوق، ونعمة الصّحة
 والعافية عليها حقوق، ونعمة المال عليها حقوق، ونعمة الجاه
 والوالدين والأولاد والعلم وغيرها فيها حقوق لله تعالى^٣.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله في نهج البلاغة «**إِنَّهُ مَنْ
 وَسَّعَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اسْتَدْرَاجاً فَقَدْ أَمِنَ مَخَوفاً**»^٤.
 ومن كلماته عليه السلام «**كَمْ مِنْ مُسْتَدْرِجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَكَمْ مِنْ
 مَغْرُورٍ بِالسُّرْرِ عَلَيْهِ وَكَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ وَمَا ابْتَلَى اللَّهُ
 عَبْدًا بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ**»^٥.

وعن الإمام الحسين عليه السلام قال «**الاسْتَدْرِاجُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ**»

١ - غرر الحكم و درر الكلم ؛ ص ١٩٩ ؛ الرقم : ٢٧٠.

٢ - عيون الحكم و المواعظ (للبيهي) ؛ ص ١٣٦ ؛ الرقم : ٣٠٩٠.

٣ - راجع رسالة الحقوق للإمام السجاد عليه السلام لتعرف تفصيلاً عن هذه الحقوق.

٤ - نهج البلاغة (للصبيحي صالح) ؛ ص ٥٣٧.

٥ - تحف العقول ؛ ص ٢٠٣.

لِعَبْدِهِ أَنْ يَسْبِغَ عَلَيْهِ النَّعْمَ وَ يَسْلِبَهُ الشُّكْرَ»^١.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كَمْ مِنْ مَغْرُورٍ بِمَا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِسْتَرِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ كَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِنِشَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ»^٢.

وكان أصحاب الائمة عليهم السلام واعين لهذه الحالة وحذرين منها فروي أن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام قال «إِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ أَنْ يَرْزُقَنِي مَالًا فَرَزَقَنِي وَ إِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنِي وَلَدًا فَرَزَقَنِي وَلَدًا وَ سَأَلْتُهُ أَنْ يَرْزُقَنِي دَارًا فَرَزَقَنِي وَ قَدْ خَفْتُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اسْتَدْرَاجًا؟ فَقَالَ: أَمَا وَ اللَّهُ مَعَ الْحَمْدِ فَلَا»^٣ والمقصود بالحمد العملي منه وليس القولي فقط، «أَقَلُّ مَا يَلْزَمُكُمْ لِلَّهِ [سُبْحَانَهُ] أَلَّا تَسْتَعِينُوا بِنِعْمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ»^٤.

هذا هو المعنى المعروف للاستدراج، ويمكن أن يستشف من القرآن الكريم معنى آخر له، بأن يكون الاستدراج على شكل تزيين المعصية وتيسيرها بحيث تضعف مقاومة النفس عن تجنبها كما يحكي القرآن عن أصحاب السبب من اليهود، حيث حرم الله

١ - بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ٧٥ ؛ ص ١١٧.

٢ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٢ ؛ ص ٤٥٢.

٣ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٢ ؛ ص ٩٧.

٤ - أمير المؤمنين عليه السلام ؛ نهج البلاغة (للصبيحي صالح) ؛ ص ٥٣٣.

تعالى عليهم صيد السمك يوم السبت فكانت تأتي بكثرة يوم السبت وتكون في تناول أيديهم ولا يجدونها في غير السبت، فعملوا حيلة لحجزها يوم السبت ثم اصطياها يوم الأحد فقال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ فمسخوا قردةً وخنازيراً^٢.

ومثل الصيد الذي حرمه الله تعالى على المحرم واذا به يكثر حولهم وهم محرمون لبيتلي صبرهم على الالتزام بالحكم الشرعي للمحرم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَلْوَنَكُمْ اللَّهُ بشيءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٤].

الدروس المستفادة من الآية المباركة:

١- عدم الاعتزاز بالنعم والأمن من العقوبة لأن ذلك امهالاً وليس اهمالاً وأن العاقبة السيئة قد تحل به في أي لحظة في الدنيا والآخرة، مثلاً الزعماء السياسيون عليهم أن لا تغرهم الرئاسة

١ - سورة الأعراف : ١٦٣ .

٢ - عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَسَخَ هَؤُلَاءِ لِاصْطِيَادِ السَّمَكِ فَكَيْفَ تَرَى عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَكُونُ حَالٌ مِّنْ قَتْلِ أَوْلَادِ رَسُولِ اللَّهِ ص وَهَتِكَ حَرِيمِهِ! إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَإِنْ لَمْ يَمَسْخَهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْمَعْدَلَ لَهُمْ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ أَضْعَافٌ أَضْعَافٍ عَذَابِ الْمَسْخِ» [التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ؛ ص ٢٧٠].

والقدرة وكثرة الاتباع وضجيجهم وتداول وسائل الاعلام فتتضخم
الانا عند احدهم ويتصور أنه قادر على كل شيء وأنه بمتناول يده
أن يفعل ما يشاء فيتخلى عن مبادئه وينسى واجباته تجاه شعبه
وبلده وينحرف مبتعداً عن جادة الصواب ويصمّ اذنه عن سماع
النصيحة ويغفل عن قدرة الله عليه، او أصحاب الأموال يرون
أموالهم تتكاثر بسرعة وتأتيهم من حيث لا يحتسبون، فيغترروا بها
ويغضوا الطرف عن مصادرها وإخراج الحقوق الشرعية منها
ويبقون في هذا الوهم حتى تذهب لذتها وتبقى تبعثها.

٢- أن لا ننساق وراء شهوات النفس واطماعها فنسقط في
المعصية مهما بدت لذيدة وسهلة ومغرية وفي متناول اليد كالأموال
الطائلة التي يبذلها الفاسدون من أجل تمرير باطلهم أو السكوت
عنه، فيغتر بها ضعاف النفوس ويسقطون في فخوخهم أو
كالعلاقات الجنسية التي تبذل بيسر للشباب في المجتمعات
المختلطة أو على وسائل التواصل الاجتماعي والتقنيات الحديثة أو
أي مجال آخر، فالحذر من كل ذلك لأن القدم اذا زلّت فإنّ
الانحراف يزداد بمرور الوقت وتصبح العودة إلى جادة الصواب.

٣- الثقة بوعد الله تعالى وأنه لا يضيع أجر المحسنين ولا
يسكت عن ظلم او جور وأنه ينصر عباده المؤمنين ولكننا لا
نستطيع توقيت ذلك وما يفعله الله تعالى هو الخير.

٤- أن نعي هذه السنّة الإلهيّة (الاستدراج) حتى لا يتحول الاغترار بها إلى ظاهرة خطيرة حينما ينخدع المجتمع ببعض المظاهر الجذابة المبهرة التي يتنعم بها المستدرجون فيتمنى أن يكون مثلهم ولا يعلم العاقبة الوخيمة التي تنتظرهم كما ابتلي الكثير من أبناء المجتمع اليوم بهوس السلطة والصراع على المغنم ونيل الثراء الفاحش بسرعة، قال تعالى ﴿لَا يَغْرَنَكْ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^١

ويحكي القرآن الكريم حادثة قارون من بني إسرائيل للتحذير من هذه الظاهرة الخطيرة حيث آتاه الله تعالى أموالا عظيمة ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾^٢؛ فنصحه قومه فلم يستجب ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^٣ أي ان هذه النعم حصلت عليها بقدراتي وامكانياتي الشخصية وهنا ترد الإشارة الى هذه الظاهرة ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَىٰهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ۝ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ

١ - سورة آل عمران: ١٩٦-١٩٧.

٢ - سورة القصص: ٧٦.

٣ - سورة القصص: ٧٨.

من فئة ينصرونه^١ من دون الله وما كان من المنتصرين ○ وأصبح
الذين تمنوا مكانه^٢ بالأمس يقولون ويكأن الله يسقط الرزق لمن
يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه^٣ لا
يفلح الكفرون ○ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً
في الأرض ولا فساداً والعقبلة للمتقين^٤؛ فلنحذر من السقوط في
مقولة (ياليت لنا مثل ما اوتي قارون إنه لذو حظ عظيم) لان عاقبته
الندم الكبير حيث لا ينفع الندم.

ويقدم السيد الطباطبائي قدس سره تحليلاً لاستدراج هؤلاء
ووقوعهم في العذاب الدنيوي قبل الآخرة، قال قدس سره: «و من وجه
آخر لما انقطع هؤلاء عن ذكر ربهم و كذبوا بآياته سلبوا اطمئنان
القلوب و أمنها بالتشبث بذيل الأسباب التي من دون الله، و عذبوا
باضطراب النفوس و قلق القلوب و قصور الأسباب و تراكم
النوائب، و هم يظنون أنها الحياة ناسين معنى حقيقة الحياة السعيدة
فلا يزالون يستزيدون من مهلكات زخارف الدنيا فيزدادون عذاباً و
هم يحسبونه زيادة في النعمة حتى يردوا عذاب الآخرة و هو أمر و
أدهى، فهم يستدرجون في العذاب من لدن تكذيبهم بآيات ربهم
حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون»^٢.

١ - سورة القصص: ٧٩ - ٨٣.

٢ - الميزان في تفسير القرآن؛ ج ٨؛ ٣٤٦.



سنة خلافة المستضعفين



﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾

[القصص : ٥]

المستضعفون وخلافة الارض

أنتم المستضعفون بعدي:

لما عقد المتقلبون على الاعقاب المجتمعون في سقيفة بني ساعدة والنبى ﷺ مسجى لم يذفن بعد عزمهم على نبد كتاب الله تعالى وراء ظهورهم ومخالفة وصية رسول الله ﷺ في الخليفة من بعده وإقصاء أمير المؤمنين عائشة عن مقامه، وواجهوا النبى ﷺ بذلك الكلام القاسى الذى فيه إعلان الحرب على الله تعالى ورسوله ﷺ فى رزية يوم الخميس عندما أراد أن يؤكد الوصية ويكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده أبداً، وقال قائلهم (إن الرجل ليهجر)؛ جمع النبى ﷺ أهل بيته خاصة ونظر اليهم وبكى وقال لهم: «أنتم **المستضعفون بعدي**» (٢).

١ - كتاب الطبقات الكبرى - ط الخانجى ؛ ج ٢ ؛ ص ٢١٣ .

(٢) عيون أخبار الرضا عائشة ؛ ج ٢ ؛ ص ٦١ .

الأحداث المحزنة:

وظاهر الحديث وبقرينة الظروف التي صدر فيها أنه إخبار بأمرٍ محزن ومؤلم بأنّ زعماء الانقلاب سيظلمونهم ويعتدون عليهم بألوان الإيذاء، ولا يتورعون عن قتلهم وفعل اي شيء يتطلبه مشروعهم، وفي الحديث إشارة إلى أنّ فعل القوم بأهل بيت النبي ﷺ سيشابه فعل فرعون بيني إسرائيل حينما استضعفهم كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^١ وهكذا فعل القوم بآل بيت رسول الله ﷺ فقد كان شعارهم الذي صرّحوا به في يوم عاشوراء بعد أن كان مخفياً (لا تبقوا لأهل هذا البيت من باقية)^٢.

روى في تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لَقِيَ الْمُنْهَالَ بْنَ عَمْرٍو عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ فَقَالَ لَهُ كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: وَيْحَكَ أَمَا أَنْ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ كَيْفَ أَصْبَحْتُ أَصْبَحْنَا فِي قَوْمِنَا مِثْلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي آلِ فِرْعَوْنَ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَنَا وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَنَا...»^٣.

١ - سورة القصص : ٤

٢ - أضواء على ثورة الحسين عليه السلام السيد الصدر: ١٦٧، نقله عن مقتل الخوارزمي: ٣٨/٢

٣ - تفسير القمي : ج ٢ ؛ ص ١٣٤.

واستشهد أمير المؤمنين عليه السلام بقول هارون أخي موسى عليه السلام ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾^١ عندما أجبروه على بيعه أبي بكر فقال: «بَايَعُ قَالَ فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ قَالَ وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ نَضْرِبُ عُنُقَكَ قَالَ فَالْتَفَتَ عَلَيَّ عليه السلام إِلَى الْقَبْرِ فَقَالَ: يَا ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي»^٢

الأمل بوراثة المستضعفين:

ولما كانت الآيات القرآنية لا تختص بزمان دون زمان وإنما تعالج حالات وظواهر وتبين سنناً قابلة للتكرار في كل زمان إذا توفرت أسبابها وظروفها، فإن الآية التي تليها وهي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَّفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^٣ تعطي للحديث معنى آخر ملؤه التفاؤل والأمل وفيه وعد بالنصر والتمكين في الأرض ووراثتها ومن عليها واستعادة الحق لأهله وجعل الأئمة والقادة منهم لأن الإرادة الإلهية تعلقت بذلك ﴿وَنُرِيدُ﴾ فلا تتخلف ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾^٤،

١ - سورة الأعراف: ١٥٠

٢ - مناقب آل أبي طالب عليهم السلام (لابن شهر آشوب)؛ ج ٢؛ ص ١١٥

٣ - سورة القصص: ٥-٦.

٤ - سورة الروم: ٦.

﴿٧٤﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

فوصف النبي ﷺ أهل بيته بالمستضعفين فيه إشارة الى انطباق الآية عليهم
عليه السلام ولعلمهم مقصودون أكثر من موسى وهارون عليه السلام بالوعد الإلهي لورود
كلمة (منهم) فيها وليس (منه) أو (منهما) فيما لو كان المقصود موسى عليه السلام
أو هو وأخاه هارون، بل أن لفظ الحديث يفيد حصر الوصف بهم عليه السلام كما
لا يخفى على المتأمل في الحديث، ويجعلهم أيضاً المقصودين بالآية
الشريفة.

هذه سنة الهية ثابتة، في عباده المستضعفين واعدائه المستكبرين قال
تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي
بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا
مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾!

وكان الأئمة عليه السلام يصرِّحون بهذا المعنى في عدة روايات ليطمئنوا
شيعتهم ويزرعوا الأمل فيهم ويدفعوهم الى العمل المثمر وليردعوا أعداءهم
عن الظلم، ففي معاني الأخبار للصدوق بسنده عن المفضل قال سمعت أبا
عبد الله عليه السلام يقول: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَظَرَ إِلَىٰ عَلِيٍّ وَالحَسَنِ وَالحُسَيْنِ
عليهم السلام فَبَكَى وَقَالَ أَنْتُمْ الْمُسْتَضْعَفُونَ بَعْدِي قَالَ الْمَفْضَلُ فَقُلْتُ لَهُ مَا مَعْنَى
ذَلِكَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ مَعْنَاهُ أَنَّكُمْ الْأئِمَّةُ بَعْدِي إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(١) فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة^٢.

وصحّت الرواية عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَتَّعْظَنَ الدُّنْيَا عَلَيْنَا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ^٣ عَلَى وَلَدِهَا وَتَلَّا عَقِيبَ ذَلِكَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ الْآيَةَ^٤، وفي كتاب الغيبة للطوسي عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير الآية قال: «...هُمْ آلُ مُحَمَّدٍ يَبْعَثُ اللَّهُ مَهْدِيَّهُمْ بَعْدَ جَهْدِهِمْ فَيَعِزُّهُمْ وَ يَذِلُّ عَدُوَّهُمْ»^٥.

والآية جارية بعد الأئمة عليهم السلام في شيعتهم، روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ عَنَّا أَمْرًا وَ عَنَّا أَمْرَ الْقَوْمِ فَإِنَّا وَ أَشْيَاعَنَا يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ عَلَى سُنَّةِ مُوسَى وَ أَشْيَاعِهِ وَ إِنَّا عَدَوْنَا وَ أَشْيَاعَهُ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ عَلَى سُنَّةِ فِرْعَوْنَ وَ أَشْيَاعِهِ فَلْيَقْرَأْ

١ - سورة القصص : ٥

٢ - معاني الأخبار ؛ ص ٧٩

٣- وهي الناقة سيئة الخلق تعض حالبها فإذا كانت كذلك حامت عن ولدها، وقيل الضروس الناقة يموت ولدها أو يذبح فيحشى جلده فتدنو منه وتعطف عليه.

٤ - بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ٢٤ ؛ ص ١٦٧.

٥ - الغيبة (للطوسي)؛ كتاب الغيبة للحجة ؛ ص ١٨٤.

هُؤَلَاءَ آيَاتٍ^١ ، وقال سيد العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «...وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ وَشِيعَتَهُمْ بِمَنْزِلَةِ مُوسَى وَشِيعَتِهِ وَإِنَّ عَدُوَّنَا وَشِيعَتَهُمْ بِمَنْزِلَةِ فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ»^٢.

فالخصم قد تكون له جولة يغلب فيها وتكون بيده السلطة ويحكم قبضته على أولياء الله تعالى، ويستضعفهم وقد تطول مدة فرعته ولكن الدولة والنصر والغلبة يكون في النهاية لأهل الحق الذين استضعفوا ويذهب ما سواه جفاءً كالزبد.

لماذا سموا بالمستضعفين؟

وإنما سموا مستضعفين لأن أعدائهم يتوهمون فيهم الضعف بعد أن يسلبوهم كل أسباب القوة الظاهرية من السلطة والمال والنفوذ ويحاصروهم ويطوقوهم فيستكبرون عليهم ويظلمونهم، وهم ليسوا ضعفاء في ذاتهم بل انهم يملكون أسباب القوة، لكن لهم دين وورع وأخلاق وخوف الله تعالى يجعلهم يقدمون المصالح العليا للدين والمجتمع على المصالح الشخصية، ويمنعهم عن اتباع أساليب المكر والخداع لتحقيق مآربهم، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «وَلَكِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ جَعَلَ رَسَلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ وَضَعَفَةٍ فِيمَا

١ - تفسير فرات الكوفي ؛ ص ٣١٤.

(٢) مشكاة الأنوار في غرر الأخبار ؛ ص ٩٥.

تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ مَعَ قِنَاعَةٍ تَمَلُّ الْقُلُوبَ وَالْعَيُونَ غَنِيَّ وَخِصَاصَةً تَمَلُّ الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعَ أَذَى^١!

وعنه عليه السلام قال في الثناء على أحد أصحابه المخلصين: «كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي اللَّهِ... وَكَانَ ضَعِيفًا مُسْتَضْعَفًا فَإِنْ جَاءَ الْجِدُّ فَهُوَ لَيْثٌ عَادٍ وَصَلٌّ وَادٍ...»^٢.

مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ:

لقد أرادت السيدة الزهراء عليها السلام بمواقفها الرسالية أن تهدي الأمة الى المنهج الذي يوصلهم الى نيل هذا المنِّ الإلهي ليتخذ منهم قادة العالم ويمكنهم في الأرض ويجعلهم الوارثين باتباعهم علياً والأئمة من بعده والسير على هداهم، قالت عليها السلام في بعض كلماتها «أَمَا وَاللَّهِ لَوْ تَرَكَوْا الْحَقَّ عَلَى أَهْلِهِ وَاتَّبَعُوا عِتْرَةَ نَبِيِّهِ لَمَا اخْتَلَفَ فِي اللَّهِ تَعَالَى اثْنَانِ وَ لَوْرَثَهَا سَلَفٌ عَنْ سَلَفٍ وَ خَلَفٌ بَعْدَ خَلَفٍ حَتَّى يَقُومَ قَائِمُنَا التَّاسِعُ مِنْ وَوَلَدِ الْحُسَيْنِ وَ لَكِنْ قَدَمُوا مِنْ آخِرِهِ وَ آخَرُوا مِنْ قَدَمِهِ اللَّهُ حَتَّى إِذَا أَلْحَدَ الْمَبْعُوثُ وَ أَوْدَعَهُ الْجَدَثُ الْمَجْدُوثُ وَ اخْتَارُوا بِشَهْوَتِهِمْ وَ عَمَلُوا بِأَرَائِهِمْ تَبَّأَ لَهُمْ أَوْ لَمْ يَسْمَعُوا

١ - نهج البلاغة (للصبيحي صالح) ؛ ص ٢٩٢.

٢ - عيون الحكم و المواعظ (لليثي) ؛ ص ٣٩٨ ؛ الرقم : ٦٧٤٤.

اللَّهُ يَقُولُ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾^١ بَلْ سَمِعُوا
وَلَكِنَّهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ
الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^٢ هِيَاتَ بَسَطُوا فِي الدُّنْيَا أَمَالَهُمْ وَنَسُوا آجَالَهُمْ فَتَعَسَّأَ
لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ أَعُوذُ بِكَ يَا رَبِّ مِنَ الْحُورِ بَعْدَ الْكُورِ^٣.

البركة في التوحد خلف القيادة الصالحة:

فالصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام تدلّ الأمة على ان وراثتهم
الارض وتمكينهم فيها حتى تكون يدهم العليا وغيرها من البركات تتحقق
بوحدهم خلف قيادتهم الحقة وطاعتهم لها والتجرد عن الأهواء والتعصبات
والانفعالات والتحزبات والانانيات، وبذلك يحبطون خطط المستكبرين في
استضعاف الناس من خلال تمزيق وحدتهم وجعلهم جماعات وأحزاباً
ويضرب بعضهم بعضاً، قال تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا
شِيْعًا﴾^٤؛ اي فرقاً مختلفة فيفقدون قوتهم في صراعاتهم الداخلية ويسهل
استضعافهم لانهم لم يقيموا الدين في حياتهم وتخاذلوا على تطبيقه وتركوا

١ - سورة القصص : ٦٨ .

٢ - سورة الحج : ٤٦ .

٣ - كفاية الأثر في النص على الأئمة الإثني عشر ؛ ص ١٩٩.

٤ - سورة القصص : ٤.

فريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاءً﴾^١ ، ﴿أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعاً وَيَذِيقَ بَعْضَكُمْ بِأَسِ بَعْضٍ﴾^٢ .

حركة الأمة نحو وراثة الأرض:

وتبين السيدة الزهراء عليها السلام، ان حركة الامة نحو وراثة الارض والتمكين فيها لا بد ان يقف على راسها القائد الجامع للشروط قالت عليها السلام في خطبتها على نساء المهاجرين والأنصار وهي تذكر بركات اتباعهم أمير المؤمنين عليه السلام: «وَلَأُورِدَهُمْ مَنَهَلًا - وهو محل ورود الماء - نَمِيرًا - الماء العذب السائغ النامي للجسد - صَافِيًا رَوِيًّا - كثير - فُضْفَاضًا - واسعًا - تَطْفَحُ ضَفَّتَاهُ وَلَا يَتَرْتَقُ - لا يتكدر - جَانِبَاهُ وَلَا تُصْدِرُهُمْ بَطَانًا - أي أرجعهم مرتوين مملوئين - وَنَصَحَ لَهُمْ سِرًّا وَإِعْلَانًا... ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^٣ ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^٤ ...»^٥.

١ - سورة الروم: ٣٢ .

٢ - سورة الأنعام: ٦٥ .

٣ - سورة الأعراف : ٩٦ .

٤ - سورة الزمر: ٥١ .

٥ - الإحتجاج على أهل اللجاج (للطبرسي) ؛ ج ١ ؛ ص ١٠٩ .

للتمكين في الأرض درجات:

ولا بد ان نعلم ان التمكين في الارض ووراثتها له درجات متفاوتة لا يقتصر على تسلم السلطة والحكم فهذه وسيلة لا غاية وان التمكين الحقيقي هو ظهور وانتشار مشروعهم الالهي واقتناع الناس به فهذا هو المهم لان غرض الرسالات السماوية اصلاح الناس وهدايتهم وارشادهم الى السعادة والفلاح قال تعالى ﴿وَلِيُمْكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^١.

في الكافي عن أبي الصَّبَّاحِ الْكِنَانِيِّ قَالَ: «نَظَرَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَمْشِي فَقَالَ: تَرَى هَذَا ، هَذَا مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ..»^٢؛ فالامام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من اهل هذه الاية ولم يكن جزءا من السلطة لكنه عَلَيْهِ السَّلَامُ استطاع بحكمته وتسديد الله تعالى له بسط مشروعه المبارك.

١ - سورة النور: ٥٥

٢ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ١ ؛ ص ٣٠٦.

التركيز نحو السنن الإلهية بشروطها:

هذا ولكن علينا أن نأخذ قضية تمكين المستضعفين من أهل الحق كسائر القضايا بحدودها وشروطها ونضعها في موضعها الصحيح من منظومة المعارف والقوانين الإسلامية والسنن الإلهية لأنها من مقتضيات العدل والرحمة الآلهية، أما مجرد تعرضهم للإستضعاف وألوان العذاب لا يجعل صاحبها موعوداً بالنصر والتمكين.

فقد وصفت مجاميع اخرى بالاستضعاف لكنها أذرت وحذرت لتقصيرهم وتكاسلهم وظلمهم أنفسهم ولأنهم رضوا بحياة الخنوع والذل والاستضعاف والاستكانة، وربما داهنوا اهل الباطل ومضوا معه، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^١.

وويخ مستضعفون آخرون لأنهم كانوا قاصرين ولم يبحثوا عن طريق المعرفة بالله تعالى والفقہ في الدين والقيادة الحققة، قال تعالى ﴿إِلَّا

الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوُلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا ﴿١﴾ .

خصائص المستضعفين:

أما الذين وعدوا بالنصر والتمكين ووراثه الأرض فلهم خصائص وخصال توفرت فيهم لأن الظلم والعذاب والأضطهاد الذي تعرضوا له لم يدفعهم الى التنازل عن مبادئهم وأخلاقهم والتزامهم بالحق، بل حافظوا على وجودهم وعقيدتهم واخلاقهم والالتزام باتباع قيادتهم وما زادهم الاستضعاف الا هدى وصلاحاً ونضجاً.

وقد وردت أوصاف الذين يُمَكَّنون في الأرض في عدة آيات منها قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^٢ ، بعد قوله تعالى في وعدهم بالنصر ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^٣ .

فتمكينهم في الأرض تكون له بركات وآثار تكشف عن صدق نياتهم وإخلاصهم في أهدافهم وثباتهم على الاستقامة التي أمرهم الله تعالى بها

١ - سورة النساء: ٩٨-٩٩ .

٢ - سورة الحج: ٤١ .

٣ - سورة الحج: ٣٩ .

وعدم انخداعهم بالدنيا البرّاقة التي تتزيّن لهم إذا مكّن لهم في الأرض وهذه الخصائص هي:

١/ ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ فهم لا يكتفون بأداء الصلوات المفروضة عليهم كتكليف شخصي، وإنما يبذلون جهدهم لحث الناس جميعاً على الالتزام بها والمواظبة عليها وجعل الصلاة وجوداً اجتماعياً مؤثراً في حياة الناس ورادعاً لهم عن الفحشاء والمنكر ويشعر الجميع بمسؤوليتهم عن إقامته والمحافظة عليه، وأوضح مصداق لهذا الوجود صلاة الجمعة التي لا تؤدّى إلا جماعة وبحضور امة كبيرة من الناس مما يجعل لها كياناً مؤثراً في حياتهم، وهذا ما جرّبه المجتمع العراقي عندما أقيمت فيه صلاة الجمعة المباركة.

٢/ ﴿وَأَتَوْا الزَّكَاةَ﴾ بأن أخرجوا ما في ذمهم من حقوق شرعية وأقنعوا الآخرين بفعل ذلك وحثّوهم عليه وساعدوهم في إيصال هذه الأموال إلى مستحقيها وانشؤوا بها المشاريع الاقتصادية التي تؤدي إلى رفاه الناس وتوفير فرص العمل المناسبة والحياة الكريمة لهم.

٣/ ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فلم يتركوا أهل المنكر يفعلون ما يشاؤون بل وعظوهم وزجروهم واتخذوا الإجراءات الكفيلة بردعهم حتى لو اقتضى الأمر معاقبتهم، ولم يجاملوا أو يداهناوا كما يفعل الكثير من المتصدين اليوم تحت عناوين مخادعة كالحرية والديمقراطية وحقوق

الإنسان والمجتمع المدني وفصل الدين عن الدولة والحداثة والعصرنة
والتقدم ونحوها من الخدع والأباطيل.

وأمرؤا بالمعروف وهو كل أمر مستحسن شرعاً وعقلاً وأقره العرف،
ونشروه بين الناس وعرفوهم به وأيقظوهم من غفلتهم وأرشدوهم إلى ما
يصلح دنياهم وآخرتهم وعلموهم أحكام الدين وفضائل أهل البيت ع
ومناقبهم وسيرتهم العطرة، واقنعوهم باتباع القيادة الحقة.

هؤلاء هم من ينصرهم الله تعالى ويعزهم ويؤيدهم ويمكن لهم في
الأرض.

كَأَلَّتِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ:

إن كثيراً ممن مكنهم الله تعالى ليبتلهم وينظر في سيرتهم تنكروا
لتلك الشروط والصفات المطلوبة فانحرفوا وأفسدوا، فأوعدهم الله بعذابه
﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾^١.

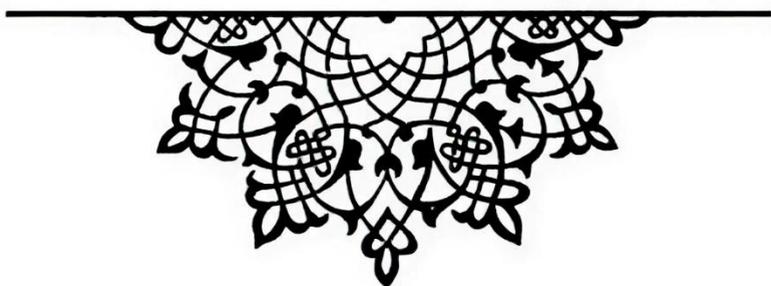
كالذي نشهده اليوم من تخلي الكثيرين ممن وصل إلى السلطة عن
أهدافهم وشعاراتهم والخصائص التي أشرنا إليها، حتى آل الأمر إلى هذا
الواقع التعيس الذي يعاني منه الكثيرون، وهذا كفر عظيم بالنعمة.

لكن بوادر النهضة والانبعاث تفجرت من جديد هذه الايام وكانت الهجمة الوحشية لخوارج العصر ومن يقف وراءهم الضارة النافعة التي وحثت الامة وابرزت مكامن قوتها فتحققت الانتصارات التي اذهلت القريب والبعيد.

ونأمل ان تكون هذه النهضة خطوة حقيقية على طريق اقامة دولة الحق والعدل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾^١.



سنة الابتلاء والتمحيص



﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾

[العنكبوت : ٢]

الفتن تصقل شخصية المؤمن وتفجر طاقته

تكشف الآية عن احدى السنن الإلهية الجارية في عبادته، وهي سنة الابتلاء بالفتن لتمييز الصادق الثابت على الحق من المنافق والكاذب والضعيف الذي يعدل عن الحق الى الباطل بمجرد مروره بصعوبات ومضايقات تكلفه التضحية بشيء من ماله أو جهده أو منزلته الاجتماعية.

وكان غرض سورة العنكبوت بيان تفاصيل هذه السنة الإلهية وضغوط الفتن التي يتعرض لها المؤمنون، وتستعرض باختصار نماذج من جهود ومعاناة الأنبياء الكرام، نوح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام في مواجهة الصعوبات والفتن من أقوامهم عاد وشمود وقارون وفرعون وهامان، ثم يبين هوان هؤلاء الطواغيت الذين فتنوا الناس عن دين التوحيد وأنهم أخذوا بذنوبهم بألوان متعددة من العذاب ﴿فَكَلَّمَا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾^١ ويصف جبروتهم بأنه أوهن من بيت العنكبوت، وبعد أن يذكر بعض اشكال الفتن واسبابها

﴿٩٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

فإنه وفي نهاية السورة يطمئن المؤمنين بأن ما يصيبهم في مواجهة الفتن سبب لتكاملهم ورفعة درجاتهم فليصبروا وليثبتوا ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾!

و ﴿حَسِبَ﴾ بمعنى (ظن) فالآية تستنكر بصيغة الاستفهام ظنَّ بعض الناس بأن مجرد التلطف بالشهادتين يجعله في مصاف المؤمنين المستحقين للفوز برضوان الله تعالى، وهذا ظن خاطئ إذ لا بد من اقتران الأقوال بالأفعال، والثبات على طريق الاستقامة فكراً وسلوكاً، وعدم الابتعاد عنه اتباعاً لشهوة أو انسياقاً وراء غضب أو طاعة لزعامة منحرفة.

وقيل في معنى الآية ان بعض الناس يظنون أنهم بمجرد قولهم آمناً لا بد أن يحظوا بالامتيازات وترفع عنهم التكاليف وتكون لهم كرامة تعفيهم من المسؤولية قال تعالى ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] وهذا الظن موجود عند بعض الناس الذين يعتقدون بأن لهم شأنية خاصة تميزهم عن باقي الناس لا بد من مراعاتها فاذا طبقت عليهم قواعد العدالة الاجتماعية فتنوا وزلت أقدامهم وانحرفوا كالذي حصل لبعض العناوين الكبيرة من الصحابة عندما تولى أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة وأرجع الجميع

الى ميزان العدالة الاجتماعية فقاتلوه على هذه الامتيازات، والمعنى الأول على أي حال هو الأكثر انسجاماً مع سياق الآيات.

وفي معنى الفتنة قال الراغب «أصل الفتن: إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، و استعمل في إدخال الإنسان النار. قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾^١ (...)^٢.

وقال بعض المحققين^٣ ان الفتن يعني إحداث الانقلاب والاضطراب والاختلال، وهو معنى قريب، وقد عبر أمير المؤمنين عليه السلام عن هذا المعنى الدقيق للفتنة بقوله « وَ الَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لِيَتَّبِعُنَّ بِبَلْبَلَةٍ وَ لِيَتَّغَرَّبُنَّ غَرْبَلَةً وَ لِيَسَاطُنَّ سَوَاطِنَ الْقُدْرِ ۗ حَتَّىٰ يَعُودَ أَسْفَلَكُمْ أَعْلَاكُمْ وَ أَعْلَاكُمْ أَسْفَلَكُمْ وَ لِيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصْرًا وَ لِيَقْصُرَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا سَبَقُوا^٤، وهي تعابير صريحة في معنى الاختلال والاضطراب كالغليان، وحينئذ يكون اطلاق لفظ الفتن على الادخال في النار - كما عن الأكثر - باعتباره أحد موجبات حصول هذه الحالة، كما يطلق أحياناً على النتائج والمآلات كقوله تعالى ﴿ذوقوا

١ - الذاريات: ١٣.

٢ - مفردات ألفاظ القرآن ؛ ص ٦٢٣.

٣ - التحقيق في كلمات القرآن للمصطفوي: ٢٣ / ٩.

٤ - أي تكونون كالأشياء المتعددة التي توضع في القدر ثم تضرب باليد لتختلط.

٥ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٨ ؛ ص ٦٧.

﴿٩٢﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

فَتَنَّاكُمْ^١ أي عذابكم باعتباره نتيجة فتنة الضلال، وكقوله تعالى ﴿**أَلَا فِي**
الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾^٢ أي العذاب باعتبار الفتنة السبب الموجب له.

وبهذه المناسبات واللاحظات يستعمل لفظ الفتنة في الامتحان والابتلاء والاختبار رغم انها ليست متطابقة في معانيها الدقية وإنما أطلقت باعتبارها أسباباً أو مظاهراً للفتنة أو نتائج لها فالفتنة ابتلاء وامتحان، والابتلاء والامتحان سبب للفتنة وهكذا، فلذا يطلق بعضها على بعض.

مصاديق الفتنة:

وللفتنة مصاديق يتحقق بها معناها كالأموال والأولاد ﴿**وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالِكُمْ**
وَأَوْلَادِكُمْ فَتْنَةٌ﴾^٣ ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَتْنَةٌ**﴾^٤ والزوجة قد تكون فتنة
﴿**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾^٥ في وصف النبي الكريم
عيسى عليه السلام «**وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ**»^(٦) كما ان للفتنة اسباباً ومناشئ نفسية
 واجتماعية مثل الكفر والجهل والحمافة والتطرف والشهوات والتعصب
 والغضب والعجلة والاختلاف والفرقة والتحزب، فإنها كلها فتن تسبب

١ - الذاريات: ١٤.

٢ - التوبة: ٤٩.

٣ - الأنفال: ٢٨.

٤ - التغابن: ١٥.

٥ - التغابن: ١٤.

٦ - نهج البلاغة (للصبيحي صالح)؛ ص ٢٢٧.

اضطراباً واختلالاً في جريان الأمور وتحولاً نحو الخير أو الشر ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^١، فلا بد أن يتثبت الإنسان من موقفه وموطئ قدمه، وإلا زلَّ وهوى.

وتفيد الآية بأن الناس غير متروكين لأنه لا بد من تعرضهم للفتن، ومرورهم باختبارات وابتلاءات لتظهر معادنهم ولتمييز حقائقهم ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^٢ فان ادعاء العناوين الكبيرة كالمؤمن والمجاهد والتمقي والمصلح أمر سهل الا ان الإثبات والثبات أمر صعب لقوة التحديات التي تواجهه، وهو يحمل رسالة التوحيد وخلافة الله تعالى في الأرض، ويتحمل مسؤولية إصلاح الواقع الفاسد وهداية الناس الى الحق ونبذ ما سوى الله تعالى من الآلهة التي تطاع من دون الله ابتداءً من النفس الأمارة بالسوء إلى الأمور الأخرى التي يتعلق بها الناس ويطيعونها ونحو ذلك من لوازم تحمل الأمانة الإلهية، فهي سباحة ضد التيار الجارف كما يقولون خصوصاً مع عناد ومقاومة الملاء وهم أهل النفوذ والمصالح المتحكمون في المجتمع، فيحتاج الى صبر وجهد وشجاعة حتى يصل الى بر الأمان.

وهو ما يفشل فيه الكثير من الناس فأنهم يسقطون في أدنى امتحان قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ

١ - الأنبياء: ٣٥.

٢ - الأنفال: ٣٧.

فَتَنَّةٌ أَنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١﴾ وقال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ ٢.

لذا كان من الحكمة الإلهية مرور الإنسان بهذه الفتن لتصلق شخصيته المعنوية ويتكامل إيمانه ويثبت ويستقر فان الطاقات تتفجر عند الشدائد وتنضج القابليات وتصلق المواهب ويدرك المؤمن عظمة الرسالة التي تحملها فلا يفرط فيها مهما كان الثمن لأنه دفع ثمناً غالياً في سبيلها فالتعرض للفتن يراد به مصلحته، روي عن الامام الصادق عليه السلام قوله: «إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ فِيهِ قَبْضٌ أَوْ بَسْطٌ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَوْ نَهَىٰ عَنْهُ إِلَّا وَفِيهِ مِنَ اللَّهِ ابْتِلَاءٌ وَ قَضَاءٌ» ٣، روى في الكافي بسنده عن معمر بن خلاد قال: «سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ عليه السلام يَقُولُ: ﴿الْمَ أَحْسَبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ٤ ثُمَّ قَالَ لِي: مَا الْفِتْنَةُ؟ قُلْتُ: جَعَلْتُ فِدَاكَ الَّذِي عِنْدَنَا الْفِتْنَةُ فِي الدِّينِ فَقَالَ: يُفْتَنُونَ كَمَا يُفْتَنَ الذَّهَبُ ثُمَّ قَالَ: يَخْلَصُونَ كَمَا يَخْلَصُ الذَّهَبُ» ٥، وروى الكليني عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله في خطبة له: «وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ

١ - الحج: ١١.

٢ - العنكبوت: ١٠.

٣ - المحاسن ؛ ج ١ ؛ ص ٢٧٨.

٤ - العنكبوت : ١،٢.

٥ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ١ ؛ ص ٣٧٠.

يَخْتَبِرُ عِبِيدَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ وَ يَتَعَبَّدُهُمْ بِاللَّوَانِ الْمَجَاهِدِ وَ يَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ إِخْرَاجًا لِلتَّكْبِيرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَ إِسْكَانًا لِلتَّذَلُّلِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَ لِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَابًا فَتْحًا إِلَى فَضْلِهِ وَ أَسْبَابًا ذُلًّا لِعَفْوِهِ وَ فَتْنَتِهِ^١ ثم قرأ الآية.

أنواع الفتن:

وقد تكون الفتنة شديدة والامتحان صعباً فاذا وجد الشخص نفسه ضعيفاً عاجزاً عن مواجهة الفتنة وتحمل تكاليفها، ولم يستطع المحافظة على إيمانه والتزامه بالدين في هذه البقعة لشدة البلاء فيها فليهاجر الى غيرها حيث يستطيع أن يحافظ على دينه ولو مستتراً قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا^٢، ولا يجوز له أن يضعف أو يستسلم ويترك دينه ويتنازل عن عقيدته الحقّة فان الدين أهم شيء في حياة الانسان قال تعالى ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ^٣﴾ وقال تعالى ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ^٤﴾، روى في الدر المنثور في قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ^٥﴾ قال: « ناس من

١ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٤ ؛ ص ٢٠٠.

٢ - النساء: ٩٧.

٣ - البقرة: ١٩١، راجع القبس الذي يفسر الآية في الجزء الأول.

٤ - البقرة: ٢١٧.

٥ - العنكبوت: ١٠.

الْمُنَافِقِينَ بِمَكَّةَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ فَإِذَا أُوْذُوا وَأَصَابَهُمْ بَلَاءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ مَخَافَةَ مَنْ يُؤْذِيهِمْ وَجَعَلُوا إِذَى النَّاسِ فِي الدُّنْيَا كَعَذَابِ اللَّهِ!.

وتؤكد الآية التالية بأن هذه السنة الإلهية غير مختصة بهذه الأمة بل هي شاملة لجميع البشر المكلفين المشمولين بقانون الثواب والعقاب ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ وما دامت الأمم الأخرى كلها قد تعرضت للفتن ابتلاءً واختباراً فما الذي يعفي هذه الأمة منها؟ وقد تعرض المؤمنون في تلك الأمم لأشكال من فتن الشهوات والمغريات والترف والرخاء ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾^٢، كما تعرضوا لألوان قاسية من العذاب، قال في جوامع الجامع: «...مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لِيَمْشَطَ أَحَدُهُمْ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُوضِعَ الْمِنْشَارَ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَيَشُقُّ بِأَثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ...»^٣ ومنه ما يحكيه القرآن الكريم في سورة البروج عن المؤمنين الذين حفرت لهم خنادق واشعلت فيها النيران وألقوا فيها أو يتخلوا عن عقيدة التوحيد قال تعالى ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا

١ - الدر المنثور: ج ٦ / ص ٤٥٣

٢ - الروم: ٩.

٣ - إعلام الوري بأعلام الهدى (ط - القديمة) ؛ ص ٤٧.

قَعُودٌ ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ .

وتشتد الفتنة حينما يطول البلاء بالمؤمنين وتكثر الصعوبات عليهم ولا يرون في الأفق فرجاً قريباً حتى تذهب ببعضهم الظنون الى عدم صدق وعد الله تعالى بالنصر والفرج قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿١﴾ ، وقال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَانًا عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ ﴿٣﴾ .

وفي التذكير بذلك تثبيت لقلوب المؤمنين وتقوية لعزمهم، وتشجيع لهم بأنه مهما اشتدت معاناتهم أو الضغوط عليهم وأحاط بهم الفساد والضلال والانحلال لا بد أن يثبتوا على الايمان ولا يتأثروا بالبيئة الملوثة التي تحيط بهم، وسيأتيهم الفرج بحسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية لا بما نشتهي نحن.

وبنفس الوقت عليهم أن لا ينبهروا بما يتنعم به الكفار والمنحرفون والعاصون من سلطة ومال وشعبية واسعة وهالة إعلامية وأمجاد مصطنعة، ويرون أنفسهم

١ - البروج: ٤-٨

٢ - البقرة: ٢١٤.

٣ - يوسف: ١١٠.

لا يعبأ بهم أحد فيعرضوا على ما هم فيه ويتمنوا أن يكونوا مثل أولئك المترفين ويغفلون عن حقيقة ان في هذا ابتلاءً وفتنةً لهم ﴿وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقَ رَبُّكَ خَيْرًا وَأَبْقَى﴾^١ وعلى المؤمنين ان لا يستعجلوا زوال الفتنة وفناء صاحبها، روى في علل الشرائع بسنده عن الامام الصادق عليه السلام «قال رسول الله صلى الله عليه وآله إياكم وجدال كل مفتون فإن كل مفتون ملقن حجته إلى انقضاء مدته فإذا انقضت مدته أحرقتة فتنته بالنار»^٢.

وقد تكون فتنة الشخص بأن تتواتر عليه النعم ويعيش في رخاء فتتحرك شهواته وتميل نفسه الى الدعة والراحة والاستكانة والتخلي عن التزاماته الدينية كمن يترك أداء حقوقه الشرعية اذا توسعت أمواله ويترك الصلاة لأنها تتعارض مع ذروة حركة السوق وهكذا يتخلى عنها واحدة واحدة، وقد تزيد عليه هذه النعم رغم عصيانه وانحرافه فيظن انه على خير وانه مستحق للنعم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^٣ لذا ورد التحذير من فتنة الرخاء أكثر من الضراء

١ - طه: ١٣١.

٢ - علل الشرائع ؛ ج ٢ ؛ ص ٥٩٩.

٣ - آل عمران: ١٧٨.

ففي الحديث النبوي الشريف «لَأَنَا مِنْ فِتْنَةِ السَّرَّاءِ أَخَوْفَ عَلَيْكُمْ مِنْ فِتْنَةِ الضَّرَّاءِ، إِنَّكُمْ ابْتَلَيْتُمْ بِفِتْنَةِ الضَّرَّاءِ فَصَبِرْتُمْ، وَإِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خَضِرَةٌ»^١.

وقد تبين ان أنواع الفتن عديدة فبعضها ما ذكرناه من تعرض المؤمن للأذى والقسوة والأساليب الوحشية ولا يجد ما يساعده على انقاذ نفسه، وهي ليست الأشد رغم عنفها، بل أشد منها ما تقدم من فتنة الرخاء ورؤية العاصين لله تعالى متنعمين.

والفتن قد تكون شخصية تتعلق بالنفس والمال والولد كالذي رواه في المجمع «مَعْنَى يَفْتِنُونَ يَبْتَلُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ» وهو المروي عن أبي عبدالله عليه السلام.

وقد تكون عامة وهي التي تشمل قاعدة واسعة من الناس كما لو كانت عقائدية أو اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو فكرية يوقع بعض الناس بعضهم فيها، قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾^٢.

فعلى الإنسان المؤمن - في أي موقع كان - أن يراقب أقواله وأفعاله وسلوكه ويكون حذراً متيقظاً حتى يكون سبباً لإصلاح الآخرين وهدايتهم واستقامتهم وليس العكس كمن يكون ظاهره التدين والصلاح فيقوم بأفعال منكرة يأبأها

١ - نهج الفصاحة (مجموعه كلمات قصار حضرت رسول صلى الله عليه وسلم) ؛ ص ٦٢١.

٢ - الفرقان: ٢٠.

﴿١٠٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

الشرع المقدس كسرقة المال العام فيخضع به غيره ويظنون أن ما يفعله صحيح وجائز، فكان الصالحون يسألون الله تعالى أن لا يكونوا سبباً لفتنة الآخرين، قال تعالى حكاية عنهم ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفُرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^١.

وكان الأئمة عليهم السلام دقيقين في بيان كل ما يكون سبباً للفتنة ويحذرون منه وينبهون عليه، روي أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يمشي راكباً وكان أحد أصحابه يمشي معه راجلاً فقال عليه السلام «ارْجِعْ فَإِنَّ مَشِيَّ مِثْلِكَ مَعَ مِثْلِي فِتْنَةٌ لِلْوَالِي وَ مَذَلَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ»^٢ ويصل التحذير الى مستوى مدحك لشخص بكلمات تجعله يفقد الاتزان والحكمة وينخدع بها فتكون انت القائل سبب افتتانه قال عليه السلام «رَبِّ مَفْتُونٍ بِحَسَنِ الْقَوْلِ فِيهِ»^٣.

وقد وصف الله تعالى أي شخص يقف عائقاً في طريق إقامة دين الله تعالى وتطبيق أحكامه وتشريعاته، أو يعطل سننه، فضلاً عما يكون داعياً الى الضلال والانحراف ومروجاً له بأنه فتنة، قال تعالى في اتخاذ أولياء غير

١ - الممتحنة: ٥.

٢ - نهج البلاغة (للصبيحي صالح) ؛ ص ٥٣٢.

٣ - نهج البلاغة (للصبيحي صالح) ؛ ص ٥٥٦.

المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ
وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾^١.

أو كالذين يضعون شروطاً للتزويج ليست شرعية ولا عقلانية كعدم تزويج
العلوية من غير العلويين وإن كانوا أكفاء ونحو ذلك من الشروط والموانع،
ففي الحديث الشريف عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إِذَا جَاءَكُمْ مِنْ
تَرْضُوعٍ خَلَقَهُ وَدِينَهُ فزُوجُوهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ دُنْيَا فِي نَسَبِهِ
قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مِنْ تَرْضُوعٍ خَلَقَهُ وَدِينَهُ فزُوجُوهُ إِنَّكُمْ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ
فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ»^٢ والتجربة والواقع يشهدان بذلك.

وتوعّد بالعقاب الشديد من يكون سبباً لفتنة الآخرين قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ
فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ
الْحَرِيقِ﴾^٣ وقال تعالى محذراً: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ
فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^٤.

١ - الأنفال: ٧٣.

٢ - تهذيب الأحكام (تحقيق خرسان)؛ ج ٧؛ ص ٣٩٤.

٣ - البروج: ١٠.

٤ - النور: ٦٣.

الفتن داخل الأسرة:

وإن صانعي الفتن ومثيريها فئات عديدة تبدأ من داخل الأسرة كالضغط الذي يتعرض له من أرحامه وذويه - خصوصاً الوالدين - باسم الشفقة والحب والالاحاح عليه بأن لا يكون سبباً لإيذائهم فيدعونه الى التخلي عن إيمانه ولوازمه في القول والعمل، وقد عاش الشباب المؤمن هذه الحالة بقوة ابان الثمانينات من القرن الماضي حيث بلغ بطش النظام الصدامي البائد ذروته، وتحكي الآية الثامنة من السورة أن الفتنة قد يكون مصدرها الوالدين من خلال التأثير السيئ المؤدي الى الرجوع عن الايمان ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾^١. وقد يكون الوالدان سبباً للفتنة بسوء تربيتهما، مثلاً يطرق شخص باب الدار فيقول الأب لولده قل له ان والدي غير موجود فيتعلم ابنه الكذب وهكذا.

أهل الضلال وفتنة المؤمنين:

وتحدث الآية الثانية عشرة عن مكر أهل الضلال والانحراف وخداعهم حتى يفتنوا المؤمنين ويعيدوهم الى صفوفهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^٢، وهذا الأسلوب يتبعه البعض حتى اليوم فيقول أحدهم للآخر

١ - العنكبوت: ٨.

٢ - العنكبوت: ١٢.

أفطر شهر رمضان وذئبك برقبتي أو يقول له خذ المال - وهو محرم - أو تقول المرأة لزميلتها ألقى الحجاب وبرقبتي وهكذا.

ويستمر أصحاب الفتن والضلالات والفساد والانحراف في الضغط على المؤمنين بوسائل الاغراء أو التهديد حتى يكسبواهم الى صفوفهم ويحرفوهم عن طريق الاستقامة، قال تعالى ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا﴾!

وأخطر الفتن ما تأتي بسبب اتباع الزعامات الباطلة المنحرفة، قال أمير المؤمنين عليه السلام «إِلَّا فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكِبْرَائِكُمْ فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ وَدَعَائِمِ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ»^٢.

ويحلل أمير المؤمنين عليه السلام أسباب الوقوع في الفتن والفشل في اجتيازها، قال عليه السلام: «وَإِنَّمَا ابْتِدَاءُ وَقُوعِ الْفِتَنِ مِنْ أَهْوَاءِ تَتَّبِعُ وَأَحْكَامِ تَبْتَدِعُ يَخَالَفُ فِيهَا حُكْمَ اللَّهِ يَتَوَلَّى فِيهَا رِجَالٌ رِجَالًا وَيَتَبَرَّأُ رِجَالٌ مِنْ رِجَالٍ أَلَا إِنَّ الْحَقَّ لَوْ خَلَصَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ اخْتِلَافٌ وَإِنَّ الْبَاطِلَ لَوْ خَلَصَ لَمْ يَخَفْ عَلَى ذِي حِجْبِي وَ لَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِعْفٌ وَمِنْ هَذَا ضِعْفٌ فَيَمَزْجَانِ فَيَحْسَبَانِ

١ - الإسراء: ٧٣.

٢ - نهج البلاغة (للصبيحي صالح) : ص ٢٨٩.

مَعَا فَهَنَّاكَ اسْتَوْلَى الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَ نَجَا الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا
الْحُسْنَى»^١.

وهذا ما حصل في الفتنة العظمى بعد وفاة رسول الله ﷺ حيث كان
الانقلاب الذي أخبر به القرآن الكريم باباً لكل الشرور والآثام، روي عن
الامام الحسين عليه السلام عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام انه قال «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الم﴾ ،
أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ»^٢ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ
مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ؟ قَالَ: يَا عَلِيُّ إِنَّكَ مُبْتَلَى وَ مَبْتَلَى بِكَ وَ إِنَّكَ مَخَاصِمٌ فَأَعِدَّ
لِلْخِصْمَةِ»^٣.

ولابد ان نلتفت الى ان الفتن تزداد والبلاء يشتد كلما اتسعت مسؤولية الفرد
والمجتمع وارتقى في تكامله، ففي الحديث النبوي الشريف: «أشد الناس
بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يتلى الرجل على حسب
دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء»^٤ لكي يتناسب العمل مع
الجزاء ولكي يتحقق الاستعداد لتحمل المسؤوليات الكبيرة، قال أمير

١ - كتاب سليم بن قيس الهلالي ؛ ج ٢ ؛ ص ٧١٩.

٢ - العنكبوت : ١،٢.

٣ - مناقب آل أبي طالب عليه السلام (لابن شهر آشوب) ؛ ج ٣ ؛ ص ٢٠٣.

٤ - الترمذي ٣٢٨٩ وصححه الألباني ١٤٢/١ .

المؤمنين عليه السلام «كلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل»^١.

لذا فعلينا توقع المزيد منها كلما اقتربنا من عصر الظهور المبارك روي عن الامام الرضا عليه السلام قوله: «لَا يَكُونُ مَا تَمُدُّونَ إِلَيْهِ أَعْنَاقَكُمْ حَتَّى تَمِيزُوا وَ تَمَحَّصُوا فَلَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ»^٢ ثم قرأ الآية الكريمة.

وهذا ما ينبه اليه الامام عليه السلام في أدعية زمان الغيبة ومنها دعاء الافتتاح حيث يعلمنا الاستغاثة بالله تعالى من فتن هذا الزمن، قال عليه السلام «اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ فَقَدْ نَبِئْنَا صَلَوَاتِكَ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ غَيْبَةَ وَلِيِّنَا وَ كَثْرَةَ عَدُوِّنَا وَ قَلَّةَ عِدَدِنَا وَ شِدَّةَ الْفِتَنِ بِنَا وَ تَظَاهَرَ الزَّمَانِ عَلَيْنَا»^٣.

وسيكون العراقيون أشد الناس ابتلاءً وامتحاناً بألوان الفتن الشديدة الشخصية والعامية، لأن الامام الموعود عليه السلام سيقم دولته في ربوعهم ويتخذ من بلدهم عاصمة لهم ينطلق منها لإقامة دولته العالمية المباركة^٤.

٤ - نور الثقلين: ٤٧٠/٤ ح ١٣.

٢ - الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد؛ ج ٢؛ ص ٣٧٥.

٣ - إقبال الأعمال (ط - القديمة)؛ ج ١؛ ص ٦١.

٤ - راجع بيان أسباب ما يمر به العراقيون من بلاء شديد في موسوعة خطاب المرحلة: ٦/٥-١٧.

من منجيات الفتن:

لذا علينا ان نتمسك بالمنجيات من الفتن وهم العلماء العاملون المخلصون
فأنهم ورثة أهل البيت عليهم السلام حقاً، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أَيُّهَا النَّاسُ
شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسَفْنِ النَّجَاةِ»^١، مع الالتزام بالتقوى والتفقه في الدين قال
رسول الله صلى الله عليه وآله «ستكون فتن يصبح الرجل فيه مؤمناً ويمسي كافراً، الا من
أحياه الله تعالى بالعلم»^٢ وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ وَنُوراً مِنَ الظُّلْمِ»^(٣).

نسأل الله تعالى ان يثبتنا على الهدى والاستقامة ويجنبنا مضلات الفتن وان
يختار لنا الخير في أمورنا كلها إنه ولي النعم.

١ - نهج البلاغة (للصبيحي صالح) : ص ٥٢.

٢ - كنز العمال: ح ٣٠٨٨٣

٣ - نهج البلاغة (للصبيحي صالح) : ص ٢٦٦.



شُقِّقُوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسَفْنِ النِّجَاةِ



ملحق:

شَقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسْفَنِ النِّجَاةِ^١

قال الله تبارك وتعالى في بداية سورة العنكبوت ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^٢. فسنة الامتحان والابتلاء والاختبار جارية في عباد الله لتظهر استحقاقاتهم وهو مقتضى العدالة وبدونها لا يمكن تكريم محسن ولا معاقبة مسيء ويكون من الظلم تقديم أحد على أحد كتقييم الطلبة في المدارس والجامعات.

وتفاوت الامتحانات شدةً وضعفاً بحسب استعداد الشخص وقابليته ليستحق النتائج بجدارة، وقد مرّت الأمم السابقة ببلاءات عسيرة كانت فيها قلوب الصفوة من المؤمنين تنزلزل فضلاً عن عامة الناس، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبًا﴾

١ - هذه خلاصات لبعض الأفكار التي وردت في أحاديث سماحة آية الله الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) مع تجمعات الوفود التي زارته من عدة مدن عراقية من بينها اللديوانية وناحية الإمام في الحلة وناحية الفجر في الناصرية وناحية العزيزية في الكوت يومي ٢٩-٣٠ ج ١ ١٤٢٦ المصادف ٦-٢٠٠٥/٧/٧.

٢ - العنكبوت: ٢-٣.

﴿١١٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ^١ وليس من الضروري أن يكون هذا النصر القريب هو بانفتاح الدنيا عليه وتنعمه بالخيرات وتسلمه لمواقع السلطة؛ لأن النصر الحقيقي والأكبر هو على النفس الأمارة بالسوء والتحرر من الانصياع لأهوائها ومطامعها والنصر على غواية الشيطان وعدم الاستجابة لإغراءاته، فهذا هو الميدان الأول للنصر والهزيمة وعليه يتفرع النصر والهزيمة في الميدان الخارجي، وما هذه المظالم التي تحصل بين البشر إلا نتيجة الهزيمة في ذلك الصراع، كما أن البشرية لا تنعم بالسلام والخير والسعادة إلا إذا انتصرت على أهوائها ونزعاتها وملكت زمامها وضبطتها بميزان العدل والحكمة.

إذن فهذه البلاءات والفتن التي تمر بها امتنا اليوم ليست حالة فريدة ولا شاذة، بل هو امتداد طبيعي لتلك السنة الإلهية العادلة، ولم يغفل التخطيط الإلهي للبشرية هذه الحالة بل وضع لهم معالم طريق النجاة من الفتن بالتمسك بحبل الله الممدود لإنقاذ البشر من التخبط والانحراف والضلال والضياع والتمزق.

ويتمثل حبل الإنقاذ هذا بكتاب الله وعترته نبيه ﷺ الذين ينقلون بأمانة وتفصيل سنة جدّهم الكريم ﷺ حيث قال ﷺ «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً».

شَقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسَفْنِ النِّجَاةِ.....﴿١١١﴾

وَنَبَّهَ ﷺ أُمَّتَهُ فِي بَعْضِ خُطْبِهِ بِأَنَّ الْفِتْنَ جَاءَتْكُمْ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ وَحَذَرَهُمْ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قَبْلِ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^١، وَأَرْشَدَ الْأُمَّةَ إِلَى أَنَّ نَجَاتَهَا تَكُونُ بِاتِّبَاعِ قَادَتِهَا الْحَقِيقِيِّينَ فَهَمَّ سَفْنِ النِّجَاةِ (شَقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسَفْنِ النِّجَاةِ)، فَهِيَ لَيْسَتْ فِتْنَةً وَاحِدَةً وَإِنَّمَا فِتْنٌ كَثِيرَةٌ وَهِيَ كَالْأَمْوَاجِ مُتَلَحِّقَةٌ لَا تَنْتَهِي وَاحِدَةً حَتَّى تَلْحَقَهَا أُخْرَى وَلَا تَتَخَلَّصُ مِنْ وَاحِدَةٍ حَتَّى تَأْتِيَ أَكْبَرَ مِنْهَا كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْأَمْوَاجِ.

وَقَدْ أَدَّى الْأُئِمَّةُ دَوْرَهُمْ فِي هِدَايَةِ الْأُمَّةِ وَصِيَانَةِ عَقِيدَتِهَا وَأَخْلَاقِهَا مِنَ الْإِنْحِرَافِ، وَدَافَعُوا عَنِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ وَضَحَّوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ النَّاسِ وَأَرْشَدُوهُمْ إِلَى مَا يَصْلِحُ حَالَهُمْ.

وَبَعْدَ انْتِهَاءِ عَصْرِ الْقِيَادَةِ الظَّاهِرَةِ لِلْأُئِمَّةِ جَاءَ دَوْرُ الْعُلَمَاءِ الْمُجْتَهِدِينَ الْجَامِعِينَ لِمِنْ لُصْفَاتٍ وَخِصَائِصٍ هَذَا الْمَوْقِعِ الشَّرِيفِ، لِيَكُونُوا سَفْنَ النِّجَاةِ بِأَمْرِ مِنَ الْأُئِمَّةِ حَيْثُ وَصَفُوا الْعُلَمَاءَ بِأَنَّهُمْ (أَمْنَاءُ الرُّسُلِ وَحِصُونُ الْإِسْلَامِ) فَهَمَّ الْأَمْنَاءُ عَلَى مَسْئُولِيَّاتِ الرُّسُلِ، وَالْأُولَى بِاسْتِحْقَاقَاتِهِمْ وَجَعَلُوا قَوْلَهُمْ حُجَّةً

على الناس جميعاً «هؤلاء حجتي عليكم وأنا حجة الله والراد عليهم كالراد علينا»^١.

وقد ورد تسمية مثل هؤلاء الفقهاء الأمناء سفن نجاة في الرواية التالية، فقد كان زرارة بن أعين من أعظم الفقهاء الذين رباهم الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام وأوسع الأوعية لحمل علمهما، ومع ذلك فقد صدرت من الإمام الصادق عليه السلام كلمات ذم في حق زرارة لم يفهم فلسفتها الكثيرون، وقد شرح الإمام الصادق عليه السلام ذلك بما روي عن عبد الله بن زرارة قال: «قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اقْرَأْ مِنِّي عَلَى وَالِدِكَ السَّلَامَ وَقُلْ لَهُ: إِنِّي أَعْيَبُكَ دَفَاعاً مِنِّي عَنْكَ فَإِنَّ النَّاسَ وَالْعَدُوَّ يَسَارِعُونَ إِلَى كُلِّ مَنْ قَرَّبَنَاهُ وَحَمَدْنَا مَكَانَهُ لِإِدْخَالِ الْأَذَى فِيمَنْ نَحَبَهُ وَنَقَرَبَهُ وَيَذْمُونَهُ لِمَحَبَّتِنَا لَهُ وَقَرَبَهُ وَدَنُوهُ مِنَّا وَيُرُونَ إِدْخَالَ الْأَذَى عَلَيْهِ وَقَتْلَهُ وَيَحْمَدُونَ كُلَّ مَنْ عَيَّبَنَاهُ نَحْنُ وَإِنْ يَحْمَدُ أَمْرَهُ فَإِنَّمَا أَعْيَبُكَ لِأَنَّكَ رَجُلٌ اشْتَهَرْتَ بِنَا وَبِمَيْلِكَ إِلَيْنَا وَأَنْتَ فِي ذَلِكَ مَذْمُومٌ عِنْدَ النَّاسِ غَيْرِ مَحْمُودِ الْأَثَرِ بِمُودَتِكَ لَنَا وَلِمَيْلِكَ إِلَيْنَا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَعْيَبُكَ لِيَحْمَدُوا أَمْرَكَ فِي الدِّينِ بَعِيْبِكَ وَنَقْصِكَ وَيَكُونَ بِذَلِكَ مِنَّا دَفْعٌ شَرِّهِمْ عَنْكَ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾^٢ هَذَا التَّنْزِيلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ صَالِحَةٌ لَنَا وَاللَّهُ مَا عَابَهَا إِلَّا لِكَيْ تَسْلَمَ مِنَ الْمَلِكِ وَلَا تَعْطَبَ عَلَى يَدَيْهِ وَ

١ - عوائد الأيام : ٤٤٢

٢ - الكهف: ٧٩.

لَقَدْ كَانَتْ صَالِحَةً لَيْسَ لِلْعَيْبِ فِيهَا مَسَاحٌ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فَافْهَمِ الْمَثَلَ بِرَحْمِكَ
اللَّهُ فَإِنَّكَ وَاللَّهُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَأَحَبُّ أَصْحَابِ أَبِي عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيًّا وَمَيِّتًا فَإِنَّكَ
أَفْضَلُ سَفْنٍ ذَلِكَ الْبَحْرُ الْقَمَمَقَامُ الزَّآخِرُ وَإِنَّ مِنْ وَرَائِكَ مَلَكًا ظَلَمًا غَضُوبًا
يَرْقُبُ عُبُورَ كُلِّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ تَرِدُ مِنْ بَحْرِ الْهُدَى لِيَأْخُذَهَا غَضَبًا ثُمَّ يَغْضِبُهَا
وَأَهْلَهَا وَرَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ حَيًّا وَرَحْمَتُهُ وَرِضْوَانُهُ عَلَيْكَ مَيِّتًا!.

فإذا تاهت الأمة واضطربت وتخبطت وتمزقت فبسبب تخلفها عن
تعاليم قيادتها الرشيدة، وإلا فإن التخطيط الإلهي لم يغفل معالم طريق النجاة
وقد تحصل أن على الأمة مرحلتين من التكاليف أمام قيادتها:

الفحص عن القائد

الأولى: الفحص عن القائد الذي تجتمع فيه الصفات والخصائص التي
اشترطها المعصومون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من الاجتهاد، والعدالة، والترفع عن الدنيا والأنانية
والاستئثار، وأن يستشعر حب الناس جميعاً والشفقة عليهم، وأن يكون واعياً
ومحيطاً بقضايا الأمة وبصيراً بما يكتنفها، وقادراً على تشخيص العلل ووضع
الحلول والعلاجات المناسبة لها، وقد أشرنا إلى ذلك في كلمات سابقة أكثر
تفصيلاً، فإذا وجدت الأمة مثل هذا الشخص عليها أن تبقى مراقبة له لئلا
يزلَّ وينحرف والعياذ بالله.

الطاعة والتسليم والنصيحة

الثانية: وهي الطاعة والتسليم والنصيحة وبذل النصرة وعدم التقصير.

وهذا هو ما نقصده بالتقليد الواعي أي عدم الارتباط بالأشخاص وتقديسهم وإنما الذوبان في المبدأ وارتبط بالشخص بمقدار تجسيده لتلك المبادئ مهما كان أصله وانتماؤه، ولا نقصد بالتقليد الواعي ما أسميه بالانتقائية أي الالتزام بما يعجبه من أوامر قيادته ومخالفة ما لا يعجبه، فهذا عين الانحراف والضياع وإذا كان عنده شيء يريد أن يقدمه فإن أعظم هدية هي النصيحة، أما أن يجعل نفسه قيماً على مواقف المرجعية فيحكم على بعضها بالصحة وعلى بعضها الآخر بالبطلان فهذا من خطل التفكير؛ لأن أي فرد لا يملك قدرة المرجع على استنباط الحكم من مصادر الشريعة وهي الكتاب والسنة، وتجتمع لدى المرجع خبرات عديدة ومستشارون متنوعون وعيون ترصد جميع مساحة العمل أما هذا الفرد وذاك فهو محدود من هذه الجهات.

فالشذوذ عن خط المرجعية هو الخطأ الأكبر حتى لو تصورنا أن موقف المرجعية كان غير صائب لعدم ادعاء العصمة، وعلى هذا ربّانا الأئمة المعصومون عليهم السلام، فلا يجوز لأي فرد من الأمة أن يحكم مزاجه وأهواءه ويخضع لإسقاطاته النفسية.

فالمسؤوليات والحقوق والواجبات متبادلة بين القيادة والأمة، ويوجد تلازم بينها ولا تأخذ إلا بمقدار ما تعطي ونرفض أن تركز القيادة على جانب الامتيازات فتحدث عن وجوب الطاعة والانقياد وتترك جانب الواجبات والاستحقاقات والعطاء للأمة مما تقدم ذكره، فإن هذا عين التطفيف في المعايير الذي قال عنه تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِّنُوهُمْ يَخْسَرُونَ﴾، فإن هذه الحالة غير مختصة بميزان البيع والشراء بل تشمل كل التعاملات، فالأب الذي لا يقوم بواجباته تجاه أسرته ويطالبهم باستحقاقات الأبوة هو من المطففين، والمسؤول الذي يتنعم بامتيازات موقعه ولا يقدم الخدمات المطلوبة منه للمجتمع هو من المطففين، والدول التي تتعامل بمكيالين في علاقاتها مع الدول الأخرى هي من المطففين.



سنتا

التعامل مع الحياة بإيجابية



﴿وَمِنْهُمْ سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾

[فاطر : ٣٢]

القرآن الكريم يدعو الى التعامل مع الحياة بإيجابية

معنى أن نقول المؤمن خير:

قال الله تبارك وتعالى مخاطبا نبيه الكريم ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^١، وقال تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^٢ والكوثر تعني الخير الكثير، وقال تعالى على لسان زكريا في دعائه لطلب الولد ﴿وَجَعَلَهُ رَبُّ رَضِيًّا﴾^٣، وقال على لسان عيسى بن مريم ﴿وَجَعَلَنِي مَبَارَكًا أَيَّنَمَا كُنْتُ﴾^٤ أي كثير البركة والعطاء، ونحو ذلك من الآيات التي ضمت مجموعة من صفات الإنسان الصالح ويجمعها الوصف الذي نطلقه على المؤمن بانه (خير) وهي

١ - الأنبياء: ١٠٧.

٢ - الكوثر: ١.

٣ - مريم: ٦.

٤ - مريم: ٣١.

﴿١٢٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

من صيغ المبالغة أي لا ترى منه إلا الخير، لذا وصفته بعض الاحاديث الشريفة بانه «الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ وَ الشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ»^١.

الحث على قضاء الحوائج وإدخال السرور:

ووردت احاديث كثيرة تدعو إلى ان يكون الأنسان مصدر خير وعطاء وعنصراً مثمراً في المجتمع كالا حاديث التي تحث على السعي في قضاء حوائج الناس ومساعدتهم وإدخال السرور^٢ عليهم ورفع الأذى عنهم وفعل المعروف لجميع الناس بغض النظر عن الدين أو القومية أو النسب ونحو ذلك وتذكر لهذه الأعمال الإنسانية الصالحة ثواباً عظيماً يفوق اكثر العبادات أهمية.

العفو والصفح عن الإساءة:

وأكمل الشارع المقدس هذه الصورة الحسنة لسلوك المؤمن فطالبه بالعفو والصفح عن إساءة الآخرين، قال تعالى ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^٣ و امر بنسيان إساءة الآخرين وكأنها لم تقع وان يبقى دائماً

١ - كتاب سليم بن قيس الهلالي ؛ ج ٢ ؛ ص ٨٥١

٢ - اذكر حديثاً واحداً عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «فَوَالَّذِي وَسِعَ سَمْعَهُ الْأَصْوَاتَ مَا مِنْ أَحَدٍ أَوْدَعَ قَلْبًا سُرُورًا إِلَّا وَخَلَقَ اللَّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ السُّرُورِ لُطْفًا فَإِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَائِبَةٌ جَرَى إِلَيْهَا كَالْمَاءِ فِي أَنْحِدَارِهِ حَتَّى يَطْرُدَهَا عَنْهُ كَمَا تَطْرُدُ غَرِيبَةَ الْإِبِلِ» (نهج البلاغة (للصبيحي صالح) ؛ ص ٥١٣).

٣ - النور: ٢٢.

سنة التعامل مع الحياة بإيجابية.....﴿١٢١﴾

يتذكر إحسان الآخرين اليه بل دعا الى مقابلة السيئة بالحسنة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، كما امر بان يكون على عكس ذلك في العلاقة مع نفسه، وذلك بان يتذكر دائماً أساءته للآخرين حتى يكون رادعا عن تكرارها، وان ينسى إحسانه للآخرين حتى لا يحصل عنده شعور بالعجب والمنّ و التفضّل عليهم فيمنعه ذلك من الاستمرار في فعل المعروف، ففي الحديث الشريف ما مضمونه «انسى اثنين: إحسانك إلى الغير وإساءة الغير اليك، واذكر اثنين: أساءتك إلى الغير وإحسان الغير اليك»^٢.

الحمل على الحسن:

وطلب الشارع المقدس أن تختار الأحسن والأفضل للآخرين عندما تكون بين خيارين أو بين موقفين أو سلوكين فأمر بان تحمل فعل أو قول أخيك على سبعين محملاً حسناً، وان كان ظاهره السوء، لكنه مادام يحتمل أن يكون حسناً فلا تقصّر في الأخذ بهذا الاحتمال، حتى وان تجاوزت السبعين احتمالاً، وهو رقم يقال للتعبير عن الكثرة فلا يمنع من الأزيد.

١ - فصلت: ٣٤.

٢ - للوقوف على مضامين هذه الأحاديث أنظر: ميزان الحكمة- الريشهري: ٦٤١/١.

﴿١٢٢﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

وان يكون هذا هو منهج حياتك بان تفتش عن أحسن ما عند الآخرين فتنظر اليه على أساسه، وان تفتش عن أسوء ما في نفسك فتقيّمها على أساسه لتكون بين هذا وذلك أنساناً صالحاً يسعى نحو الكمال ويحب الخير للناس.

روي أنّ أخوة يوسف الصديق عليه السلام لما تعارفوا معه واعترفوا بجريمتهم تملكهم الحياء مما صنعوا به لكنه خفف عليهم واعتبرهم أصحاب فضل عليه لأنهم عرفوه الى أهل مصر انه ابن الأنبياء الكرام وكان ينظر اليه على انه عبد كنعاني أشتري من سوق النخّاسين، فهل يوجد سمو في التعاطي مع الأمور مثل هذا؟

وروي من مواعظ النبي الكريم عيسى عليه السلام انه مرّ هو وأصحابه على جيفة كلب ميت فقال بعضهم ما انتن ريحه وقال الآخر ما اقبح منظره وهكذا، لكن النبي الكريم المتأدب بخلق الله تعالى قال «**مَا أَشَدَّ بَيَاضَ أَسْنَانِهِ**»!

بركة الانسجام مع الكون:

إن الإنسان حينما يسير وفق هذه الرؤية ويتبع هذا المنهج من التفكير يحصل على ثمرات عديدة، منها القرب إلى الله تعالى، وراحة البال، والسعادة^٢

١ - مجموعة ورام ؛ ج ١ ؛ ص ١١٧.

٢ - واذكر حديثاً واحداً في ذلك باختصار وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام «**السُّرُورُ يَبْسُطُ النَّفْسَ وَ يَشِيرُ النَّشَاطَ، الْغَمُّ يَقْبِضُ النَّفْسَ وَ يَطْوِي النَّبِيسَاطَ**» (عيون الحكم و المواعظ (لليثي) ؛ ص ٦٢ ؛ الرقم

: ١٦٠٥ و ١٦٠٦).

سنة التعامل مع الحياة بإيجابية.....﴿١٢٣﴾

وحسن الذكر عند الناس مضافا الى شيء مهم يحسن الالتفات اليه وهو انه ستتجاوب معه كل عناصر الخير في الكون لأنه محكوم بسنن الهية ثابتة فمن اخذ بها نال كل خيراتها وبركاتها، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^١!

وبذلك يكون قوله تعالى ﴿لَسْنَا شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^٢ على القاعدة الطبيعية - كما يقال - وليس بالجعل التشريعي لزيادة النعم مقابل الشكر، وإنما هي حالة تكوينية طبيعية فان الإنسان الشاكر يكون جزءاً منسجماً مع الكون فيحظى ببركات القوانين الإلهية التي تنظم حركة الكون.

وهذا ما يعترف به غير الموحدين أيضا فانهم يقولون إن الإنسان يجب أن يكون ممتناً شاكراً للكون - بحسب تعبيرهم لأنهم لا يعتقدون بوجود الله سبحانه - على نعمه لكي يحصل الإنسان على المزيد من النعم وغيرها مما تستحق أن يسعى اليها الإنسان.

أهمية التفكير الإيجابي في التنمية البشرية:

هذا المنهج والسلوك الذي أسس له الشارع المقدس أصبح اليوم من اهم قضايا علم الاجتماع والتنمية البشرية التي يهتم بها العالم المتحضر فتؤلف

١ - الأعراف: ٩٦.

٢ - إبراهيم: ٧.

﴿١٢٤﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

الكتب وتعدّد الندوات وتقدّم البرامج التلفزيونية التي تتحدث عن (أهمية التفكير الإيجابي) وتوصلوا فيها إلى جملة من النتائج التي بيّنها الشارع المقدس.

ونقل لي أنّ من الكتب الواسعة الانتشار في هذا المجال كتاب (السر) ومما جاء فيه (إنّ للأفكار قوة مغناطيسية ولها تردد وعندها قدرة على الأرسال والاستقبال مثل الموجات الكهرومغناطيسية ويتم إرسال الأفكار هذه إلى الكون فتجذب لها مغناطيسياً كل الأشياء التي تشبهها ثم ترجع ثانياً إلى المصدر الذي هو نفس الشخص، وان الإنسان إذا كان إيجابياً فإنه يجذب كل خير إليه).

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ:

إنّ الشارع المقدس علّم الإنسان أن يكون تفكيره إيجابياً في كل حالاته حتى عندما يشتد عليه البلاء من خلال إعطائه ثقافة إيجابية توجه سلوكه فإنه وعده بالأجر العظيم إذا صبر واحتسب وأن هذا البلاء كفارة لذنوبه التي اجترحها وبذلك يكون فرصة للإنسان حتى يراجع نفسه ويحاسبها ويصلح أخطائه، ووعدته بالفرج وزوال البلاء مع ثبات الأجر، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ

سنة التعامل مع الحياة بإيجابية.....﴿١٢٥﴾

يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ^١ وبذلك يكون الإنسان سعيداً وهو في اشدّ حالات البلاء كالذي مرّ به الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم أجمعين.

أمثلة من التفكير الإيجابي:

خذ مثلاً ما جرى في واقعة كربلاء التي مثلت اشرس جريمة عبر التاريخ لكن أصحاب الإمام الحسين عليه السلام كانوا فرحين سعداء لانهم نظروا إلى صورتها الأخرى المتمثلة فيما أعدّ لهم من الكرامة والمقام المحمود عنده تبارك وتعالى والبركات العظيمة التي ثمرها إلى نهاية الدنيا.

وحينما حاول ابن زياد أن يظهر حقه وسمومه على عقائل النبوة وخاطب العقيلة زينب شامتاً «كَيْفَ رَأَيْتَ صَنَعَ اللَّهُ بِأَخِيكَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ؟ فَقَالَتْ عليها السلام: مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً هَوْلَاءَ قَوْمٌ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ فَبَرَزُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَ سَيَجْمَعُ اللَّهُ بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُمْ فَتَحَاجُّ وَ تَخَاصِمُ فَانظُرْ لِمَنِ الْفَلَجُ يَوْمَئِذٍ ثَكَلْتِكِ أُمَّكَ يَا ابْنَ مَرْجَانَةَ»^٢ فوصفت ما حصل بانه جميل.

١ - الطلاق ٢: ٣.

٢ - بحار الأنوار (ط - بيروت)؛ ج ٤٥؛ ص ١١٥.

﴿١٢٦﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

والإمام الكاظم عليه السلام في قعر السجون المظلمة والتعذيب وقيود الحديد لكنه كان يرى الجانب الآخر من الصورة ويقول في مناجاته «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَسْأَلُكَ أَنْ تَفَرِّغَنِي لِعِبَادَتِكَ اللَّهُمَّ وَقَدْ فَعَلْتَ فَفَلَكَ الْحَمْدُ»^١.

وهكذا النبي الكريم يوسف عليه السلام يقول ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾^٢ فالسجن مع عذابه ومشقته وضيقه يرى عليه السلام فيه الصورة الأخرى وهي نجاته من مكائد النسوة وفخوخ الشيطان لإيقاعه في معصية الله تعالى والأمثلة كثيرة.

نتيجة التفكير السلبي:

أما من يتعامل مع الأمور والأحداث بسلبية فإنه يكون في شقاء وتعاسة ويكون عيشه منكداً ونحو الأسوأ من دون ان يغير في الواقع شيئاً لان الأحداث جارية شاء أم أبى عن أمير المؤمنين عليه عليه السلام قال: «إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدْرُ وَ أَنْتَ مَا جُورٌ وَإِنْ جَزَعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدْرُ وَ أَنْتَ مَا زُورٌ»^٣.

حكي إن مكتشف الكهرباء أجرى ألفي (٢٠٠٠) تجربة على نماذج المصباح الكهربائي قبل أن يصل إلى مراده فسخروا منه وإنك أتعبت نفسك وخسرت

١ - الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد : ج ٢ : ص ٢٤٠.

٢ - يوسف : ٣٣.

(٣) نهج البلاغة (للصبي صالح) : ص ٥٢٧.

الكثير في إجراء هذه التجارب الفاشلة فقال: ليس الأمر كذلك فقد استفدت معلومة وهي أن هذه الألفي طريقة للعمل غير منتجة.

مثال عن التفكير السلبي:

تقول احدي النساء أنها كانت أمّاً لطفلين ثم حصلت مشاكل مع زوجها وانفصلت عنه وكانت تشعر بضيق وحزن وامتعة نفسيا وغازبة على زوجها لأنه تركها وترك مسؤولية إعالة الأطفال على عاتقها حيث كانت مسؤولة عن دفع إيجار المنزل وفواتير الكهرباء والماء وغيرها وكانت الديون تتراكم عليها فبسبب كل تلك الضغوط كانت تشعر بالحقد والكره الشديد تجاه زوجها وبسبب الضغوط النفسية اصبح ذلك يؤثر على عملها فكانت ترتكب أخطاء في العمل وتتأخر في إنجاز ما هو مطلوب منها في العمل لأنها محطمة ولا تستطيع العمل بكفاءة عالية لإنجاز الأعمال المطلوب منها في وظيفتها ولكنها عندما قرأت كتاب السر بدأت تغير طريقة تفكيرها وبدأت تنظر إلى الجوانب الإيجابية الموجودة في حياتها حيث قالت إن الجانب الإيجابي الذي استفدته من زواجي هو الحصول على طفلين جميلين وانها سعيدة بهم وبوجودهم بحياتها ولا تتحمل فكره فقدانهم أو عدم وجودهم بحياتها فعندما بدأت تركز على الأمور الإيجابية والنعم الموجودة عندها في حياتها أصبحت أكثر راحة وأصبحت ممتنة لله وشاكرة لله على النعم الذي انعمها عليها وأصبحت مشاعرها إيجابية وبالتالي تركيزها وكفاءتها في عملها

﴿١٢٨﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

اصبح افضل وإنتاجها في العمل اصبح اكثر وبالتالي بداء راتبها يزداد وبدأت تستطيع تسديد الفواتير...

لكي تفكر بإيجابية:

ولكي يكون الإنسان معطاءً محباً للخير صبوراً عند الشدائد متفائلاً عليه ان يصلح عقائده وتصوراتهِ ونظرتهِ للحياة أولاً لأنها هي التي توجه سلوكه، لذا ينبغي ان يلتفت إلى أمور:

١- إن كل ما حوله هو خلق الله وان الناس عيال الله تعالى، عن النبي ﷺ قال: «الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ»^١ وفي دعاء الإمام السجاد عليه السلام برواية أبي حمزة الثمالي «وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُكَ»^٢ فلا بد أن يكون كريماً معهم رحيماً بهم محباً لهم مهما كانوا.

٢- إن ما يجري هو بقضاء الله وقدره ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^٣ وما دام الله مولانا وهو الذي يتولى أمورنا فلا يختار لنا إلا خيراً ولكننا قد لا نفهم ذلك ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ

١ - قرب الإسناد (ط - الحديثة) ؛ ص ١٢٠.

٢ - مصباح المتعبد و سلاح المتعبد ؛ ج ٢ ؛ ص ٥٩٢.

٣ - التوبة : ٥١.

سنة التعامل مع الحياة بإيجابية.....﴿١٢٩﴾

شَرُّ لَكُمْ^١ فلا بد من التسليم له والرضا به لان الاعتراض والسخط له عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة.

٣- إن الله تعالى يقول «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ بِي إِِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا**»^٢ فمن يكون ظنه حسناً ويبحث عن الأمور الحسنة في الحياة فانه سيتحقق له ذلك بأذن الله تعالى.

٤- إن الدنيا زائلة ولا يستحق أي شيء فيها أن يكون محط الاهتمام إلا ما يقرب إلى الله تعالى وينفع في الآخرة.

٥- إن من ينظر إلى الجوانب الإيجابية الحسنة للأمور وان لم تكن كذلك حقيقة يكون سعيداً مرتاح البال وكفى بذلك ثمرة طيبة فالسعادة ليست في تحقيق كل ما تتمنى وتريد بل في كونك في طريق الوصول إليها وفي أجواء العمل من اجل تحقيقها.

٦- أما من ينظر إلى الأمور بسلبية فانه يكون في تعاسة وشقاء من دون أن يتغير حاله إلى الأفضل بل إلى الأسوأ.

١ - البقرة: ٢١٦.

٢ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٢ ؛ ص ٧٢.



سنة النصر الالهي



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

[محمد : ٧]

سنة النصر الإلهي

من السنن الإلهية:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^١
تبين الآية إحدى القواعد والسنن الإلهية، وهي ثنائية متلازمة عبر القرآن
الكريم المعبر عنها بجملة شرطية، الشرط فيها ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ والجزاء
﴿يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وهي متلازمة تكررت في القرآن الكريم كقوله
تعالى ﴿وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^٢.

معنى نصره الله تعالى:

ولا بد أن نفهم أولاً معنى نصره الله لأن الله تعالى غني عن العالمين ولا
يحتاج الى معونة ونصرة احد بل الكل محتاج اليه، وفي نهج البلاغة قول

١ - محمد: ٧.

٢ - الحج: ٤٠.

امير المؤمنين عليه السلام «فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذَلِّ وَاَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قَلِّ اسْتَنْصِرْكُمْ وَ لَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَ اسْتَقْرِضْكُمْ وَ لَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَ إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»^١ فنصرة الله بنصرة رسوله صلى الله عليه وسلم وأوليائه وحججه الذين يدعون الى طاعته و يقيمون الدين و يعملون لتطبيق منهج الله تبارك و تعالى في الأرض و تتحقق نصره الله بنصرة دينه و تحكيم شريعته و احكامه في واقع الحياة، قال تعالى ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾^٢ فنصرة الله تعالى تعني نصره السائرين الى الله تعالى و الهادين الى الله تعالى و العاملين لإعلاء كلمة الله تعالى، فهي نصره لهؤلاء قال تعالى ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^٣ وإنما نسبها الى الله تعالى لأكثر من نكتة:

- ١- لإعطائها أهمية بنسبتها الى الله تعالى ولو نسبت النصره الى رسوله صلى الله عليه وسلم أو أوليائه فقط لكانت أقل زخماً لذا قرن الله تعالى نصره رسوله صلى الله عليه وسلم بنصرته تبارك و تعالى ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^٤.

١ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد؛ ج ١٠؛ ص ١٢٣.

٢ - الصف: ١٤.

٣ - الحشر: ٨.

٤ - الحشر: ٨.

٢- للتنبيه الى شرط القبول وإعطاء الجزاء بأن تكون النصره وسائر الأعمال خالصة لله تعالى اي ان الجزاء يتحقق حينما تكون نصره اولياء الله تعالى نصره لله، هذا الذي يقال في الاصول ان تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعلية، فقد ينصر الشخص رسول الله ﷺ أو الإمام ويخرج معه لكنه لهدف آخر غير خالص كالرياء أو الشهرة أو تحصيل منفعة دنيوية أو تعصباً لمدينته أو قبيلته ونحو ذلك فهذه النصره لا قيمة لها عند الله تعالى.

في صحاح العامة عن أبي موسى قال «سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقا تل حميةً ويقا تل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قا تل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^١.

موارد من الالتفاتات حول الآية:

ونلفت النظر الى جملة امور قد لا يلتفت اليها الكثيرون ممن يتداولون هذه الآية ويجعلونها عنواناً لبياناتهم وخطاباتهم:

١- إن نصره الله تعالى مفتوحة على كل المجالات وإن كان أرقاها والذي كانت الآيات بصدده هو القتال في سبيل الله لكن نصره الله تعالى تتحقق بما لا يحصى من الطرق فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نصره لله

١- أخرجه الشيخان وابو داوود والترمذي والنسائي.

تعالى وغضب له إذا عصي، وكذا دعوة الناس الى الله تعالى وهدايتهم وإصلاحهم، وتحقق أيضاً بأي مشروع فيه رضا الله تعالى وصلاح العباد، وبأي حوار تردّ به الإشكالات الموجهة الى الدين أو فيها انتقاص من قاداته العظام، وحينما نؤيد مسعى لتطبيق قوانين الله تعالى وأحكامه في حياة الناس كمشروع القانون الجعفري فهذه نصره لله تعالى، وتحقق أيضاً بأي خدمة تقدمها للناس المحتاجين لأنك بذلك تدفع عنهم الاعتراض على قضاء الله وقدره فهو نصره لله تعالى ودفاع عنه كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام لما سئل عن لبسه القميص المرقع البالي وتوزيعه المساعدات بنفسه على بيوت الفقراء والايّام قال: «**كَيْلًا يَتَّبِعُ بِالْفَقِيرِ فَفَرَّهُ**»^١ أي لكيلا يغلبه الفقر ويقهره فيؤدي الى الاعتراض على الله تبارك وتعالى.

وهكذا تتعدد أشكال نصره الله تعالى ويتحقق معها الجزاء وهو أن ينصركم الله ويؤيدكم في سائر شؤونكم ويزيد من توفيقكم ويهيئ لكم الاسباب والمقدمات للتقدم ومزيد من الانتصارات، وكلما ازدادت نصره لله تعالى، زاد الله من نصرته لك وتسديك.

٢- إن الكثيرين يستشهدون بالآية الى قوله تعالى (ينصركم) ويعتقدون ان هذا كافٍ وان هذا هو موضع الحاجة ولا يلتفتون الى ما هو أهم من

النصر وهو الثبات عليه الذي ذكرته فإن النصر قد يتحقق لكنه لا يدوم لعدم توفير إمكانية المحافظة عليه، أو لأنهم بعد أن انتصروا تغيرت نواياهم وانحرفت فلم يعودوا مستحقين للنصر، وتزول عنهم نعمة الانتصار ويكون بلا قيمة، كالجيش الذي يهجم على العدو ويأخذ مواقع له لكنه لا يستطيع الامساك بالأرض فيتراجع عنها ويعود العدو إليها وربما يستغل العدو هذا التراجع ويستفيد من زخم العودة ليتقدم أكثر في عمق هذا الطرف الذي انتصر أولاً، وكمثال من التاريخ نذكر ما حصل للمسلمين في معركة أحد فانتصروا في بداية المعركة لكنهم لما عصوا أوامر رسول الله ﷺ واتبعوا أهوائهم والتفتوا إلى جمع الغنائم لم يدم ذلك النصر وانقلب إلى هزيمة وخسروا شهداء كثيرين، لذا كان التوجيه الرباني بعد أن فتح الله تبارك وتعالى مكة للنبي ﷺ وللمسلمين ونصرهم على قريش بحسب سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾^٢ فعليك أن تسبح الله وتنزهه عن أي وهم وظن بأنك صاحب القدرة في تحقيق النصر وتستغفره من

١ - أنظر: الكامل في التاريخ - ابن الأثير: ١٤٨/٢

٢ - النصر: ١-٣.

كل ما يفقدك هذا النصر ويزيل اسبابه، وهكذا التاريخ حافل بالمنقلبين على الاعقاب.

فقيمة الانتصار في الثبات عليه وإدامته بإدامة الأسباب الموجبة له، ولا شك أن هذا التثبيت هو من مصاديق الجزاء (ينصركم) وأحد مفرداته فيكون من قبيل ذكر الخاص بعد العام كما يقال وانما ذكر تثبيت الاقدام مع انه داخل في عنوان (ينصركم) لأكثر من نكتة:

أ- إلفات النظر اليه والاهتمام به.

ب- ولتمييزه عن ثبات آخر يسبق النصر لا بد أن يحققه العبد الناصر لربه بشجاعة وإصرار ليتحقق الانتصار على العدو كقول طالوت لما بارز جالوت الطاغية ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^١ فتلاحظ ان ثبات الاقدام كان مقدمة للنصر، فيوجد ثبات يسبق النصر وتثبيت يلحقه.

٣- إن كل هذه الألوان من النصر بما فيها القتال المؤدي الى الموت إنما هي على مستوى (الجهاد الأصغر)، والأسمى من ذلك تطبيق هذه المعادلة على (الجهاد الأكبر) أي على صعيد مجاهدة النفس ومنعها من اتباع الاهواء والشهوات وتطبيعها على طاعة الله تبارك

وتعالى والورع والتقوى وتتجرد عما سوى الله تبارك وتعالى حتى تكون احبّ الى الشخص من نفسه ومن كل ما سوى الله تبارك وتعالى، وفي الحديث الشريف «**أَعْدَىٰ عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ**»^١ فهي تهشّ الى المعصية ويزينها الشيطان فمقاومتها نصره لله تبارك وتعالى على ادعائه الشيطان وأوليائه والنفس الأمارة بالسوء، وحينئذ ينصرك الله تعالى ويزيدك قوة وعزيمة ويرقيك في درجات التكامل، من دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام «**وَإِنْ خَذَلَنِي نَصْرُكَ عِنْدَ مَحَارَبَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ فَقَدْ وَكَلَنِي خِذْلَانِكَ إِلَىٰ حَيْثُ النَّصَبِ وَالْحَرَمَانِ**»^٢، فاذا اعانك الله تعالى ونصرك على نفسك ونجحت في الامتحان وحقت تقدماً في الاشهر المباركة او المشاهد المشرفة او بحضورك مجالس الصالحين وفي المساجد وصلوات الجمعة والجماعة وغيرها فثبت عليه وادمه ولا تضيّعه بسبب شهوة او غضب او تزيين من شياطين الانس والجن، فان السقوط في الهاوية حينئذ يكون مريعاً والعياذ بالله تعالى.

ايها الاخوة:

١ - عدة الداعي و نجاح الساعي ؛ ص ٣١٤.

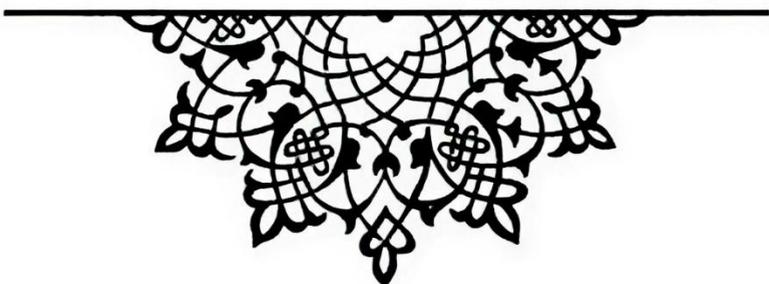
٢ - بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ٨٤ ؛ ص ٣٤٠.

﴿١٤٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

أنتم بفضل الله تبارك وتعالى بإقامتكم لهذه الشعيرة المباركة: السير على الأقدام من حرم أمير المؤمنين عليه السلام الى حرم الإمام الحسين عليه السلام لزيارة الإمام الحسين عليه السلام في النصف من رجب وإحياء وفاة عقيلة الهاشميين السيدة زينب بنت أمير المؤمنين عليها السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله: وبإدامتكم لها منذ بضع سنوات: تنصرون الله تبارك وتعالى بعدة أشكال تتضح من خلال ما ذكرناه سابقاً فأسأل الله تعالى أن ينصركم ويثبت أقدامكم.



سنة دفع البلاء بالتوبة



﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾

[يونس : ٩٨]

سنة دفع البلاء بالتوبة

قال الله تبارك وتعالى ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^١!

﴿لَوْلَا﴾ أداة حث وتحضيض، فالآية الكريمة تحث أهل الدنيا جميعاً بأن يرجعوا الى الله تعالى وأن يعودوا إلى طريق الاستقامة لينفعهم ذلك في كشف البلاء ورفع العذاب النازل عليهم أو دفعه قبل حلوله بهم، لكن هذا الحث مشوب بالتأسف والحسرة لعدم استجابة الأمم لهذه الدعوة المخلصة إلى أن ينزل بهم البلاء وتحل الكارثة ويرونها بأعينهم حيث لا ينفعهم الرجوع، كما أنبأت الآياتان المتقدمتان ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^٢ ومثل هذا الايمان باللسان الذي يحصل عند نزول العذاب لا ينفع في رفعه لأنه لا

١ - يونس: ٩٨.

٢ - يونس: ٩٦-٩٧.

يكون عن صدق وإخلاص نية كالذي حصل لفرعون، قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا
أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ
الْمُسْلِمِينَ﴾^١ فهذا ليس إيماناً صادقاً بالله تعالى لأنه ليس إيماناً اختيارياً
منتجاً رغم الإنذارات والعلامات المتكررة وإنما تظاهروا به خوفاً من العذاب
والبأس بعد حلوله.

وهذه من السنن الإلهية الثابتة التي لا تختص بقوم يونس قال تبارك وتعالى
﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ
يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنْتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ
هَٰنَاكَ الْكَافِرُونَ﴾^٢ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا
إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾^٣ وتجري هذه
السنة في كل عاصٍ مسوفٍ للتوبة يخدع نفسه بالأمل من دون أن يصدقه
بالعمل، ولا يحذر فوات فرصة التوبة بحلول الأجل .

وترغبهم الآية الكريمة بأن يكونوا كقوم يونس وتقول لهم هلاً كنتم كقوم
يونس الذين استثنتهم فأنهم آمنوا قبل حسم الأمر بنزول العذاب وبمجرد أن
رأوا علاماته ونذره وتيقنهم من صدق ما وعدهم به نبههم يونس ﷺ فنفعهم

١ - يونس: ٩٠.

٢ - غافر: ٨٤-٨٥.

٣ - الأنعام: ١٥٨.

إيمانهم وكشف عنهم العذاب، وقد وصفتهم الآية بصدق الايمان ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾.

روى القمي في تفسيره بسنده عن الامام الصادق عليه السلام قال: «مَا رَدَّ اللَّهُ الْعَذَابَ إِلَّا عَنْ قَوْمٍ يُونُسَ، وَكَانَ يُونُسُ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَيَأْبُوا ذَلِكَ، فَهُمْ أَنْ يَدْعُو عَلَيْهِمْ وَكَانَ فِيهِمْ رَجُلَانِ عَابِدٌ وَعَالِمٌ، وَكَانَ اسْمُ أَحَدِهِمَا مَلِيخًا وَالْآخَرُ اسْمُهُ رُوْبَيْلٌ، فَكَانَ الْعَابِدُ يُشِيرُ عَلَى يُونُسَ بِالِدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ وَكَانَ الْعَالِمُ يَنْهَاهُ وَيَقُولُ لَا تَدْعُ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ يَسْتَجِيبُ لَكَ وَلَا يَحِبُّ هَلَاكَ عِبَادِهِ فَقَبِلَ قَوْلَ الْعَابِدِ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنَ الْعَالِمِ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فِي سَنَةِ كَذَا وَكَذَا فِي شَهْرِ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا فَلَمَّا قَرِبَ الْوَقْتُ خَرَجَ يُونُسُ مِنْ بَيْنِهِمْ مَعَ الْعَابِدِ وَبَقِيَ الْعَالِمُ فِيهَا فَلَمَّا كَانَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَزَلَ الْعَذَابُ فَقَالَ الْعَالِمُ لَهُمْ يَا قَوْمَ افْزِعُوا إِلَى اللَّهِ فَلَعَلَّهُ يَرْحَمَكُمْ وَيُرْدِي الْعَذَابَ عَنْكُمْ، فَقَالُوا كَيْفَ نَصْنَعُ قَالَ اجْتَمِعُوا وَاخْرُجُوا إِلَى الْمَفَازَةِ وَفَرِّقُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَالْأَوْلَادِ وَبَيْنَ الْإِبِلِ وَأَوْلَادِهَا وَبَيْنَ الْبَقَرِ وَأَوْلَادِهَا وَبَيْنَ الْغَنَمِ وَأَوْلَادِهَا ثُمَّ ابْكُوا وَادْعُوا فَذَهَبُوا وَفَعَلُوا ذَلِكَ وَضَجُّوا وَبَكَوْا فَرَحِمَهُمُ اللَّهُ وَصَرَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ...»^١ والموقف يبين الدور العظيم للعالم الواعي الذي يقود أمته ببصيرة نحو الأمان.

ومما ورد في هذه الرواية مما يبين سعة رحمة الله تعالى وشفقته على عباده حتى الكفار منهم، أنه لما ألقى الحوت النبي يونس عليه السلام على الشاطئ مريضاً ضعيف البدن: وأنبت الله عليه شجرة من يقطين ليتغذى منها^١ ويستظل بها «فَلَمَّا أَنْ قَوِيَ وَاشْتَدَّ بَعَثَ اللَّهُ دُودَةً فَأَكَلَتْ أَسْفَلَ الْقَرَعِ فَذَبَلَتْ الْقَرَعَةَ ثُمَّ يَبَسَتْ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى يُونُسَ فَظَلَّ حَزِينًا فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ مَا لَكَ حَزِينًا يَا يُونُسَ قَالَ: يَا رَبُّ هَذِهِ الشَّجَرَةُ الَّتِي كَانَتْ تَنْفَعُنِي سَلَطْتُ عَلَيْهَا دُودَةً فَيَبَسَتْ، قَالَ: يَا يُونُسَ أَحَزَنْتَ لَشَجَرَةٍ لَمْ تَزْرَعْهَا وَلَمْ تَسْقِهَا وَلَمْ تَعْيِ بِهَا أَنْ يَبَسَتْ حِينَ اسْتَعْنَيْتَ عَنْهَا وَلَمْ تَحْزَنْ لِأَهْلِ نَيْنَوَى أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ؟ أَرَدْتَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ؟ إِنَّ أَهْلَ نَيْنَوَى قَدْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا فَارْجِعْ إِلَيْهِمْ»^٢.

فالآية الكريمة تقدم علاجاً شافياً لكثير من مشاكلنا ومعاناتنا التي تؤلمنا وندعو الله تعالى أن يخلصنا منها ولا نعلم أن طرف الحل بأيدينا. وإن من البلاء الذي يقع على الانسان يستطيع دفعه بنفسه، وذلك لأن جملة من هذه الصعوبات التي يمرُّ بها الإنسان هي من صنعه وكسب يديه، فلو أراد التخلص منها فليتجنب الأسباب التي أدت إليها وهي الأفعال السيئة، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ

١ - أثبتت الدراسات والتجارب العلمية فوائد القرع في تقوية جهاز المناعة وصحة القلب والشرابين

وتزويد الجسم بالفيتامينات والمعادن الأساسية.

٢ - تفسير القمي ؛ ج ١ ؛ ص ٣١٩.

سنة دفع البلاء بالتوبة.....﴿١٤٧﴾

الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ^١ والبلاء هنا سببية أي بسبب ما كسبوا، وإن ما حصل لهم هو نتيجة لبعض ما جنت أيديهم، وإلا فإن استحقاقهم أكثر لكن الله تعالى يعفو بكرمه وحلمه عن كثير، قال تعالى ﴿أَوْ يُوَبِّقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ^٢ أي يهلكهن - وهي السفن في البحر - بأهلهن بإرسال الرياح العاتية عليها بما كسبوا من الذنوب، ولكن الله تعالى يعفو عن الكثير وقال تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ^٣.

والخلاصة أن كثيراً من البلاء يستطيع الإنسان دفعه قبل حصوله، وليس فقط رفعه بعد حصوله من خلال اجتناب مسبباته، ولكن الإنسان لا يلتفت إلى هذه الحقيقة، أو لا يلتفت إلى ما تكسبه يده من أعمال، وإذا التفت فإن الكثيرين يستصغرون ما يصدر منهم من أقوال وأفعال ولا يقدرّون عواقبها، فيتساهلون فيما يصدر منهم بينما حذّر المعصومون عليهم السلام من الاستهانة بالذنوب بكل مراتبها «لَا تَنْظُرْ إِلَى صِغَرِ الْخَطِيئَةِ وَ لَكِنْ انْظُرْ إِلَى مَنْ عَصَيْتَ»^٤، ولو على مستوى كلمة غير مسؤولة قد تقال هنا وهناك تسبب سفك الدماء وهتك الأعراض وإهلاك الحرث والنسل، ولكي تقرب فكرة أن خطأ بسيطاً قد يؤدي إلى عواقب وخيمة، بما يحصل أحياناً من أن غفلة

١ - الروم: ٤١.

٢ - الشورى: ٣٤.

٣ - الشورى: ٣٠.

٤ - الأمالي (للطوسي) : ص ٥٢٨.

صغيرة من سائق السيارة أو التفاته تؤدي إلى حادث مفرح. كما يتساهل السياسيون والمتنفذون في التجاوز على المال العام، الذي هو ملك عموم الناس الذين هم أيتام آل محمد ﷺ المقطوعون عن إمامهم فمن أكل أموالهم كان مشمولاً بالآية الشريفة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾^١، ولذلك تجد في الكثير من الأدعية أن الأئمة المعصومين ﷺ يعلموننا الاستغفار مما نعلم ومما لا نعلم من الذنوب، وما ظهر منها وما بطن.

ولكي نقرأ هذه السنّة الإلهية بشكل دقيق لابد من ملاحظة ما يلي:

١- إن بعض البلاء يجريه الله تعالى على عباده الذين اصطفاهم ليرفع درجاتهم ولينالوا المقام المحمود عند الله تعالى قال تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^٢ وفي أخبار مقتل الإمام الحسين ﷺ إن جده رسول الله ﷺ قال له: «وَأَنَّ لَكَ فِي الْجَنَّةِ دَرَجَاتٍ لَا تَنَالُهَا إِلَّا بِالشَّهَادَةِ»^٣ فمثل هذا البلاء ليس سببه ما ذكرنا من أفعال سيئة والعياذ بالله تعالى.

١ - النساء: ١٠.

٢ - البقرة: ١٢٤.

٣ - الأمالي (للصدوق)؛ ص ١٥٢.

سنة دفع البلاء بالتوبة.....﴿١٤٩﴾

٢- إن الله تبارك وتعالى حينما يترك بعض الناس يمرّون ببلاء معين ولا يتدخل لرفعه وإن ألحَّ صاحبه بالدعاء والطلب فليس ذلك انتقاماً منهم سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً وإنما يريد لهم الخير وما يصلح حالهم فقد يكون الفقر أصلح لحال شخص من الغنى لأن الغنى يبطره ويبعده عن الله تعالى ويوقعه في المعاصي، ويحرم آخر من الذرية لأنه لو رزق منها لكانت شريرة ووبالاً عليه بسبب الظروف المحيطة بهم وهكذا.

٣- بعض الذنوب اجتماعية عامة لا تقتصر في آثارها على مرتكبيها فقط بل تشمل كل الناس حتى الصالحين قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^١ ومثل هذه الابتلاءات يدفع ضريرتها ناسٌ لم يكونوا السبب فيها، وعلى رأسها ما يحصل من آثار سلبية بسبب ترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذكرتها الأحاديث الشريفة كتسلط الأشرار فأن صلحاء الأمة قبل فساقها يشملهم هذا البلاء.

ومن أمثلة البلاءات العامة التي لا تقتصر آثارها على فاعليها من حياتنا المعاصرة سوء اختيار الناخبين عند الادلاء بأصواتهم في صناديق الاقتراع فإن النتيجة تحكّم الفاسدين والظلمة والمنحرفين الذين لا يرقبون في الأمة إلا ولا ذمة فتحصل كوارث اقتصادية واجتماعية واخلاقية وفكرية وبيئية بسبب حماقات وسياسات ظالمة لبعض المتصدين لكن شرها عمّ الجميع

﴿١٥٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

ولم يقتصر على الناس الذين يستحقون ذلك لأنهم هم من انتخب أولئك الحمقى الأنانيين وأجلسوهم في مواقع المسؤولية.



سنت

ارتباط فساد الحياة وصلاتها بأفعال الناس



﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾

[الروم : ٤١]

ارتباط فساد الحياة وصلاحها بأفعال الناس

قال الله تبارك وتعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^١!

﴿ظَهَرَ﴾ بمعنى بان واتضح أو كثر وشاع - كما في المفردات - بعد أن لم يكن موجوداً، أو كان خفياً مستوراً غير باد للعيان كالأشياء الموجودة في باطن الأرض ثم تخرج إلى ظهرها أي سطحها.

ويمكن أن يكون بمعنى تغلب وتسلط وتمكن كما في قوله تعالى ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وِلَا ذِمَّةً﴾^٢ واشتق منه لفظ المظاهرة التي تعني المعاونة كقوله تعالى ﴿وِظَاهَرُوا عَلَيَّ إِخْرَاجَكُمْ﴾^٣.

١ - الروم: ٤١.

٢ - التوبة: ٨.

٣ - الممتحنة: ٩.

﴿الْفَسَادُ﴾ خروج الشيء عن حدِّ الاعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضادُّه الصلاح، واستعملا كمعنيين متقابلين في القرآن الكريم، ويعبرُ الفساد عن حالة من الاختلال في نظام الشيء وتركيبه، والخروج عن خطِّ سيره نحو الهدف المقصود الموجب للسعادة والحياة الطيبة مما يسبب آثاراً سيئة ويحرم الناس من المنافع المتوقعة.

والاختلال قد يقع في النظام الكوني الخارجي كما في قوله تعالى ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾^١ كما يمكن يقع في الأفعال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^٢، ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَاكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾^٣.

﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كناية عن شمول الفساد جميع انحاء الأرض كما نقول ملأ الخافقين، أو انه مراد حقيقة بأن الفساد ملأ البر والبحر فعلاً على كلا المستويين: الواقع الكوني وأفعال الإنسان، فمن الأول تلوث البيئة والاحتباس الحراري والحرائق والاعاصارات وانتشار الأوبئة الفتاكة والأمراض الخبيثة والأزمات الاقتصادية والتصحُّر ونقص المياه والمجاعة والزلازل والفيضانات وانبعث الغازات التي تدمر طبقة الأوزون وغيرها،

١ - المؤمنون: ٧١.

٢ - البقرة: ١١.

٣ - الفجر: ١١ - ١٢.

سنة ارتباط فساد الحياة وصلاحها بأفعال الناس.....﴿١٥٥﴾

ومن الثاني أي فساد الأفعال: الشرك والالحاد والقتل والزنا والسرقة والربا وشرب الخمر والخيانة والظلم والعدوان والتعصب والحقد والبغضاء والقطيعة والحروب العبيثة واسلحة الدمار الشامل وزواج المثليين وغيرها مما تشهد الأرض من فظائع وجرائم كبرى.

وما يشهده البحر كالذي يحصل على شواطئها من فسق وفجور، وان سفناً كانت ترسو على سواحل الخليج تحمل العاهرات والخمور ويقصدها السكان المسلمون!! لممارسة الرذيلة، ومن فساد البحر ما يحصل في باطنها من تفجيرات نووية وقتل للكائنات الحية فيها، واساطيل تجوب البحار مسلحة بأحدث التكنولوجيا العسكرية لإرعاب الشعوب ومحاصرتها واخضاعها لسلطة المستكبرين، ومن أمثلة فساد البحر أن تمرّد الإنسان على قوانين حفظ البيئة قد سبّب قلة الأمطار وهو يضر حياة الكائنات الحية في البحار كما يضرها على اليابسة، روى القمي في تفسيره عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «حياة دواب البحر بالمطر فإذا كَفَّ الْمَطْرَ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ ذَلِكَ إِذَا كَثُرَتِ الذُّنُوبُ وَ الْمَعَاصِي»^١. ونقل بعض الاعلام المعاصرين عمّن يقطنون ساحل البحر قولهم «إن فائدة الغيث للبحر أكثر من فائدته للصحراء»^٢.

١ - تفسير القمي ؛ ج ٢ ؛ ص ١٦٠.

٢ - الأمثل: ١٨٠/١٠

﴿١٥٦﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

ولابد أن نفهم من الفساد مساحاته المتعددة العقائدية والسياسية والاقتصادية والأمنية والأخلاقية والفكرية والاجتماعية.

وأعظم فساد هو انحراف العقيدة عن خط التوحيد إلى الشرك والكفر والإلحاد لأنه سبب كل انحراف وفساد ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^١.

وقد طبّق الإمام الباقر عليه السلام الآية الكريمة في صحيحة محمد بن مسلم^٢ على حادثة السقيفة حيث أقصي أمير المؤمنين عليه السلام من مقام خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وولاية أمر الأمة.

وقد ازدادت سرعة انحطاط الناس وتسافلهم في السنين الأخيرة بشكل لم يخطر على بال أحد، حتى سنّوا القوانين لترويج المثلية والتحول الجنسي حتى للأطفال من دون اذن والديهم وحمايتهم باسم الحرية واطهروهم وكأنهم ضحايا للعنف، ويعاقب من يتقدمهم، ولا أدري لماذا الحرية مكفولة لمن يروج للفساد ولا تكفل لمن يعبر عن رأيه برفض الفساد؟! ويقول شخص مقيم في السويد بأنني لا أستطيع أن أمنع ولدي أو بنتي من مصادقة المثليين لأنه إذا نقل ذلك عني ببراءة الأطفال فان الأب سيسجن سنة إلى ست سنوات.

١ - لقمان: ١٣.

١ - الكافي: ٥٨/٨ ح ١٩، تفسير القمي: ١٦٠/٢.

سنة ارتباط فساد الحياة وصلاتها بأفعال الناس.....﴿١٥٧﴾

فهذا الجزء من الآية يخبر عن اتساع هذه الحالة من الفساد وانتشارها في عموم الكرة الأرضية براً وبحراً، وامتلاكها زمام الأمور حتى عاد المؤمنون قلة مستضعفين، ورجع الإسلام غريباً كما بدأ غريباً حتى عند المتسمين به، فلو أردت أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدعو إلى تطبيق أحكام الشريعة فإن فعلك يكون مستهجنًا، إلى أن يملأ الله تعالى الأرض قسطاً وعدلاً على يد المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ الموعود بعد ما ملئت ظلماً وجوراً.

والملفت ان القرآن الكريم استعمل نفس لفظ ﴿ظَهَرَ﴾ للتعبير عن حالة انتصار الإيمان وغلبته وهيمته على جميع الأنظمة والايديولوجيات الأخرى في النهاية، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾^٢.

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ ثم ترجع الآية في هذا الجزء منها سبب وقوع هذا الفساد والاختلال إلى فعل الناس أنفسهم فهم الذين يجرون إلى أنفسهم هذه الكوارث بحماقتهم وجهلهم وغرورهم واتباعهم للشهوات وانصياعهم لشياطين الجن والإنس، وليس سبب هذه الكوارث غضب الطبيعة ونحو ذلك مما يجري على ألسنتهم.

١ - مضمون حديث شريف عن أخبار آخر الزمان ورد فيه قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَ سَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ». (كمال الدين و تمام النعمة ؛ ج ١ ؛ ص ٦٦).

٢ - التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩.

وإذا عَرِفَ السبب فلا بد أن يتركز العلاج على ازالته ولا يكفي معالجة نتائجه وآثاره، كالطبيب الحاذق الذي لا يكتفي بعلاج مظاهر المرض كالصداع وعدم الشهية وإنما يجري الفحوصات والتحليلات لتشخيص المرض ومعالجته، لكن الغرب الأحمق الغارق في الشهوات لا يسير وفق منطق العقل، فقد ابتلوا مؤخراً بمرض خطير سمّوه جدري القردة واعترفوا بأن سببه زواج المثليين، وأن انتشاره الواسع هذه الأيام حصل بعد مهرجان موسع للمثليين أقيم في بريطانيا قبل شهرين تقريباً وحضره ثمانون ألفاً، وبدلاً من نبذ المثلية والاعتراف بخطورتها دعوا الناس إلى التلقيح ضد جدري القردة!!!

وهكذا يتسبب هؤلاء الحمقى في تعريض البشرية لكوارث غير مسبوقه لأنهم أحدثوا فساداً غير مسبوق، وهو معنى ورد في حديث عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «كَلَّمَا أَحَدَثَ الْعِبَادُ مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْمَلُونَ أَحَدَثَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ»^١.

وهذا الجزء من الآية ينبّه إلى حقيقة مهمة وهي ان ما يتعرض له الانسان من بلاءات هو بسبب الإنسان نفسه كفرد أو كجزء من المجتمع يصيبه ما يصيبهم، وهي حقيقة كررها القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا

سنة ارتباط فساد الحياة وصلاحها بأفعال الناس.....﴿١٥٩﴾

وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا^١، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ^٢﴾، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ^٣﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^٤﴾.

وأشارت إليها أحاديث كثيرة كقول النبي ﷺ «مِمَّا اخْتَلَجَ عِرْقٌ وَلَا صَدْعٌ مُؤْمِنٌ إِلَّا بِذَنْبِهِ وَمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ^٥» وقول الإمام الصادق عليه السلام «مَنْ يَمُوتُ بِالذُّنُوبِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَمُوتُ بِالْأَجَالِ...»^٦.

وفي ذلك تنبيه وتحذير ودعوة صادقة لترك المعاصي حتى يجنبوا أنفسهم الويلات، ولكي لا يقعوا فيما وقعت فيه الأمم السابقة، وقد أوضحت هذه الملازمة بين صلاح الإنسان وصلاح الكون حوله وفسادهما في كلمات عديدة.

١ - النساء: ٧٩.

٢ - الشورى: ٣٠.

٣ - النحل: ١١٢.

٤ - الأنفال: ٥٣.

٥ - الأمالي (للمفيد)؛ ص ٣٥.

٦ - الأمالي (للطوسي)؛ ص ٣٠٥.

تصحيح فكرة إرجاع البلاء الى الله تعالى:

وهذا يصحح فكرة سائدة لدى عامة الناس تنسب هذه البلاءات إلى الله تعالى فإذا وقع له حادث سير قال هذا ابتلاء من الله وإذا مرض بسبب عدم مراعاته الوصايا الصحية اعتبره ابتلاء من الله تعالى وهكذا وهي فكرة خطيرة لأنها تؤدي إلى الاعتراض على الله تبارك وتعالى أو سوء الظن به سبحانه أو الشك في وجوده أو النفور من الإيمان ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾^١ ومن أهم ما يتذرع به الملحدون هو نسبة الشرور إلى الخالق، وقد تبين الآن أنها من فعل الإنسان مباشرة أو غير مباشرة، حيث تسبب بعض الذنوب الضرر لكل الناس بل المخلوقات عموماً كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^٢، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^٣.

نعم إنما ينسب الفعل إلى قضاء الله في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة باعتبار أنه تبارك وتعالى وضع هذه القوانين الكونية المؤثرة في حياة الإنسان، لكنه تعالى وضعها لمصلحة العباد وهم الذين يسيئون استخدامها، كقانون

١ - الصافات: ١٥٩.

٢ - النحل: ٦١.

٣ - الأنفال: ٢٥.

سنة ارتباط فساد الحياة وصلاحها بأفعال الناس.....﴿١٦١﴾

الجاذبية فإنه ضروري لاستقرار الحياة ولولاها لما أمكن وضع حجر على حجر ولا سارت قدم على الأرض كالذي تراه عند رواد الفضاء، ولكن الإنسان إذا رمى نفسه من شاهق وتهشمت عظامه ومات بفعل الجاذبية فإن الذنب ليس ذنب القانون وإنما سوء فعل الإنسان، فعلينا تجنب كل ما ينفر الناس عن الخالق العظيم ومنها هذا الاعتقاد بأن ما يصيب الإنسان من مصائب هو من فعل الله سبحانه وتعالى عما يصفون.

ويظهر من الآية الكريمة ان الناس ما داموا يمارسون المعاصي سرّاً ولا يجهرن بها فان البلاء يكون محدوداً وقد يقتصر عليهم، لكنهم اذا أظهروا الفساد وجأهروا بالمعصية فإن البلاء سيكون عظيماً وعماماً، وهذا المعنى ورد في الروايات الشريفة ففي الحديث الشريف عن النبي ﷺ قال: «لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةَ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوهَا إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعُونَ - وهو وصف عام للجوائح والابوئة العامة مثل فايروس كورونا - وَ الْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا»^١ وعنه ﷺ قال: «إِنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا عَمِلَ بِهَا الْعَبْدُ سِرًّا لَمْ تَضُرَّ إِلَّا عَامِلَهَا، وَإِذَا عَمِلَ بِهَا عَلَانِيَةً وَلَمْ يَغَيِّرْ عَلَيْهِ أُضْرَتْ بِالْعَامَّةِ»^٢.

﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ هذا الظهور للفساد في البر والبحر لا يتدخل الله سبحانه لمنعه كلياً ولا يعطل السنن والقوانين الجارية في الكون لأن الله

١ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٢ ؛ ص ٣٧٣.

٢ - قرب الإسناد (ط - الحديثية) ؛ ص ٥٥.

﴿١٦٢﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

تعالى جعل الإنسان حراً مختاراً لما يفعل حتى يتحمل مسؤولية أفعاله ويستحق على أساسها الثواب أو العقاب، فيدعهم يذوقون بعض ما عملوا وليس كل الذي عملوا لأن الدنيا ليست دار جزاء وإنما الجزاء في الآخرة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^١ ولأن الله تعالى يعفو عن كثير كما في آية الشورى المتقدمة، ولولا هذا العفو وتسخير الملائكة لحماية البشر من شرورهم ﴿لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^٢ لكان سكان الأرض في كارثة حقيقية ولانعدمت الحياة على الأرض من أفعال الحمقى الذين يقودون العالم وما يملكونه من أسلحة دمار شامل بحسب الإحصاءات المرعبة التي تنشرها المجالات والكتب المتخصصة.

وتكون الإذاقة لنفس عملهم عندما يظهر لهم بصورته الحقيقية السيئة حيث يتحول إلى ألم ما توهموه لذة، وإلى شر ما ظنوه خيراً، أو ليذيقهم وبال العواقب الوخيمة لبعض أفعالهم ليس انتقاماً منهم لأن الله تعالى غني عن العالمين لا تضره معصية العباد ولا تزيده طاعتهم شيئاً، وهو سبحانه يحب عباده ويريد لهم الخير والرحمة ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾^٣ وفي الحديث

١ - الزلزلة: ٧ - ٨

٢ - الرعد: ١١

٣ - الأنعام: ١٢

سنة ارتباط فساد الحياة وصلاحها بأفعال الناس.....﴿١٦٣﴾

القدسي «الْخَلْقُ عِيَالِي فَأَحِبَّهُمْ إِلَيَّ أَلْطَفَهُمْ بِهِمْ وَ أَسْأَهُمْ فِي حَوَائِجِهِمْ»^١
فهل رأيت ربّ عائلة عاقل يريد الشر بعائلته؟ وإنما يذيقهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فالغرض من إذقتهم بعض ما عملوا هو تربيتهم وإصلاحهم من خلال إلفات نظرهم وتنبههم من غفلتهم التي لو استمروا عليها فانها تورثهم الحسرة والندامة، قال تعالى ﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^٢.

ونستنبط من الآية الكريمة عدّة مسؤوليات:

منها: أنّ على المؤمنين الدعاة إلى الله تبارك وتعالى توعية الناس جميعاً إلى أن ما يحلّ بهم من كوارث ونكبات وآلام وشور هو نتيجة طبيعية لأفعالهم فاذا أرادوا التخلص منها فليصلحوا أنفسهم وليغيروا نظمهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المخالفة لسنن الله تعالى وقوانينه.

ومنها: أنّ على المؤمنين أيضاً أن يجهدوا أنفسهم في جلب السعادة والخير للناس وتحقيق العدالة الاجتماعية وتوفير الحياة الكريمة لهم في أي موقع كانوا وبالطريقة التي يستطيعونها حتى يصدّق الناس بأن الالتزام بالدين يحقق لهم ذلك، روى في الكافي بسنده عن الإمام الكاظم عليه السلام في تفسير

١ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٢ ؛ ص ١٩٩.

٢ - السجدة: ٢١.

قوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^١ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَيْسَ يَحْيِيهَا بِالْقَطْرِ وَ لَكِنْ يَبْعَثُ اللَّهُ رَجَالًا فَيُحْيُونَ الْعَدْلَ فَتُحْيَا الْأَرْضُ لِأَحْيَاءِ الْعَدْلِ وَ لِإِقَامَةِ الْحَدِّ لِلَّهِ أَنْفَعُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْقَطْرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»^٢.

١ - الروم: ١٩

٢ - الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج ٧؛ ص ١٧٤.



سنتا
الاستغفار وتواتر النعم



﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾

[نوح : ١٠-١٢]

الارتباط الوثيق بين الاستغفار وتواتر النعم

قال الله تبارك وتعالى وهو يحكي الرسالة التي كان يؤديها النبي العظيم نوح عليه السلام إلى قومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾!

تبيّن الآية الكريمة احدى السنن الإلهية الجارية في البشر وهي الارتباط الوثيق والفاعل بين صلاح البشر وصلاح الأوضاع الكونية العامة المؤثرة في حياة الإنسان، أي أنهم كلما تابوا ورجعوا إلى ربهم وأقاموا الدين في حياتهم، واكلعوا عن ذنوبهم ومعاصيهم وأصلحوا نفوسهم وغيروا واقعهم الفاسد، فإن الله تبارك وتعالى يغدق عليهم بالخيرات وينعم عليهم بحياة طيبة هنيئة، ويزيل عنهم النكد والضيق والمنغصات، فالإيمان والعمل الصالح يجلبان للفرد والمجتمع الحياة الهنيئة والعيش الرغيد، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ

صَالِحًا مِنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴿١﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿٢﴾.

وأشار الى هذه الحقيقة أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة الاستسقاء بقوله: «وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ اسْتِغْفَارَ سَبَبًا لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةً الْخَلْقِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ» ثم قرأ الآية المباركة وقال عليه السلام: «فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ»^٣.

ويعدهم الله تعالى ويتعهد لهم بالاستجابة اذا طلبوا المغفرة فإنه تعالى موصوف بالمغفرة ومن شأنه ذلك ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ فان (كان) هنا شأنية والمغفرة صفة ثابتة له، روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «أَكْثَرُوا مِنَ اسْتِغْفَارِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَعْلَمْكُمْ اسْتِغْفَارَ إِلَّا وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ»^٤، وتتسع مغفرته لكل الذنوب ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^٥ ولكن اذا طلبها العبد من ربه فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْفِرُ لِلْمُذْنِبِينَ إِلَّا مَنْ

١ - النحل: ٩٧.

٢ - الجن: ١٦.

٣ - نهج البلاغة (للصبي صالح) : ص ١٩٩.

٤ - مجموعة ورام ؛ ج ١ ؛ ص ٥.

٥ - الزمر: ٥٣.

سنة الاستغفار وتواتر النعم.....﴿١٦٩﴾

لَا يَرِيدُ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ لَا يُغْفَرَ لَهُ؟ قَالَ: مَنْ لَا يَسْتَغْفِرُ^١.

وتذكر هذه الآيات والتي سبقتها نماذج من هذه النعم التي يجلبها الاستغفار فمنها إطالة الأعمار وتأخير الآجال، حيث تقدم عليها قوله تعالى ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخِرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^٢.

ثم ذكرت بعض النعم التي يفهمها المخاطبون وتناسب حياتهم كونهم أهل زراعة وأنعام فقال تعالى ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ ويراد بالسماة المطر^٣، أو يراد بها السماء المعروفة وأنها لكثرة ما فيها من مطر كأنها تسقط عليها فيطلق الله تعالى ما فيها غزيراً يدرّ بمائه المبارك على الأرض والإنسان بما يحمل معه من خيرات، والدور، والدر: تتابع السيلان.

﴿وَيَمْدِدْكُمْ﴾ أي يواصل إمدادكم بما يقويكم ويمكنكم من سدّ احتياجاتكم الحياتية الهائلة، وأوضح مصاديق الإمداد: الأموال والبنون فان الثروة المالية

١ - مستدرك الوسائل و مستنبط المسائل ؛ ج١٢ ؛ ص ١٢٢.

٢ - نوح: ٣-٤.

٣ روي في الموطأ والصحاحين عن زيد بن خالد الجهني أنه قال «صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل» وقال معاوية بن مالك بن جعفر:

إذا نزل السماء بارض قوم
رعيناه وإن كانوا غضابا

﴿١٧٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

والبشرية قوام إعمار الحياة بخلاف من يدعون إلى تحديد النسل وتقليل الإنجاب وهي دعوة تتفق مع مشروع الماسونية لإهلاك البشرية ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ وهي بساتين النخيل والأعناب التي تحتاج الى سقي ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ تجتمع فيها هذه المياه النازلة لتحمي الناس ومزروعاتهم وممتلكاتهم من الغرق، ولتنقل الماء الى الأراضي الأخرى التي لم يسقط عليها المطر ولتستصلح به الأراضي للزراعة التي هي قوام حياة البشر والحيوانات، وتكون بيئة لحياة الحيوانات المفيدة للبشر كالأسماك، وتكون وسطاً ناقلاً لأشخاصهم وبضائعهم فالنقل النهري والبحري يشكل عصب الحياة، وعلى الأنهار تقام المدن والحضارات وبها تعمر الحياة، مضافاً الى كونها محلاً للنزهة والترفيه، وسبباً للحفاظ على التوازن البيئي وتلطيف الجو، وغيرها من الفوائد.

وقوله تعالى ﴿يَجْعَلُ﴾ لا يعني على نحو المعجزة بحيث تنزل عليهم جنات كاملة من السماء وإنما يهيء لهم أسباب النجاح وظروفه وعلى الإنسان استثمارها لتحقيق النتائج المطلوبة بإذن الله تعالى وفضله وكرمه.

وفي الآية إشارة إلى أنهم أصيبوا بقحط وجفاف وانقطاع الأرزاق وفقدان الولد بسبب طغيانهم وكفرهم وهو مروى في مجمع البيان^١ فعلمهم النبي نوح

١- مجمع البيان: ١٠ / ٤٥٧، بحار الأنوار: ٢٧٨/٩٣ ح ٧

سنة الاستغفار وتواتر النعم.....﴿١٧١﴾

عليه السلام طريق التخلص من تلك المحن والكوارث وإصلاح أوضاعهم المعيشية.

ولابد من الالتفات الى الآثار المعنوية لهذه النعم فانزال الماء كناية عن تطهير القلوب والنفوس من الادران والكدورات والأوهام الباطلة وإعمارها بالإيمان والعمل الصالح «تَعَطَّرُوا بِالْأَسْتِغْفَارِ لَّا تَفْضَحَكُمْ رَوَائِحُ الذُّنُوبِ»^١.

وقد تكرر بيان هذه السنة الإلهية في القرآن الكريم، وان تقوى الأفراد وإقامة النظام الاجتماعي العادل كفيلا بجلب الخير والسعادة للناس، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾^٢، وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يَمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾^٣.

١ - الأماي (للطوسي) : ص ٣٧٢.

٢ - هود: ٥٢.

٣ - هود: ٢-٣.

﴿١٧٢﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^١، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِمَّنْ فَوْقَهُمْ وَمِمَّنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾^٢.

والأحاديث الشريفة الدالة على ذلك كثيرة، فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: «مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرْجًا وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا»^٣ وعنه ﷺ قال: «...مَنْ كَثُرَتْ هَمُومُهُ فَعَلِيهِ بِالِاسْتِغْفَارِ...»^٤ وفي الخصال عن علي عليه السلام في حديث الأربعمئة «أَكْثَرَ الِاسْتِغْفَارِ تَجَلُّبُ الرِّزْقِ».

وهذه السنة جارية في الاتجاه المقابل أيضاً، فإن الناس إذا ابتعدوا عن الله تبارك وتعالى واعرضوا عن العمل بشريعته فإن البلاء ينزل عليهم ويحرمون من الخيرات والحياة الكريمة، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^٥، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾^٦.

١ - الأعراف: ٩٦.

٢ - المائة: ٦٦.

٣ - الدعوات (للراوندي) / سلوة الحزين ؛ ص ٨٦.

٤ - المحاسن ؛ ج ١ ؛ ص ٤٢.

٥ - الروم: ٤١.

٦ - الشورى: ٣٠.

سنة الاستغفار وتواتر النعم.....﴿١٧٣﴾

وروي في تطبيق الآية عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «تَوَقَّوْا الذُّنُوبَ فَمَا مِنْ بَلِيَّةٍ وَلَا نَقْصِ رِزْقٍ إِلَّا بِذَنْبٍ حَتَّىٰ الْخُدْشِ وَ النَّكْبَةِ وَ الْمَصِيبَةِ»^١ وكشف الإمام الصادق عليه السلام عن حقيقة عجيبة يجب التوقف عندها ودراستها حيثما قال عليه السلام: «مَنْ يَمُوتُ بِالذُّنُوبِ أَكْثَرَ مِمَّنْ يَمُوتُ بِالْأَجَالِ...»^٢ وقال الإمام الرضا عليه السلام: «كَلَّمَا أَحْدَثَ الْعِبَادُ مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْمَلُونَ أَحَدَثَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ»^٣.

وقد شرحنا في خطاب لناً وجهاً لذلك للرد على من يسخر من هذه الملازمة ويفسّر الأحداث تفسيراً مادياً وضرربنا مثلاً تخلف بعض الدول كالولايات المتحدة عن التوقيع على معاهدة كيوتو للمحافظة على البيئة وهو عصيان وتمرد على هذا القانون الإنساني وأدى ذلك الى حصول ظاهرة الاحتباس الحراري وارتفاع درجة الحرارة مما أدى إلى الحرائق الواسعة وتلوث البيئة

١ - تحف العقول ؛ ص ١٠٦.

٢ - الأمالي (للطوسي) ؛ ص ٣٠٥ مثلاً ينظر في جهاز الموبايل وهو يقود السيارة أو يخالف الإشارات المرورية فيرتكب حادثاً مفاجئاً بسبب هذا الخطأ، أو يلقي تهماً من غير دليل فتحصل فتنة واقتتال يزهق أرواح الناس وهكذا.

٣ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٢ ؛ ص ٢٧٥.

٤ - خطاب المرحلة: ١ / ٣٩٤

﴿١٧٤﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

والتصحر والفيضانات وغيرها من الكوارث المدمرة فهذا مثال لتقريب فكرة ان المعصية تنتج المصائب.

والآية الكريمة في الوقت الذي تثير فيه المحفزات لدى الناس للرجوع الى الله تعالى والالتزام بالمنهج الرباني فإنها ترد على عقيدة المشركين الذين يسلّمون بأن الله تعالى هو الخالق ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، الا أنهم يعتقدون أنّ تدبير الكون وتسيير أموره بيد الهة أخرى فإنه للخصب وآخر للانتصار في الحرب وآخر لتحصيل الولد وآخر للصحة وهكذا فتقرّر الآية الكريمة ان مدبر الأمور كافة والمهيمن على الخلق أجمعين هو الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له فهو تبارك وتعالى الذي ينزل المطر من السماء ويجعل للناس جنات وأنهار أو ويمددهم بأموالٍ وبنين.

وينبغي إيضاح بعض التفاصيل المتعلقة بهذه الآية الكريمة من خلال نقاط:

الدين مشروع لإعمار الدنيا:

١- ان الأنبياء حينما كانوا يؤدون رسالتهم في دعوة الناس الى الله تعالى وتطبيق شريعته، لم يكونوا يكتفون بوعد الناس بالجنة ان آمنوا والوعيد بالنار إن كفروا، أي انهم لم يقتصرُوا على الجزاء في الآخرة بل تعهدوا لهم بجلب

المصالح الدنيوية أيضاً من رفع مستوى الرفاه الاقتصادي وتحسين الأمن والخدمات، لأن الناس بطبيعتهم يريدون أثراً ايجابياً ملموساً في العاجل ﴿كَلَّا بَلْ تَحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾^١ حتى يثبت الإيمان في قلوبهم ويثقوا بأن ما اختاروه من النظام هو الصحيح، وهذا المعنى يستفاد من قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^٢ فمطالبتهم بالعبادة واتباع الدين بعد ان ضمن لهم أهم عنصرين لاستقرار حياة الإنسان الغذاء والأمن، وهذه النتائج العاجلة ساهمت في تثبيت قلوب كثير من المؤمنين بالإسلام وبالنبي ﷺ فهم لمسوا بركات الدين الجديد في حياتهم، حيث توحدوا وتآلفت قلوبهم بعد أن مزقتهم الحروب الدامية وأهلكتهم، وتكوّنت منهم أمة موحدة قوية، ووجدوا الرفاه الاقتصادي حينما بسطوا نفوذهم على تمام الجزيرة العربية وفتحوا بلاد الفرس والروم وأصبحوا أسياد الدنيا وصارت لهم دولة مهابة.

فعلى العاملين الرساليين والساعين لإقناع الناس بمشروع الإسلام أن يعوا هذا الدرس فلا يكتفوا بالمواعظ والشعارات والادعاءات، وتأجيل الثواب والعقاب إلى يوم القيامة، بل عليهم أن يقدموا حلولاً عملية لمشاكل الناس ويقودوا مبادرات لتحسين أوضاعهم حتى يلمس الناس بركات المشروع

١ - القيامة: ٢٠.

٢ - قريش: ٣-٤.

الإسلامي وما يجلب لهم من مصالح خصوصاً اذا مكن الله تعالى لهم في الأرض وجعل لهم نفوذاً وسلطة، بل عليهم أن يسعوا لهذا التمكين حتى يستطيعوا أن يقدموا تلك الخدمات للناس فان هذا واجب على من يستطيع منهم ﴿وَمَا لَكُمْ لَّا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾!، ومقدمة الواجب واجبة كما قالوا، وهذا باب يفتح منه ألف باب يفهمها أهلها من النخب والكفاءات.

٢- ان الاستغفار له حقيقة تتضمنها كلماته وليس مجرد تحريك اللسان بها، وهذه الحقيقة عبارة عن برنامج متكامل من المواقف والأفعال، وقد شرح أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة عندما سمع قائلاً بحضرة: استغفر الله فقال عليه السلام: «شكلك أمك أ تدرى ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان أولها: الندم على ما مضى. و الثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً. و الثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز و جل أملس ليس عليك تبعه. و الرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها. و الخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلتصق الجلد بالعظم و ينشأ بينهما لحم جديد. و

السَّادِسُ: أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلْمَ الطَّاعَةِ كَمَا أذَقْتَهُ حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ^١.

لذلك روي ان علياً عليه السلام علّم شخصاً الاستغفار لتوسعة الرزق ففعل ولم يحصل تغيير في حياته، فقال عليه السلام «لعلك لا تحسن ان تستغفر، قال: علمني، قال عليه السلام: اخلص نيتك وأطع ربك»^٢.

٣- الاستغفار المقصود بالآية له معنى أسمى وأرقى وأوسع من المعنى الخاص للاستغفار الذي هو الندم على ذنب ارتكبه وطلب العفو والصفح عما صدر منه من الذنوب التي وقع فيها وصدرت منه فعلاً لأنه هنا يعني مطلق العودة الى الله تعالى والإيمان به والالتزام بشريعته ولو بقريئة الآيات المشابهة المتقدمة عليها في نفس السورة التي صرّحت بذلك ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾^٣، فهي دعوة إلى سبب المغفرة بلسان طلبها وبيان لموجبها وحث عليه: وهو الإيمان وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله والعمل الصالح قال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^٤، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ

١ - نهج البلاغة (للصبي صالح) ؛ ص ٥٤٩.

٢ - ميزان الحكمة: ٤٣٥/٦ عن كنز العمال: ٣٩٦٦

٣ - نوح: ٣-٤.

٤ - آل عمران: ٣١.

لَكُمْ فِرْقَانًا وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١﴾،
 وقال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ
 مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾^٢، فالآية الكريمة تدعو الى طلب العصمة والوقاية من الوقوع
 في الذنب أصلاً بالاشتغال بالطاعة وبالالتفات إلى الآثار السيئة للذنوب
 وعاقبتها القاسية، قال أمير المؤمنين عليه السلام «عَجِبْتُ لِأَقْوَامٍ يَحْتَمُونَ الطَّعَامَ
 مَخَافَةَ الْأَذَى كَيْفَ لَا يَحْتَمُونَ الذُّنُوبَ مَخَافَةَ النَّارِ...»^(٣) وبالالتفات أيضاً إلى
 الأثر المبارك لاجتناب الذنب ونشوة النصر على النفس والشيطان، روي عن
 رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «...مَنْ أَعْرَضَ عَنْ مُحْرَمٍ أَبَدَلَهُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَةً تَسْرُهُ...»^(٤)
 وعنه صلى الله عليه وآله قال: «غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ تَرَوْا الْعَجَائِبَ»^(٥) وعنه صلى الله عليه وآله قال «ما من
 مسلم ينظر امرأة أول نظرة ثم يعضوا بصره الا أحدث الله تعالى له عبادة
 يجد حلاوتها في قلبه»^(٦) وفي حديث آخر عن الامام الصادق عليه السلام:

«مَنْ نَظَرَ إِلَى امْرَأَةٍ فَرَفَعَ بَصْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ أَوْ غَمَّضَ بَصْرَهُ لَمْ يَرْتَدِّ إِلَيْهِ بَصْرُهُ
 حَتَّى يَزُوجَهُ اللَّهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ»^٧ فالآية الكريمة تدعو الناس إلى طلب

١ - الأنفال: ٢٩.

٢ - النساء: ٣١.

٣ - تحف العقول ؛ ص ٢٠٤.

٤ - بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ٦٦ ؛ ص ٣٨٢.

٥ - مصباح الشريعة ؛ ص ٩.

٦ - ميزان الحكمة: ٤٦٩ عن كنز العمال: ١٣٠٥٩.

٧ - من لا يحضره الفقيه ؛ ج ٣ ؛ ص ٤٧٣.

المعونة من الله تعالى على أن يسدّد العبد ويعينه على طاعته وتجنب معصيته أي الاستغفار بالدفع لا بالرفع روي عن الإمام الكاظم عليه السلام قوله: «**إِنَّ الْعُقَلَاءَ تَرَكُوا فَضُولَ الدُّنْيَا فَكَيْفَ الذُّنُوبَ؟ وَ تَرَكُوا الدُّنْيَا مِنَ الْفَضْلِ وَ تَرَكُوا الذُّنُوبَ مِنْ الْفَرَضِ**»^١ وفي الدعاء «**اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا تَوْفِيقَ الطَّاعَةِ وَ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ**» وفي أدعية أيام شهر رمضان «**اللَّهُمَّ قَرِّبْنِي فِيهِ إِلَى مَرْضَاتِكَ وَ جَنِّبْنِي سَخَطَكَ وَ نَقَمَاتِكَ**»، وورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام «**اجْتَنَابُ السَّيِّئَاتِ أَوْلَى مِنْ اِكْتِسَابِ الْحَسَنَاتِ**»^٢ ووجه الأولوية أن ارتكاب الذنب له أثر يبقى وإن غفر الذنب وسقطت عقوبته، فالمطلوب عدم الوقوع في الذنب أصلاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**مَنْ قَارَفَ ذَنْبًا فَارْقَهُ عَقْلٌ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ أَبَدًا**»^٣ وان كان المأمول من كرم الله تعالى أن يزيل كل الآثار بل يبدل السيئات الى حسنات ﴿**فَأَوْلَتْكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾^٤.

٤- قد يقال بأننا نرى أمماً فاسقة معرّضة عن الله تعالى وهي تتنعم بالرفاهية والعيش الرغيد وهذا خلاف السنة المذكورة، وجوابه بوجوه:

١ - الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج ١؛ ص ١٧.

٢ - عيون الحكم و المواعظ (لليثي)؛ ص ١٢٥؛ الرقم: ٢٨٦١.

٣ - ميزان الحكمة: ٣٧٠/٣ عن المحجة البيضاء: ١٦٠/٨

٤ - الفرقان: ٧٠.

﴿١٨٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

أ/ ربما كان نعيمهم هذا جزاءً لالتزامهم ببعض القيم الإنسانية التي يحبها الله تعالى كما ينقل عنهم - وهذه من ميراث الأنبياء والعلماء الصالحين الذين أسسوا - فما يتنعمون به ليس خارجاً عن هذه السنة الإلهية بل دليل عليها.

ب/ إنهم مروا بكموارث كثيرة كالحربين العالميتين اللتين أزهقتا أرواح حوالي مئة مليون من البشر والحروب الداخلية الطاحنة التي استمرت قروناً، وانتشار الأوبئة الفتاكة، فالنظر إلى نعيمهم الحالي فيه قصور واقتصار على حلقة يسيرة من زمن طويل.

ج/ ان في هذا استدراجاً لهم واغراءً ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^١ لاستحقاق المزيد من العذاب ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ نَمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مَّهِينٌ﴾^٢.

٥- وقد يصاغ الاشكال في الجانب الآخر فيقال بأننا نرى أشخاصاً مؤمنين ملتزمين بالشريعة قد ضيق عليهم في المعيشة وابتلوا بمصائب متنوعة، وجوابه: أن ظاهر الآية الكريمة أنها تقرّر هذه السنة بلحاظ مجموع الأفراد أي الأمم والمجتمعات وأنها كلما صلحت وتحلّت بالفضائل وأقامت نظاماً صالحاً عادلاً أغدقت عليها النعم لأنها ستكون نتيجة طبيعية لهذا الصلاح ولا

١ - القلم: ٤٤.

٢ - آل عمران: ١٧٨.

يتحقق هذا النظام الا بتطبيق الشريعة الإلهية والواقع يشهد بذلك فالنتيجة حتمية.

لكن هذا لا يعني عدم جريانها في حق الأفراد أيضاً لكن على نحو الاقتضاء لا العلية كما في المصطلح أي أنها تقبل الاستثناء ويمكن أن تتخلف النتيجة، اذا وجد مانع فيه مصلحة للفرد نجهلها، ولولا هذا المانع لأوجب الاستغفار هذه النتيجة جزماً، اذ قد يكون الأصلاح للعبد أن يمرّ بهذا الضيق لتكامله ورفعة درجاته أو لتحصيل شيء أفضل مما كان يطلبه فيضحى بالقليل من أجل الكثير كما في الآية الشريفة ﴿وَعَسَى أَنْ تَكُونُوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^١ وفي دعاء الافتتاح: «وَلَعَلَّ الَّذِي أَبْطَأَ عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لِي لَعَلَّمَكِ بِعَاقِبَةِ الْأُمُورِ».

ومما يدلّ على جريانها للأفراد تعليم الأئمة ع مضمونها لمن طلب الولد أو السعة في الرزق، فقد روى الشيخ الصدوق في الفقيه عن الامام السجاد عليه السلام أنه قال لبعض أصحابه: «قُلْ فِي طَلَبِ الْوَلَدِ: رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي فِي حَيَاتِي وَيَسْتَغْفِرْ لِي بَعْدَ مَوْتِي وَاجْعَلْهُ لِي خَلْقًا سَوِيًّا وَ لَا تَجْعَلْ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَصِيبًا اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ وَ أَتُوبُ إِلَيْكَ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ سَبْعِينَ مَرَّةً فَإِنَّهُ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا تَمَنَّى مِنْ مَالٍ وَ وُلِدَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ فَإِنَّهُ

يقول: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَ يُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَنِينَ وَ يُجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يُجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا»^١.

وفي الكافي بسنده قال «شكا الأبرش الكلبي إلى أبي جعفر عليه السلام أنه لا يولد له فقال: له علمني شيئاً قال: استغفر الله في كل يوم أو في كل ليلة مائة مرة فإن الله يقول: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَنِينَ﴾»^٢.

وفيه أيضاً بسنده عن سعيد بن يسار قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: «لا يولد لي فقال: اسْتَغْفِرْ رَبَّكَ فِي السَّحَرِ مِائَةَ مَرَّةٍ فَإِنْ نَسِيتَهُ فَاقْضِهِ»^٤.

١ - من لا يحضره الفقيه ؛ ج ٣ ؛ ص ٤٧٤.

٢ - نوح ؛ ١٠ - ١٢.

٣ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٦ ؛ ص ٨.

٤ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٦ ؛ ص ٩.



سنة تيه الامت
بسبب عصيانها القيادة الربانية



﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾

[المائدة : ٢٦]

تِيه الأمة بسبب عصيانها القيادة الربانية

تتحدث الآية الكريمة عن التيه الذي قضى الله تعالى به على بني إسرائيل أربعين سنة بسبب عصيانهم لأوامر نبيهم ﷺ بالدخول إلى الأرض المقدسة قال الله تبارك وتعالى ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾! وفيها عدة دروس منها:

- ١- كشف حقيقة بني إسرائيل وتدينهم المزيف وتأميرهم على الدعوات الإلهية.
- ٢- تحذير الأمة من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، وتحمل نتائجها الكارثية.
- ٣- إطلاع قادة المسلمين على التجارب السابقة والاستفادة منها في تحديد المواقف الحاسمة.

٤- تسلية أئمة الإسلام بسرد هذه المصائب والبلاءات، ليروا أن ما يتعرضون له ليس بدعاً من البلاء فقد تعرض له القادة الربانيون من قبل.

ولبيان أجواء القضية وملخص الواقعة نقول: إن بني إسرائيل لما نجّاهم الله تعالى من فرعون وجنوده وعبروا سالمين إلى الجهة الأخرى وغرق فرعون وجنوده، وإذا بهم يطالبون النبي موسى عليه السلام بأصنام ليعبدوها ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾^١ ثم وقعوا في فتنة عبادة العجل الذي صنعه السامري وعالجها موسى عليه السلام وتاب الله تعالى على قومه، ثم أغدق عليهم النعم وآتاهم ما سألوه بعدما شكوا الجوع والعطش والحر ففجّر موسى عليه السلام من الأرض عيون ماء وأنزل الله تعالى لهم من السماء حلوى ولحم طير وظللهم بالغمام ليقهّم حر الشمس، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^٢.

١ - الأعراف: ١٣٨.

٢ - الأعراف: ١٦٠.

ثم ذكرهم الله بالنعمة الكثيرة التي أنعمها عليهم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾^١ من بعثة موسى ﷺ إليهم وإنزال التوراة ونجاتهم من بطش فرعون وغيرها، وكذا بما اختصهم من النبوة والملك أي ما جمع لهم من الهداية إلى التوحيد، وجعلهم ملوكاً وهو إن كان خطاباً للجميع فهو يعني استقلالهم بعد التخلص من استعباد الفراعنة حتى ملكوا أمورهم وصارت لهم الزعامة الدينية التي تتضمن القيادة الاجتماعية ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾^٢ وإن صح قصد البعض من خطاب الجميع فإن من بني إسرائيل من آلت إليه السلطة أيضاً مثل يوسف وسليمان ﷺ.

وروى في الدر المنثور في تفسير جعلهم ملوكاً عن ابي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكاً».

أقول: هذا المعنى داخل فيما ذكرناه لأن من ملك هذه استقل بنفسه، وأشكل عليه بان هذه النعمة لا تختص ببني إسرائيل فما وجه الامتنان عليهم؟ وأجاب بعضهم بان بني إسرائيل اول من اتخذ الخدم، وهو مخالف للوقائع التاريخية،

١ - المائدة: ٢٠.

٢ - النساء: ٥٤.

ويمكن الإجابة بان وجه الامتنان بلحاظ حالتهم السابقة حيث كانوا عبيداً مستخدمين أذلاء عند الفراعنة، ويؤيد ذلك ما روي عن النبي ﷺ انه قال: «**مَنْ أَصْبَحَ مَعَاْفَى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سَرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»!

وقد ذكّرهم تعالى بهذه النعم التي ذكرناها آنفاً وهي متضمنه معجزات وآيات باهرات لم تتحقق لأي من الأمم السابقة ليحثّهم على طاعة أوامر الله تعالى ونيبهم العظيم ويحبّبها إليهم، مضافاً الى ابتداء خطابه بـ (يا قوم) ليذكّرهم بانه منهم وانه يريد الخير لهم، وهذا درس يستفيد منه الوعاظ والمبلغون بإثارة الارتباط الروحي بالله تعالى قبل أن يدعوهم إلى الطاعة.

وبعد هذا كله أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة وهي ارض الميعاد التي وعدوا بإقامة دولة الحق فيها ويكونون فيها ملوكاً ويبعث فيهم الأنبياء، ليثبتوهم على طريق الهدى والاستقامة، والمقصود بها القدس وما حولها وهو ما ورد في بعض الروايات^٢ بقريته قوله تعالى: ﴿**إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي**

١ - الأماي (للطوسي) ؛ ص ٤٢٨.

٢ - في بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ١٣ ؛ ص ١٧٨ «فَانْطَلَقُوا يُؤْمِنُونَ الْمَأْرُضَ الْمَقْدَسَةَ وَهِيَ فِلَسْطِينَ وَ إِنَّمَا قَدَسَهَا لِأَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلِدَ بِهَا وَ كَانَتْ مَسْكَنَ أَبِيهِ إِسْحَاقَ وَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

سنة تيه الامة بسبب عصيانها القيادة الربانية.....﴿١٨٩﴾

بَارَكْنَا حَوْلَهُ ^١، وقوله تعالى: **﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾** ^٢.

إذ ان البركة تعني الخير الكثير، واعظم مصاديقه إقامة الدين فيها وتخليصها من رجس الكفر والشرك التي توجهوا إليها بعد خروجهم من مصر **﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾** ^٣، وتتضمن دعوته ﷺ وعدا صادقاً **﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾** بانها ستكون لهم ليحفزهم ويطمئنهم، ويدلُّ التحذير في نهاية الآية على أنه ﷺ كان يتوقع منهم العصيان والتمرد والنكوص على الاعقاب والخمول وإدارة ظهورهم لنبیهم الکریم ﷺ، فهم هم الذين رافقوه من مصر وجرعوه الغصص والآلام ووقعوا في الفتن العظمى التي أشرنا إلى بعضها.

وقد صدق ظنه ﷺ عليهم إذ كان جوابهم بعد كل تلك النعم والمكانة والتفضيل أن أعلنوا تمردهم على أمر نبیهم ﷺ معتردين بوجود قوم اولي ضخامة بدنية وشدة وبأس، وهم طغاة يجبرون الناس على طاعتهم،

١ - الإسراء: ١.

٢ - الأعراف: ١٣٧.

٣ - المائدة: ٢١.

٤ - في (تفسير النور: ٢٥٢/٢) عن موسوعة فريد وجدي (الجبارةون هم قوم العمالقة من الساميين عاشوا في شمال شبه الجزيرة العربية بالقرب من صحراء سيناء، هاجموا مصر واستولوا عليها لفترات طويلة، ودام حكمهم هناك ما يقرب من خمسة قرون).

﴿١٩٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

واشترطوا لتنفيذ الأمر خروج أولئك من الأرض المقدسة وهم يعلمون إن الجبارين لا يخرجون ولا يتخلون عن سلطتهم من تلقاء أنفسهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾^١.

ولم يطع الأمر إلا قلة قليلة ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^٢.

فهما من الذين يخافون الله تعالى، والخوف من الله تعالى هو المحرك الرئيسي لكل عمل صالح وقد يكون عندهما خوف من الجبارين المتسلطين في الأرض المقدسة إلا إن خوفهما من الله تعالى كان أعظم وهو الغالب عليهما، فأذهب الله تعالى عنهم ذلك الخوف، إذ أنعم الله تعالى عليهما بالإخلاص له فجعلهم من أوليائه ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^٣ فهم داخلون في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ

١ - المائة: ٢٢.

٢ - المائة: ٢٣.

٣ - يونس: ٦٢.

سنة تيه الامة بسبب عصيانها القيادة الربانية.....﴿١٩١﴾

اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿١﴾.

وذكرت الروايات أن أحدهما يوشع بن نون وصي موسى ﷺ وآخر وهما من أبناء عمومته^٢ وكانا من نقباء بني إسرائيل الأثني عشر، وقالوا إن الغلبة ستتحقق لكم بمجرد اقتحامكم لأول مدينة من مدن الجابرة وهي أريحا على ما قيل^٣ تصديقاً لقول امير المؤمنين ﷺ: «مَا غَزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عَقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذُلُّوا»^٤، وقطعاً بالوعد لأنهما تلقياه من موسى ﷺ، ولأن الله تعالى كاف من يتوكل عليه، فأمرنا قومهما بالتوكل على الله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^٥.

وفي الآية درس عظيم وهو انه إذا عرض عليك أمر فيه رضا الله تعالى وكان محفوظاً بصعوبات فلا تهيبه ولا تتردد وأقدم عليه وحينئذ سييسره الله تعالى ويجعله هيناً وهو قول امير المؤمنين ﷺ: «إِذَا هَبْتَ أَمْرًا فَفَعْ فِيهِ»^٦ فان التردد والخوف يؤدي الى الفشل وضياع فرص التوفيق، قال ﷺ: «قَرِنْتَ الْهَيْبَةَ

١ - النساء: ٦٩.

١ - تفسير العياشي: ١/٣٠٣/٦٨، البرهان: ٣/٢١١.

٣ - الدر المنثور: ٤٨/٣ ط. دار الفكر.

٤ - كتاب سليم بن قيس الهلالي: ج ٢: ص ٦٦٢.

٥ - الطلاق: ٣.

٦ - نهج البلاغة (للصبي صالح): ص ٥٠١.

﴿١٩٢﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

بِالْخَيْبَةِ...﴾^١، لذا حث الأحاديث الشريفة على الإسراع الى عمل الخير لان التواني يؤدي الى ضعف العزيمة وترك العمل، قال الامام الباقر عليه السلام: «مَنْ هَمَّ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ فَلْيَعْجَلْهُ فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ تَأْخِيرٌ فَإِنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَظْرَةً»^٢.

ورغم هذه الفرصة العظيمة للنصر التي لا تتطلب أزيد من عقد العزم وإخلاص النية، والإقدام على العمل من دون تقاعس، ومباغته الخصم، وحينها ينزل الله تعالى عليهم نصره وتأييده وسكيتته، إلا أنهم أصروا على التمرد والعناد، وإدخال اليأس من استجابتهم على قلب موسى عليه السلام حتى يتوقف عن دعوتهم إلى الطاعة ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنُ نَدْخِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^٣ و﴿لَنْ﴾ تفيد التأييد مع المجيء بلفظ ﴿أَبَدًا﴾ للتأكيد.

قولهم ﴿وَرَبُّكَ﴾ فكأن الله تعالى هو رب موسى دونهم فالقضية لا تعنيهم، وانهم لا يريدون رباً يكلّفهم بمواجهة الأعداء وتحملّ المصاعب، فهم يريدون أن تتحقق النتائج من دون عمل يقدمونه وإنما يكفيهم الله ورسوله وهم قاعدون، وقد تملكتم صفة الجبن والاستسلام والضعف نتيجة لطول استعبادهم من فرعون، وهذه نظرية اجتماعية ينبغي الالتفات إليها، لذا

١ - تحف العقول ؛ ص ٢٠١.

٢ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٢ ؛ ص ١٤٣.

٣ - المائدة: ٢٤.

سنة تيه الامة بسبب عصيانها القيادة الربانية.....﴿١٩٣﴾

استنهضهم موسى عليه السلام وعمل على إعادة الثقة لأنفسهم بتذكيرهم بنعم الله تعالى الكثيرة والعظيمة وما تحقق لهم من أسباب القوة.

وحينئذ شعر النبي موسى عليه السلام بالإحباط والياس المؤلم القاسي من صلاح هذه الجماعة رغم كثرة ما أغدق الله تعالى عليهم من النعم وأراهم من المعجزات وأظهر عليه السلام استسلامه لله تعالى وإيمانه الراسخ بصدق وعده، وناداه بصفة الربوبية، لان الله تعالى ربّاه ورعاه وصنعه من أول أمره ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^١ فإنه ليس له سلطة عليهم ولا يستطيع إجبارهم وإكراههم على الطاعة والهداية والصلاح، وان كان يوجد صالحون في قومه كالرجلين الّا انه لا يملك منهم مثلما يملك من اخيه هارون النبي فإنه طيع له ومسّم لأمره ولديهما من التأييد الإلهي ما ليس لغيرهما، فان ملك النفس والتسلط عليها بتمام السلطنة لا تكون الا للمخلصين من عباد الله تعالى الذين استخلصهم الله تعالى لنفسه ﴿لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^٢ ويمكن ان يكون معناها اني لا املك الا نفسي واخي كذلك لا يملك الا نفسه، ومؤداهما واحد فان من تمام ملك هارون نفسه تسليمه لأخيه موسى عليه السلام.

١ - المائة: ٢٥.

٢ - الحجر ٣٩-٤٠.

ومن أدبه ﷺ مع ربه فإنه أوكل أمر تحقيق الوعد الإلهي بالتمكين في الأرض ووراثتها إلى الله تعالى، ولم يطلب من ربه عقوبة معينة على قومه ولا اتخذ قراراً محدداً، كيف وقد كرّس حياته لصالحهم وانقاذهم، وإنما أوكل أمر الفصل بينه وبين قومه العاصين المتمردين إلى ربه، فإنه اشفق عليه واولى بتدبير شؤونهم، وإنما وصفهم بالفاسقين واستحقاقهم المباينة مع عباد الله الصالحين لتكرّر عصيانهم مرات عديدة، فأنهم بعد أن رأوا معجزة فلق البحر وإغراق فرعون وجيشه ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾^١ حتى عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري، وبلغت بهم الوقاحة حداً عظيماً ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^٢ وفي كل مرة يتوب الله تعالى عليهم ويفيض عليهم نعماً خاصة لكم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^٣ ويعودون هم إلى عصيانهم وتمردهم.

وهنا شاءت الإرادة الإلهية نوعاً من التربية والإصلاح لبني إسرائيل فيه مشقة ضرورية لهم فهو رحمة وان كان ظاهرة العذاب، وذلك بأن يقعوا في التيه والحيرة التي اختاروها لأنفسهم أربعين سنة، ومن المعلوم تأثير عدد الأربعين

١ - الأعراف: ١٣٨.

٢ - البقرة: ٥٥.

٣ - البقرة: ٥٦.

سنة تيه الامة بسبب عصيانها القيادة الربانية.....﴿١٩٥﴾

في موجبات التكامل، وقد استحقوا هذه القسوة بتمردهم على قيادتهم الربانية المعصومة يتيهون في الأرض ليس لهم حياة مستقرة ولا مستقبل مضمون، ولا يستطيعون دخول الأرض المقدسة ولا الرجوع إلى بلدهم الأصلي مصر، وكان معهم موسى وهارون عليهما السلام والوصي يوشع ألا انهم لم يمنعوا من دخول الأرض المقدسة فكانوا يزورونها، وتوفي موسى عليه السلام خلال هذه الفترة^١ وأخوه قبله، ونشأت أجيال جديدة من بني إسرائيل من رحم المعاناة والايمان، تحلّوا بالعزة والثبات والشجاعة فقدّر الله تعالى لهم الخروج من التيه بقيادة الوصي يوشع بعد انتهاء مدة التيه^٢ ودخلوا الأرض المقدسة مع طالوت ببركة فئة قليلة ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ، فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾^٣ وتحقق قوله تعالى: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^٤ لكن ليس للمخاطبين المباشرين لعصيانهم، إذ إن الوقت غير معين فيها ولا الأشخاص لأن الخطاب موجه إلى الأمة جميعاً، فصدق الوعد الإلهي في أبناء المخاطبين.

١ - سفينة البحار: ١ / ٤٨٣.

٢ - الدر المثور: ٣ / ٥٢.

٣ - البقرة: ٢٥٠-٢٥١.

٤ - المائدة: ٢١.

﴿١٩٦﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

وقد وعدهم الله تعالى بوراثة الأرض والتمكين فيها إذا صبروا على الطاعة والاستقامة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾^١.

يسرد القرآن الكريم هذه القصة على المسلمين في أوائل تشكيل الدولة الإسلامية بعد الهجرة والظاهر إن نزولها قبل معركة بدر بقرينة ذكر المقداد لها في كلمته الآتية ليعلمهم أن أساس الإيمان الطاعة، وليحذرهم مغبة عصيان القائد الرباني العظيم ويحذرهم من الثمن الباهظ الذي يدفعونه، لكنهم لم يستوعبوا هذا الدرس ولا غيره مما حكاه القرآن الكريم وأعادوا نفس أخطاء بني إسرائيل، وقد أخبرهم النبي ﷺ باقتصاصهم آثار بني إسرائيل، فقد روى الامام الباقر عليه السلام عنه ﷺ قوله: « وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكِبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوِ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَالْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ حَتَّىٰ لَا تَخْطُونَ طَرِيقَهُمْ وَلَا يَخْطِئَكُمْ سُنَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ »^٢.

فوقعت الأمة في حيرة وتيه بسبب انقلابها على أعقابها بعد رحيل رسول الله ﷺ ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^٣.

١ - الأعراف: ١٣٧.

٢ - بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ١٣ ؛ ص ١٨٠.

٣ - آل عمران: ١٤٤.

سنة تيه الامة بسبب عصيانها القيادة الربانية.....﴿١٩٧﴾

حيث نكثت بيعة الغدير وخلصت عترته وراء ظهورهم، وازاحوهم عن مقامهم السامي الذي رفعهم الله تعالى، فأضاعوا القرآن بتضييعهم للعترة لأنهما صنوان لا يفترقان بنص حديث الثقلين المشهور.

وقد عبر أمير المؤمنين عليه السلام عن هذا الضياع والته الذي وقعت فيه الأمة بقوله عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ لَوْ لَمْ تَتَخَذُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ وَ لَمْ تَهْنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ وَ لَمْ يَقُوْ مِنْ قَوِي عَلَيْكُمْ لَكِنَّكُمْ تَهْتَمُّ مَتَاهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لِعَمْرِي لِيَضَعَنَّ لَكُمْ التِّيَّهَ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافًا بِمَا خَلَقْتُمْ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَ قَطَعْتُمْ الْأَدْنَى وَ وَصَلْتُمْ الْأَبْعَدَ...»^١ وهكذا ضاعت الأمة في تيه طويل لا زالت تتخبط فيه.

روى العياشي في تفسيره عن الامام الباقر عليه السلام قال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَبِضَ لَمْ يَكُنْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا عَلِيٌّ وَ الْحَسَنُ وَ الْحُسَيْنُ وَ سَلْمَانَ وَ الْمُقْدَادَ وَ أَبُو ذَرٍّ فَمَكَّثُوا أَرْبَعِينَ حَتَّى قَامَ عَلِيٌّ عليه السلام فَقَاتَلَ مَنْ خَالَفَهُ»^٢.

أقول: هؤلاء أكمل من ثبت على الامر ولا ينفي وجود الصلحاء الاخرين كعمار وذي الشهادتين وابن التيهان وابي أيوب ونظرانهم.

١ - نهج البلاغة (للصبيحي صالح) ؛ ص ٢٤١.

٢ - بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ١٣ ؛ ص ١٨٠.

﴿١٩٨﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

وقد ثبت على الحق في المفاصل الحاسمة عبر التاريخ ثلة من الأفاضل، كالمقداد الذي خاطب رسول الله ﷺ بعد أن تخاذل فلان وفلان عن مواجهة قريش، حينما أفلتت قافلتهم ووجد المسلمون أنفسهم في قبال جيش أكثر عدداً وأقوى تسليحاً فقال: **«لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ و الذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لا تبعناك»**^١ فسر رسول الله ﷺ وأشرق وجهه ثم تبعه الأنصار بمثل هذه الكلمات.

إن إنقاذ الناس من التيه والحيرة المؤديين إلى الضلال والانحراف الذي أوقعت الأمة نفسها فيه لمخالفتها لوصية رسول الله ﷺ في أمير المؤمنين عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام، كان هو الدافع لقيام الإمام الحسين عليه السلام بحركته المباركة، فقد ورد في زيارة الامام الحسين عليه السلام يوم الأربعاء **«و بَدَلْ مَهْجَتَهُ فَيْكَ لَيْسْتَنْقِذْ عِبَادَكَ مِنَ الْجَهَالَةِ وَ حَيْرَةِ الضَّلَالَةِ»**^٢ وهكذا على طول الزمان يكلفنا عصيان العاصين وتمرد الفاسقين وخبث الماكرين من طلاب الدنيا هذه التكاليف الباهظة، ولا تتبه الأمة من غفلتها إلا بعد فوات الأوان، ولا يوفق إلا قلة ممن أكرمهم الله تعالى بالوعي والبصيرة فيتخذون الموقف اللائق بهم كأصحاب الإمام الحسين عليه السلام.

١ - الدر المنثور في تفسير المأثور؛ ج ٢؛ ٢٧١.

٢ - مصباح المتعبد و سلاح المتعبد؛ ج ٢؛ ص ٧٨٨.

سنة تيه الامة بسبب عصيانها القيادة الربانية.....﴿١٩٩﴾

فالنداء الذي أطلقه الامام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء «هل من ناصر ينصرنا»^١ ليس مختصاً بالقوم الموجودين على ارض المعركة بل هو موجّه الى كل الأجيال حتى قيام يوم الساعة يدعوهم عليه السلام لنصرته على تحقيق الأهداف التي خرج من اجلها، فالحرب مستمرة وان تنوعت أساليب المواجهة وادواتها.

نسأل الله تعالى الثبات على الحق وأن نكون على بصيرة من أمرنا.



سنة اليسر بعد العسر



﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

[الشرح : ٥]

سنة اليسر بعد العسر

سنة من السنن الإلهية الثابتة والقوانين الجارية في عبادته، فيها وعد صادق من الله تبارك وتعالى مؤكد بـ(إن)، وهو يتضمن بشرى لعباده بأن ما يتعرض له الإنسان من ابتلاءات ومحن يصعب عليه تحملها والاستمرار بها فإن أمرها سيتيسر ويهون ويتبدل العسر إلى يسر، وقد ذكر الله تعالى هذا القانون الإلهي في آية أخرى قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾^١، ويتضمن معنى اليسر لغةً: السهولة والتوسعة والمساعدة والرخاء والرفاه، ويقابله العسر متضمناً المشقة والضيق والصعوبة والشدة.

وقد أكدت آية أخرى أن الله تعالى لا يريد لعباده إلا اليسر قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^٢، فلا عسر من قبل الله تعالى، وأن العسر حالة طارئة غير متجدرة ناتجة من فعل العباد، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ

١ - الطلاق: ٧.

٢ - البقرة: ١٨٥.

﴿٢٠٤﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ، فَسَنَسِرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١﴾ ، أي أنه بفعله واختياره توجه نحو العسر.

وقد تقدمت على الآية عدة مصاديق لليسر بعد العسر من حياة النبي ﷺ قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾^٢ وفي سورة الضحى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾^٣ فقد ولد النبي ﷺ يتيم الأب ثم توفيت أمه وهو رضيع فكفله جده عبد المطلب ولما توفي كفله عمه أبو طالب وكانت قريش تسميه يتيم أبي طالب، فعاش اليتيم والفقر في مجتمع جاهلي غارق في الموبقات والرذائل كالشرك بالله تعالى وعبادة الأصنام والزنا وشرب الخمر وقتل البنات وظلم الضعيف واستعباد الناس وغيرها فكان قلبه يتألم لهذا الواقع الفاسد ويضيق صدره وهو النقي الطاهر فكان يصعب عليه ما يراه من قومه، فمن الله تعالى عليه أن شرح صدره بالإيمان وعصمه من الذنوب وزوجه بسيدة طاهرة كريمة وأغناه وحماه من كيد الأعداء إلى أن بعثه بالنبوة وحمله أعظم الرسالات فكان سيد المرسلين وأفضل الخلق أجمعين، فيكون بيان هذه النعم تمهيداً لذكر هذه السنة الإلهية

١ - الليل: ٨-١٠.

٢ - الإنشراح: ١-٤.

٣ - الضحى: ٦-٨.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ وتأكيذاً لها، وارتباطها بالفاء يجعلها كالتعليل لسبوغ تلك النعم.

وقد نزلت سورة الإنشراح في مكة والنبى ﷺ والمسلمون يعانون من ظلم قريش واضطهادهم وحصارهم وتجويعهم وتعذيبهم بأقسى العقوبات فكان من أغراضها تسلية النبي ﷺ وتخفيف معاناته وهو يحمل أعباء أثقل مسؤولية ﴿إِنَّا سَنَلْقِيْكَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً﴾^١ ويتعرض لأبشع أنواع الأذى «مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ مِّثْلَ مَا أُوذِيَتُ»^٢ وهكذا حملت السور القرآنية صوراً من العسر والمشقة والشدة التي تعرض لها الأنبياء السابقون كنوح وإبراهيم ويوسف وموسى وعيسى ﷺ ثم أتاهم الفرج والنصر واليسر وفي ذلك تسليه لرسول الله ﷺ حيث وصلت بعض معاناة الرسل إلى حد اليأس وفقدان الأمل ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَأٍ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾^٣.

وتحمل الآية الكريمة أيضاً بشارَةً للمسلمين وتثبيتاً لقلوبهم بأن هذا العسر الذي تننون من وطأته سيبدله الله تعالى يسراً ويزول عنكم هذا العنت والمشقة وهو ما حصل بالهجرة إلى المدينة المنورة.

١ - المزمّل: ٥.

٢ - مناقب آل أبي طالب ﷺ (لابن شهر آشوب) ؛ ج ٣ ؛ ص ٢٤٧.

٣ - يوسف: ١١٠.

﴿٢٠٦﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

والدرس المستفاد من الآية الكريمة: أن على المؤمنين أن لا يضعفوا أو يياسوا أو يشعروا بالإحباط، وأن يكون شعارهم دائماً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾^١، وقوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾^٢، فالأمل بانفراج الأزمات وزوال المعاناة موجود دائماً ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^٣ وإن نفس هذا الأمل هو يسر كاشف للعسر، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «تَوَقَّعِ الْفَرَجَ إِحْدَى الرَّاحَتَيْنِ»^٣.

وعليهم أن يشكروا الله تعالى على حسن صنيعه بهم إذ أبدل خوفهم أمناً وفقرهم يساراً وضيقهم انشراحاً وضلالهم إيماناً وجهلهم علماً وبعدهم قرباً وتفرقتهم وحدة، وهكذا.. ولا أريد الإطالة في ذكر المصاديق من حياة كل فرد منا وهو ما اختصره دعاء الافتتاح «فَكَمْ يَا إِلَهِي مِنْ كَرْبَةٍ قَدْ فَرَجْتَهَا وَ هُمُومٍ قَدْ كَشَفْتَهَا وَعَثْرَةٍ قَدْ أَقْلَتَهَا وَ رَحْمَةٍ قَدْ نَشَرْتَهَا وَ حَلْقَةٍ بَلَاءٍ قَدْ فَكَّكْتَهَا» وفي موضع آخر منه «فَكَمْ مِنْ مَوْهَبَةٍ هَنِئَتْ قَدْ أَعْطَانِي وَ عَظِيمَةٍ مَخُوفَةٍ قَدْ كَفَّانِي وَ بَهْجَةٍ مَوْنِقَةٍ قَدْ أَرَانِي فَأُثْنِي عَلَيْهِ حَامِداً وَ أَذْكَرُهُ مَسْبِحا»^٤.

وقد كرر الله تعالى اليسر بعد العسر مرتين تأكيداً، فالعسر واحد لأنه معرف واليسر متعدد ومطلق أي أنه مفتوح بجميع الاتجاهات، وفي ذلك أمل كبير

١ - يوسف: ٨٧

٢ - الزمر: ٥٣

٣ - عيون الحكم و المواعظ (لليثي) ؛ ص ٢٠٠ ؛ الرقم : ٤٠٣٨.

٤ - مصباح المتهجد و سلاح المتعبد ؛ ج ٢ ؛ ص ٥٧٩.

سنة اليسر بعد العسر.....﴿٢٠٧﴾

بِاللَّهِ تَعَالَى لَا نَفَادَ لَهُ، وَوَاسِعٌ لَا حُدُودَ لَهُ لِكُلِّ مَنْ يَمُرُّ بِضَيْقٍ أَوْ شِدَّةٍ أَوْ
مُعَانَاةٍ مَادِيَةٍ أَوْ مَعْنَوِيَةٍ، رَوَى فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا مَسْرُورًا
فَرِحًا، وَهُوَ يَضْحَكُ، وَيَقُولُ: «لَنْ يَغْلِبَ عَسْرٌ يَسْرِينَ ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^١!

وَعَنهُ ﷺ: «لَوْ جَاءَ الْعَسْرُ فَدَخَلَ هَذَا الْجَحْرُ، لَجَاءَ الْيُسْرُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ
فَأَخْرَجَهُ»^٢.

ومن شعر الموعظة:

إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الدُّنْيَا تَفَكَّرْ فِي أَلَمِ نَشْرَحِ
تَجِدُ يَسْرِينَ بَعْدَ الْعُسْرِ إِنْ فَكَّرْتَهُ تَنْجَحُ

وَقَدْ ذَكَرْتُ الْآيَةَ ﴿مَعَ الْعُسْرِ﴾ وَلَيْسَ بَعْدَ الْعُسْرِ، وَإِنْ كَانَتْ دَالَةً عَلَى ذَلِكَ
كَمَا فَهَمَ مِنْهَا، وَلَعَلَّ النُّكْتَةَ فِيهَا أَنْ حَالَةَ الْعُسْرِ تَسْتَبْطِنُ مَعَهَا حَالَةَ الْيُسْرِ
وَتَكُونُ سَبَبًا لَهَا لَمَا تَتَضَمَّنُهُ مِنَ الْإِنْكَسَارِ وَتَقَطُّعِ الْأَسْبَابِ وَالْحَاجَةِ إِلَى اللَّهِ
تَعَالَى وَهِيَ مِنْ مَوْجِبَاتِ اسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ وَرَفْعِ الْبَلَاءِ ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ

١ - تفسير الصافي ؛ ج ٥ ؛ ص ٣٤٤.

٢ - كنز العمال: ٢٩٤٧.

الضَّرُّ دَعَانَا لَجَنَبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا^١ حيث ينقطع العبد إلى ربه ﴿أَمَّنْ يَجِيبُ
الْمُضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ^٢﴾.

وقد علمنا الله تعالى طريق استجلاب اليسر قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ
وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنِيْرَهُ لِيَسْرَى^٣﴾ وعلمنا وسيلة دفع العسر
والشدة والضيق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ،
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ^٤﴾، وقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ
وَالصَّلَاةِ^٥﴾ ولم يذكر مورد الاستعانة على ماذا لتكون مطلقة سواء لطلب
الرزق أو العافية أو الولد أو التوفيق أو حل مشكلة معينة أو إصلاح حال
خاص أو عام أو خروج من مأزق وغير ذلك.

وقد دلت الروايات الشريفة على أن العسر والضيق كلما يشتد فإنه يكون
أقرب لليسر والفرج قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أَضِيقُ مَا يَكُونُ الْحَرَجُ أَقْرَبُ^٦»

١ - يونس: ١٢.

٢ - النمل: ٦٢.

٣ - الليل: ٥-٧.

٤ - الحجر: ٩٧-٩٨.

٥ - البقرة: ٤٥.

«عِنْدَ تَنَاهِي الشَّدَّةِ تَكُونُ الْفَرْجَةُ وَ عِنْدَ تَضَايِقِ مَا يَكُونُ الْفَرْجُ»^١ وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عِنْدَ تَنَاهِي الشَّدَّةِ تَكُونُ الْفَرْجَةُ وَ عِنْدَ تَضَايِقِ حَلَقِ الْبَلَاءِ يَكُونُ الرَّخَاءُ»^٢ وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا اشْتَدَّ ضَيْقُ إِلَّا قَرَّبَ اللَّهُ فَرْجَهُ»^٣.

روي أن امرأة جاءت إلى الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالت: «أَنَّهُ جَاءَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ ابْنِي سَافَرَ عَنِّي وَ قَدْ طَالَتْ غَيْبَتُهُ عَنِّي وَ اشْتَدَّ شَوْقِي إِلَيْهِ فَادْعُ اللَّهَ لِي فَقَالَ لَهَا: عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ فَاسْتَعْمَلْتَهُ ثُمَّ جَاءَتْ بَعْدَ ذَلِكَ فَشَكَتْ إِلَيْهِ طَوْلَ غَيْبَةِ ابْنِهَا فَقَالَ لَهَا: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ؟! فَقَالَتْ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ كَمْ الصَّبْرُ؟ فَوَاللَّهِ لَقَدْ فَنِي الصَّبْرُ فَقَالَ: ارْجِعِي إِلَى مَنْزِلِكَ تَجِدِي وَلَدَكَ قَدْ قَدِمَ مِنْ سَفَرِهِ فَفَهَضَتْ فَوَجَدْتَهُ قَدْ قَدِمَ فَأَتَتْ بِهِ إِلَيْهِ فَقَالَتْ: أَوْحَى بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا وَ لَكِنْ عِنْدَ فَنَاءِ الصَّبْرِ يَأْتِي الْفَرْجُ فَلَمَّا قُلْتُ فَنِي الصَّبْرَ عَرَفْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَجَ عَنكَ بِقُدُومِ وَلَدِكَ»^٤.

وَأذْكَرْ لَكُمْ شَاهِدًا عَلَى الْعَسْرِ بَعْدَ الْيَسْرِ مِنْ سِيرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

«وَقَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صَلْحَ الْحَدِيثِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَكَانَ مِنْ بَنُوهِ أَنْ مَنْ يَأْتِي لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مُسْلِمًا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَرْجِعَهُ إِلَى قَوْمِهِ أَمَا مَنْ يَتْرِكُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَيَعُودُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَلَا يَرْجِعُوهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَسَبَّبَ

١ - عيون الحكم و المواعظ (لليثي) ؛ ص ١١٩ ؛ الرقم : ٢٦٩٣.

(٢) نهج البلاغة (للصبي صالح) ؛ ص ٥٣٦.

(٣) غرر الحكم و درر الكلم ؛ ص ٦٨٩.

٤ - وسائل الشيعة ؛ ج ١٥ ؛ ص ٢٦٤.

هذا الشرط تشكيكاً لدى بعض المسلمين بصواب ما فعله رسول الله ﷺ،
 ففرَّ أحد المسلمين المستضعفين من حبسه في مكة يدعى أبو بصير عتبة بن
 أسيد وقصد النبي ﷺ فلما وصل المدينة كتب رؤساء المشركين إلى
 رسول الله ﷺ يطالبونه به وبعثوا لجلبه رجلاً من بني عامر بن لؤي، ومعه
 مولى لهم، فقدموا على رسول الله ﷺ بكتاب الأزهر والأخنس، فقال رسول
 الله ﷺ: يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا
 في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً
 ومخرجاً، فانطلق إلى قومك، قال: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين
 يفتنونني في ديني؟ قال: يا أبا بصير، انطلق، فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن
 معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً.

فانطلق معهما، حتى إذا كان بذي الحليفة، جلس إلى جدار، وجلس معه
 أصحابه، فقال أبو بصير: أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم، قال:
 أنظر إليه؟ قال: أنظر، إن شئت. قال: فاستله أبو بصير، ثم علاه به حتى قتله،
 وخرج المولى سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد،
 فلما رآه رسول الله ﷺ طالعا، قال: إن هذا الرجل قد رأى فرعاً، فلماً
 انتهى إلى رسول الله ﷺ قال: ويحك! مالك؟ قال: قتل صاحبكم صاحبي.
 فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً بالسيف، حتى وقف على رسول

اللَّهُ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَفَتْ ذِمَّتْكَ، وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ، أَسَلَمْتَنِي بِيَدِ الْقَوْمِ وَقَدْ اِمْتَنَعْتَ بِدِينِي أَنْ أَفْتَنَ فِيهِ، أَوْ يَعْبَثَ بِي. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَيْلٌ أُمَّهُ مَحْشٌ^١ حَرْبٌ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ!

ثُمَّ خَرَجَ أَبُو بَصِيرٍ حَتَّى نَزَلَ الْعَيْصَ، مِنْ نَاحِيَةِ ذِي الْمَرْوَةِ، عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، بِطَرِيقِ قَرِيْشٍ الَّتِي كَانُوا يَأْخُذُونَ عَلَيْهَا إِلَى الشَّامِ، وَبَلَغَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا احْتَبَسُوا بِمَكَّةَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَصِيرٍ: (وَيْلٌ أُمَّهُ مَحْشٌ حَرْبٌ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ)!. فَخَرَجُوا إِلَى أَبِي بَصِيرٍ بِالْعَيْصِ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ قَرِيبٌ مِنْ سَبْعِينَ رَجُلًا، وَكَانُوا قَدْ ضَيَّقُوا عَلَى قَرِيْشٍ، لَا يَظْفَرُونَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَتَلُوهُ، وَلَا تَمَرُّ بِهِمْ عَيْرٌ إِلَّا افْتَطَعُوهَا، حَتَّى كَتَبَتْ قَرِيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَسْأَلُ بِأَرْحَامِهَا إِلَّا آوَاهُمْ، فَلَا حَاجَةَ لَهُمْ بِهِمْ، فَأَوَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَدِمُوا عَلَيْهِ الْمَدِينَةَ^٢.

وحكي أن ملكاً أصبح ذات يوم كئيباً حزيناً ضيقَ الصدرِ فأستدعى ندماءه ليؤنسوه ويزيلوا غمّه فقدموا كل ما لديهم من أحاديث طريفة وحركات مثيرة فلم يفلحوا وأخيراً نصحوه بأن يقوم بسفرةٍ في البحر عسى أن تنجلي همومه برؤية المناظر المدهشة، وهناك في عرض البحر سمع صوت شخص ينادي (يا غياث المستغيثين أغثني) فطلب من رجاله النزول إلى البحر بسرعة

١ - لعل الصحيح (مسعر) أو هي بمعناها.

٢ - سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٠٧- ٢٠٨ ط. دار الجيل.

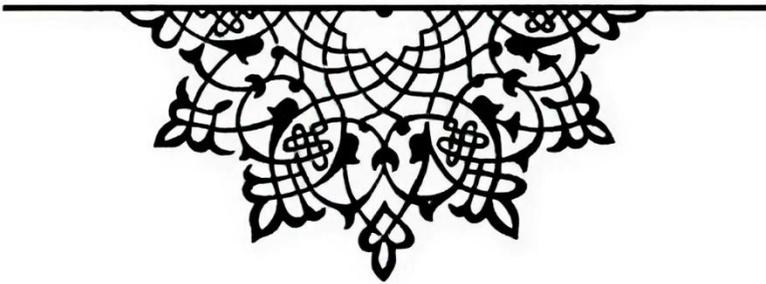
ومعرفة مصدر الصوت فوجدوا رجلاً مشرفاً على الهلاك ينازع أمواج البحر المتلاطمة فأنقذوه وجأؤوا به إلى ظهر السفينة وبعد معالجتته واستقرار حالته سأله الملك عن حاله فقال: إنهم كانوا في سفينة فتعرضت لحادث وغرقت وجميع الركاب فبقي يصارع الأموات وفقد كل أمل إلا بالله تعالى فأخذ يكرّر نداء الاستغاثة، فعرف الملك سرّ ما جرى له وكيف دفعه الله تعالى بهذه الطريقة لإنقاذ الغريق.

ولا بد من الالتفات إلى أن العسر قد يكون مادياً كالفقر والمرض والسجن والغربة والحرمان من الأهل والولد وقد يكون معنوياً كضيق الصدر والقلق والاكئاب والوسوسة والحرمان من الهداية والتوفيق والتورط بالذنوب وفي مقابلها يكون اليسر، كما أن اليسر الموعود قد لا يكون من جنس العسر كأن يعطي مالاً للفقير أو صحة للمريض بل يعطيه شيئاً آخر كالهداية والتوفيق وغفران الذنوب والصبر على المصيبة وربما الشكر وراحة البال وقرّة العين في الأهل والولد والعلم والبصيرة وتأسّي الآخرين وتأثرهم به، مضافاً إلى كل ذلك الفوز بالجنة والنجاة من النار وحسن الجزاء في الآخرة، ولعل في تكرار اليسر مع العسر في الآية للإشارة إلى أنه قد يكون من جنسه وقد يكون من غيره أو هما معاً.

نسأل الله تعالى ان ييسرنا للحسنى والصلاح والسعادة والرضا في الدنيا والآخرة.



سنة الفوز والفلاح



﴿أُنَجِّينَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾

[الأعراف : ١٦٥]

الفوز والفلاح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا لَلَّهِ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ، فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^١.

روى علي بن إبراهيم في تفسيره بسند صحيح في سبب نزول الآيات عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «وَجَدْنَا فِي كِتَابِ عَلِيِّ عليه السلام أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ أَيْكَةَ^٢ مِنْ قَوْمِ ثَمُودَ وَأَنَّ الْحِيتَانَ كَانَتْ سَبَقَتْ إِلَيْهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ لِيُخْتَبَرَ اللَّهُ طَاعَتَهُمْ فِي ذَلِكَ - وَقَدْ نَهَوْا عَنِ الصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْتِ لِأَنَّهُ يَوْمٌ تَفْرَغُ لِلْعِبَادَةِ وَعِيدِ أَسْبُوعِي كَالْجُمُعَةِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ - فَشُرِعَتْ إِلَيْهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ - أَي تَظْهَرُ

١ - الأعراف: ١٦٤-١٦٥.

٢ - وهي إيلات اليوم مدينة تقع على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام كما في معجم البلدان ومراصد الاطلاع وهو خليج العقبة.

واضحة على سطح الماء وسهلة التناول يوم السبت دون بقية الأيام لأنهم كانوا يمتنعون عن الصيد يوم السبت في بداية الأمر فكانت الحيتان تأتي آمنة يوم السبت - فسبحان الله الذي علمها يوم السبت من بين الأيام - في ناديمهم و قدام أبوابهم في أنهارهم و سواقهم فبادروا إليها فأخذوا يصطادونها فلبثوا في ذلك ما شاء الله لا ينهائم عنها الأخبار و لا يمنعهم العلماء من صيدها، ثم إن الشيطان أوحى إلى طائفة منهم: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت فلم تنهوا عن صيدها، فاصطادوا يوم السبت و كلوها فيما سوى ذلك من الأيام، فقالت طائفة منهم الآن نضطادها، فعتت، و انحازت طائفة أخرى منهم ذات اليمين فقالوا نهاكم عن عقوبة الله أن تتعرضوا لخلاف أمره و اعتزلت طائفة منهم ذات اليسار فسكتت فلم تعظمهم، فقالت للطائفة التي وعظتهم: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾^١، فقالت الطائفة التي وعظتهم: ﴿معدرة إلى ربكم و لعلهم يتقون﴾^٢ قال: فقال الله جل و عز: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾^٣ يعني لما تركوا ما وعظوا به مضوا على الخطيئة، فقالت الطائفة التي وعظتهم لا و الله لا نجتمعكم و لا نبايتكم الليلة في مدينتكم هذه التي عصيتم الله فيها مخافة أن ينزل بكم البلاء فيعمنا معكم، قال فخرجوا عنهم من المدينة مخافة أن يصيبهم البلاء

١ - الأعراف: ١٦٤.

٢ - الأعراف: ١٦٤.

٣ - الأنعام: ٤٤

فَنَزَلُوا قَرِيبًا مِّنَ الْمَدِينَةِ فَبَاتُوا تَحْتَ السَّمَاءِ فَلَمَّا أَصْبَحَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الْمُطِيعُونَ
لَأَمْرَ اللَّهِ غَدَوًا لِّيَنْظُرُوا مَا حَالَ أَهْلِ الْمُعْصِيَةِ، فَاتُوا بَابَ الْمَدِينَةِ فَإِذَا هُوَ
مُصَمَّتٌ، فَدَقُّوه فَلَمْ يَجَابُوا وَ لَمْ يَسْمَعُوا مِنْهَا خَبَرَ وَاحِدٍ فَوَضَعُوا سَلْمًا عَلَى
سُورِ الْمَدِينَةِ ثُمَّ أَصْعَدُوا رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ فَنَظَرَ فَإِذَا هُوَ بِالْقَوْمِ
قَرْدَةً يَتَعَاوُونَ، فَقَالَ الرَّجُلُ لِأَصْحَابِهِ: يَا قَوْمِ أَرَى وَاللَّهِ عَجَبًا، قَالُوا: وَمَا
تَرَى؟ قَالَ: أَرَى الْقَوْمَ قَدْ صَارُوا قَرْدَةً يَتَعَاوُونَ وَ لَهَا أذْنَابٌ، فَكَسَرُوا الْبَابَ
قَالَ: فَعَرَفَتِ الْقَرْدَةُ أَنْسَابَهَا مِنَ الْإِنْسِ وَ لَمْ تَعْرِفِ الْإِنْسُ أَنْسَابَهَا مِنَ الْقَرْدَةِ،
فَقَالَ الْقَوْمُ لِلْقَرْدَةِ: أَلَمْ نَنْهَكُمْ؟ فَقَالَ عَلِيُّ ؑ: وَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَ بَرَأَ
النَّسْمَةَ إِنِّي لَأَعْرِفُ أَنْسَابَهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَنْكُرُونَ وَ لَا يَغْيِرُونَ بَلْ تَرَكُوا مَا
أَمَرُوا بِهِ فَتَفَرَّقُوا وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^١، فَقَالَ
اللَّهُ: ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ -
أَي شَدِيدٍ - بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^٢،^٣ ٤.

تصنّف الآيات الكريمة مواقف الناس من النهي عن المنكر إلى ثلاثة ذكرها
الشيخ الصدوق فيما رواه بسنده عن الإمام الباقر ؑ قال: «كَانُوا ثَلَاثَةً

١ - قال تعالى في الآية التالية: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قَرْدَةً خَاسِئِينَ﴾

[الأعراف: ١٦٦].

٢ - المؤمنون: ٤١.

٣ - الأعراف: ١٦٥.

٤ - تفسير القمي: ج ١؛ ص ٢٤٤.

﴿٢١٨﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

أَصْنَافٌ صُنْفٌ ائْتَمَرُوا وَ أَمَرُوا فَ نَجَوْا وَ صُنْفٌ ائْتَمَرُوا وَ لَمْ يَأْمُرُوا فَ مَسَخُوا
ذَرًّا^١ وَ صُنْفٌ لَمْ يَأْتَمَرُوا وَ لَمْ يَأْمُرُوا فَ هَلَكُوا^٢، ومسخوا قرده وخنازير (في
الآية ٦٠ من سورة المائدة) لأنهم لا يستحقون صفة الإنسانية، وروى مثلها
في روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام.

أقول: وأضاف الطبرسي في مجمع البيان « أَنَّهُ هَلَكَتِ الْفِرْقَتَانِ، وَ نَجَتِ الْفِرْقَةُ
النَّاهِيَةُ، وَبِهِ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، رَوَى ذَلِكَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام »^٣، فالذين لم
يفعلوا المنكر لكنهم سكتوا ولم ينهوا عنه كانوا من الظالمين أيضاً وعوقبوا
لأنهم بدلاً من أن يتوجهوا بالإنكار إلى العاصين، توجهوا باللوم والتقريع
إلى الواعظين.

وفي الآية دلالة واضحة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن
الآية صرحت بنجاة الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر فقط ووصفت
الصنفين الآخرين بالظالمين واستحقاقهم العقاب، ولو لم تكن هذه الوظيفة
واجبة لما استحق الصنف الثاني القاعد عن أداء الفريضة الذين ائتمروا ولم
يأمروا العذاب.

١ - الذر: النمل الصغار أو الصغير التي لا تكاد ترى وكذا ذرات التراب وأمثالها، وفي تفسير العياشي
؛ ج ٢ ؛ ص ٣٥ بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام وفيه «قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: مَا صَنَعَ بِالَّذِينَ
أَقَامُوا وَلَمْ يَقَارِفُوا الذُّنُوبَ؟ فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: بَلَّغْنِي أَنَّهُمْ صَارُوا ذَرًّا».

٢ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٨ ؛ ص ١٥٨.

٣ - مجمع البيان في تفسير القرآن ؛ ج ٤ ؛ ص ٧٥٨.

لذا كان ابن عباس يبكي لثقل هذه المسؤولية، روى في الدر المنثور بسنده عن عكرمة قال: «جئتُ ابنَ عباسٍ يوماً وهو يبكي، وإذا المصحفُ في حجره، فقلتُ: ما يبكيك يا ابنَ عباسٍ؟ فقال: هذه الورقاتُ، وإذا في سورة الأعرافِ، ثم ذكر هذه الآيات وفسرها إلى أن قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، لا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها!».

ويظهر من الآية أن هذا الصنف التارك لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم الذين قالوا: ﴿لَمْ تَعْظُونَنَا قَوْمًا﴾ لأنهم بحسب الظاهر غير الواعظ وغير المنهي فيتعين بهم.

ويظهر منها أيضاً أنهم محسوبون على المؤمنين الملتزمين بالشريعة ظاهراً، وربما يظهر من لحن كلامهم أنهم كارهون لفعل المنكر، مبررين سكوتهم بأنه لم يكن عن معصية لوجوب هذه الفريضة وإنما ليأسهم من صلاح العصاة، لكن عذرهم هذا لم يكن مقبولاً لأن سكوتهم عن ردع المعتدين لا ينم عن وجود غضب الله تبارك وتعالى، وإنما كان لإسكات ضميرهم إذ الواجب عليهم أن يؤدوا وظيفتهم أما النتائج فهي بيد الله تبارك وتعالى.

وفي تفسير الإمام العسكري عليه السلام عن الإمام السجاد عليه السلام من حديث «وذلك أن طائفة منهم وعظومهم وزجروهم، ومن عذاب الله خوفهم، ومن انتقامه

وَشَدِيدٌ بِأَسِهِ حَذَرُوهُمْ، فَأَجَابُوهُمْ عَنْ وَعْظِهِمْ ﴿لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ
مُهْلِكُهُمْ﴾^١ بِذُنُوبِهِمْ هَلَاكَ الْأَصْطِلَامِ ﴿أَوْ مَعَذِبِهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾^٢ فَأَجَابُوا
الْقَائِلِينَ لَهُمْ هَذَا: ﴿مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾^٣ إِذْ كَلَّفْنَا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ
الْمُنْكَرِ، فَنَحْنُ نَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ لِيَعْلَمَ رَبُّنَا مَخَالَفَتَنَا لَهُمْ، وَكَرَاهَتَنَا لِفَعْلِهِمْ.
قَالُوا: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^٤ وَنَعْظُهُمْ أَيْضًا لَعَلَّهُمْ تَنْجَعُ فِيهِمُ الْمَوَاعِظُ، فَيَتَّقُوا
هَذِهِ الْمَوْبِقَةَ، وَيَحْذَرُوا عِقَابَهَا﴾^٥.

قال السيد الطباطبائي قدس سره: (و في الآية دلالة على أن الناجين كانوا هم
الناهين عن السوء فقط، وقد أخذ الله الباقيين، وهم الذين يعدون في السبت
والذين قالوا: ﴿لَمْ تَعْظُونَ﴾ إلخ، وفيه دلالة على أن اللائمين كانوا مشاركين
للعادين في ظلمهم وفسقهم حيث تركوا عظمتهم ولم يهجرهم. وفي الآية
دلالة على سنة إلهية عامة، وهي أن عدم ردع الظالمين عن ظلمهم بمنع،
وعظة إن لم يمكن المنع أو هجره إن لم تمكن العظة أو بطل تأثيرها، مشاركة

١ - الأعراف : ١٦٤.

٢ - الأعراف : ١٦٤.

٣ - الأعراف : ١٦٤.

٤ - الأنعام : ٦٩.

٥ - التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام : ص ٢٦٩.

معهم في ظلمهم، وأن الأخذ الإلهي الشديد كما يرصد الظالمين كذلك يرصد مشاركيهم في ظلمهم)¹.

أقول: ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى في سورة العصر: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ فلا يكفي لخروج الإنسان من حالة الخسر أن يكون صالحاً في نفسه بالإيمان والعمل الصالح، بل لا بد أن يكون إنساناً مصلحاً للمجتمع وفاعلاً في عملية التغيير بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر².

وقال قُتَيْبٌ: (و في قولهم: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ حيث أضافوا الرب إلى اللائمين و لم يقولوا: إلى ربنا إشارة إلى أن التكليف بالعظة ليس مختصاً بنا بل أنتم أيضاً مثلنا يجب عليكم أن تعظوهم لأن ربكم لمكان ربوبيته يجب أن يعتذر إليه، و يبذل الجهد في فراغ الذمة من تكاليفه و الوظائف التي أحالها إلى عباده، و أنتم مربوبون له كما نحن مربوبون فعليكم من التكاليف ما هو علينا)³.

أقول: هذه التفاتة لطيفة وهي تدل على أن الفئة الناجية شملت بوعظها أولئك الساكتين حين ذكروهم بوظيفتهم أمام ربهم، ومنه يعلم النظر في وصفه

١ - الميزان في تفسير القرآن ؛ ج ٨ ؛ ص ٢٩٥.

٢ - راجع القبس المتعلق بسورة العصر في تفسير من نور القرآن: ٣٠٣/٥، قيس ١٨٤.

٣ - الميزان في تفسير القرآن ؛ ج ٨ ؛ ص ٢٩٥.

﴿٢٢٢﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

(رضوان الله تعالى عليه) للأمة اللائمة بأنهم (كانوا أهل تقوى يجتنبون مخالفة الأمر إلا أنهم تركوا نهيمهم عن المنكر فخالطوهم وعاشروهم ولو كان هؤلاء اللائمون من المتعدين الفاسقين لو عظم أولئك الملمومون، ولم يجتنبوهم بمثل قولهم ﴿مَعْدِرَةٌ﴾).

أقول: يكفي قولهم: ﴿رَبِّكُمْ﴾ لو عظ هؤلاء اللائمين وتذكيرهم بحقوق الربوبية عليهم.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي صموا آذانهم عن سماع الموعدة ولم يعد لها أي تأثير فيهم حيث ﴿اسْتَحْذَرُوا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾.

وهنا يثار إشكال على استعمال لفظ: ﴿نَسُوا﴾ له تقريران: -

١- إن هؤلاء لم يكونوا ناسين بل كانوا ذاكرين وملتفتين إلى مغبة العمل.

٢- إذا كانوا ناسين فإن الناسي معذور ويقبح عقابه، فلماذا أخذوا بعذاب بئس.

ونكتفي في الجواب بما قاله السيد الطباطبائي قدس سره: (قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ) المراد بنسيانهم ما ذكروا انقطاع تأثير الذكر في نفوسهم و إن كانوا ذاكرين لنفس التذكر حقيقة فإنما الأخذ

الإلهي مسبب عن الاستهانة بأمره و الإعراض عن ذكره، بل حقيقة النسيان بحسب الطبع مانع عن فعلية التكليف و حلول العقوبة).

أقول: أي أنّ النسيان هنا بمعنى زوال أثر التذكير على النفس فكأنه منسي حيث ساوى وجوده عدمه فلحق بالنسيان في عدم التأثير، وإنما يحصل هذا بالتدرج كما في رواية مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال النبي صلى الله عليه وآله كَيْفَ بَكُمْ إِذَا فَسَدَ نَسَاؤُكُمْ وَ فَسَقَ شَبَابُكُمْ، وَ لَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ لَمْ تَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ؟! فَقِيلَ لَهُ: وَ يَكُونُ ذَلِكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ: نَعَمْ، وَ شَرٌّ مِنْ ذَلِكَ، كَيْفَ بَكُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالْمُنْكَرِ وَ نَهَيْتُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ» قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ يَكُونُ ذَلِكَ؟! قَالَ: نَعَمْ، وَ شَرٌّ مِنْ ذَلِكَ، كَيْفَ بَكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا؟!»!

وهذه المراحل من الانحطاط كما ينتكس إليها المجتمع كذلك يرتكس فيها الفرد، فإنه في بداية الأمر له فطرة وضمير يعرف به الحق والباطل والحسن والقبيح فيرتاح إذا فعل الأول ويؤنبه ضميره إذا فعل الثاني. لكنه بتزيين من الشيطان وضغط من النفس الأمارة بالسوء وعوامل أخرى يخالف هذا الضمير الداخلي من دون أن يصلح ما صدر منه ويعود إلى رشده، بل يتساهل فيه، وحينئذ ينتقل إلى المرحلة الثانية عندما تأخذه العزة بالإثم ويكابرو ويغالط

فيحاول إقناع نفسه بما فعل أو تبريره أو الهروب منه بارتكاب مزيد من الخطأ ومقارفة الخطيئة كمن يهرب من جريمته بشرب المسكر أو بجريمة أخرى ليتناسى جريمته الأولى. ثم تأتي المرحلة الثالثة عندما يسود قلبه ويموت ضميره ويَطَّبع على قلبه ويتحول إلى شيطان فيرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً.

وفي الآية الكريمة دلالات تنفع في الأبحاث الفقهية والأصولية، منها:

١- ردُّ ما قاله الفقهاء من اشتراط احتمال التأثير في المأمور لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الأمر، حيث لم تجعل الآية الكريمة اليأس عن التأثير عذراً فعوقب التاركون لها، فعلى المؤمنين الرسالين الغيورين على الدين والمجتمع أن لا يدخلهم اليأس والإحباط، وأن يستمروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن لم يجدوا استجابة لفائدتين ذكرتهما الآية:

أولهما: ﴿قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فهو على الأقل يكون معذراً لهم أمام الله تعالى، وفيه إتمام للحجة على الآخر، وفيه راحة للضمير وشعور بالإنسانية وأنه كائن حي متفاعل مع الأحداث ولا وجود لليأس في حياتهم لأن رسالتهم محاربة هذه الظواهر السلبية.

ثانيهما: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ إذ أن تكرار الموعظة ربما يؤثر ولو بعد حين على العاصي، لأن التكرار يفسد عليه لذته بفعل المنكر ويدفعه نحو التراجع

والمراجعة، أو يخلق أجواءً اجتماعية ضاغطة على المنكر، ومحفزة على المعروف، وإنَّ الأمل بالله تعالى موجود على أي حال وهو مدبّر الأمور، ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محسن سواء أثر أو لم يؤثر.

٢- عدم تمامية تعريفهم للواجب الكفائي - ومن مصاديقه هذه الفريضة - بأنه إذا قام به بعض سقط الوجوب عن الآخرين، فهنا قام الناجون بالواجب ووعظوا العاصين إلا أنه لم يسقط عن التاركين، فلا بد من إعادة النظر في بيان حقيقة الوجوب الكفائي وقد بحثناه مفصلاً في القسم الأول من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلنا هناك إن سقوط الوجوب يتحقق بزوال موضوعه، وما دام موضوعه قائماً فالوجوب مستمر والجميع معاقبون على تركه، فلا بد من حمل كفاية قيام البعض على هذا المعنى.

٣- إعادة النظر في ما يسمّى بالحيل الشرعية واستغلالها للالتفاف على الحكم الشرعي كما في الحادثة التي تعرضت لها الآية الكريمة فإن اليهود منعو من صيد السمك يوم السبت لأنهم أرادوا تعيين يوم في الأسبوع يتفرغون فيه للعبادة ويتوقفون فيه عن أعمالهم - والسبت يعني الانقطاع - عيداً لهم إلا أنهم احتالوا على الحكم بصنع أخاديد وحظائر من القصب على البحر يدخل إليها الماء

ويحتجزون فيها السمك يوم السبت ثم يصطادونه يوم الأحد
والمفروض أنه شكل من أشكال الصيد ويشمله حكم الحرمة، فلا
بد من التفريق بين مثل هذه الحيل وبين الرخص التي شرعها الله
تعالى لعباده رحمة وتيسيراً.

وقد حذر رسول الله ﷺ من إيجاد المبررات والمسوغات لعدم التناهي
عن المنكر فضلاً عن التحايل على فعله فقال ﷺ فيما روي عنه: «لا
ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»^١. وقال أمير
المؤمنين عليه السلام: «وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ وَ الْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ
فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالْبَيْدِ وَ السُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ وَ الرَّبَا بِالْبَيْعِ»^٢.

فالشريعة وكذلك القوانين التي تنظم حياة المجتمع لا يحميها ولا يضمن
تطبيقها كثرة الحراس والمراقبين والشرطة، وإنما التقوى والوازع الداخلي
والالتزام الأخلاقي المعبر عنه بالضمير، وهذا من الفروق المهمة بين المجتمع
القائم على أساس الإسلام وغيره من الأمم المادية.

ولنعرج على كربلاء بما روي عن الإمام السجاد عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى
مَسَخَ هَؤُلَاءِ لِاصْطِيَادِ السَّمَكِ فَكَيْفَ تَرَى عِنْدَ اللَّهِ عِزًّا وَ جَلًّا يَكُونُ حَالٌ مِنْ
قَتْلِ أَوْلَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَ هَتَكَ حَرِيمَهُ! إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَ إِنْ لَمْ يَمَسْخَهُمْ

١ - الدر المنثور: ٣ / ٥٩٢.

٢ - نهج البلاغة (للصبيحي صالح)؛ ص ٢٢٠.

فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ المَعَدَّةَ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللّهِ فِي الآخِرَةِ أضعافِ عَذَابِ
المَسْخِ»^١.



سنة الافتتان



﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾

[البقرة : ١٩١]

سنة الافتتان

تقرّر الآية الكريمة واحدة من الحقائق القرآنية الاستراتيجية - كما يقال - التي ترتّب أولويات الحياة الانسانية وتنظم العلاقة مع الآخرين، وورد هذا المعنى بتعبير اخر في آية لاحقة، قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾!

الفتن^٢ في اللغة ادخال الذهب او الفضة في النار لتخليصه من الشوائب وتمييز الجيد من الرديء ومنه نقلت الى معنى تعريض الانسان الى الاختبار والابتلاء والتمحيص بالإغراءات او بالمكارة والآلام لتمييز المحسن من المسيء، قال تعالى: ﴿وَنَبَلِّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾^٣، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^٤ باعتبار أنّها ادوات واسباب للاختبار والتمحيص،

١ - البقرة: ٢١٧.

٢ - تاج العروس للزبيدي: ٤٢٥/١٨.

٣ - الأنبياء: ٣٥.

٤ - التغابن: ١٥.

﴿٢٣٢﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

وقال تعالى: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^١
اي لا يختبرون حتى يتميز الخبيث من الطيب، روي عن الإمام الكاظم عليه السلام
في تفسيرها قوله: «يُفْتَنُونَ كَمَا يُفْتَنُ الذَّهَبُ ثُمَّ قَالَ يَخْلَصُونَ كَمَا يَخْلَصُ
الذَّهَبُ»^٢.

هذا هو معنى الفتنة اذا نسبت الى فعل الله تعالى فتكون من السنن الإلهية
الجارية في عباده، وقد وردت الفتنة بمعنى مذموم في آيات اخرى، ولدى
الاستقراء تبين ان هذا المعنى يرد اذا نسبت الفتنة الى العباد فيراد بها
التعريض لضغوط الإغراء او الإكراه طلباً لتحقيق النتيجة الشريفة والخبيثة
من الإبتلاء كما في الآيتين محل البحث وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا
الْمُؤْمِنِينَ﴾^٣، وقوله تعالى: ﴿وَاحْذَرَهُمْ أُنْ يَفْتِنُوكَ﴾^٤، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ
كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾^٥ وذلك بتدبير الحيل والمكائد لك وممارسة الضغوط
والاغراءات عليك لصرفك عما انت عليه من الحق.

وعلى هذا يكون معنى الآية ان الفتنة بمعنى الإضلال والإبعاد عن الدين
وايقاع الفرد في الفساد والانحراف هو اشد وأكبر من ازهاق روحه، او قل

١ - العنكبوت: ١-٢.

٢ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ١ ؛ ص ٣٧٠.

٣ - البروج: ١٠.

٤ - المائدة: ٤٩.

٥ - الاسراء: ٧٣.

ان القتل المعنوي للإنسان بسلب دينه الذي هو سبب نعيمه في الحياة الخالدة الدائمة، هو اشد خطراً وأكبر جرماً من سلب حياته المادية وفنائه الجسدي، وإقامة الشهادة على هذه الحقيقة كان القتل من أجل دفع الفتنة والضلال وحماية الدين والمجتمع منها أقدس مراتب القتل وأفضلها.

ويترتب على هذا أن من يفتن الناس عن دينهم بأي شكل مما سنشير اليه يجب دفعه بشتى الوسائل كالذي يهدد حياة الناس بل الأول احرى وان لم يشهر سلاحاً، ولعل هذا هو المسوغ الوحيد للقتال في الاسلام بحسب ما يفيدته القرآن الكريم، وبقية الاسباب والمسوغات ترجع اليه، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^١، وفي اية اخرى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾^٢، وهذه نتيجة مهمة تزيل الكثير من الشبهات حول انتشار الاسلام بالسيف ونحو ذلك، لكنها تحتاج الى تفصيل من البحث^٣ في مناسبة اخرى ان شاء الله.

وقد جاء هذا المقطع من الآية جواباً للمشركين الذين استغربوا من قتال المسلمين في الشهر الحرام او في الارض الحرام بانكم - أيها المشركون - ارتكبتم فيها ما هو اعظم من القتل والقتال بأفعالكم الوحشية المحمومة

١ - البقرة: ١٩٣.

٢ - الأنفال: ٣٩.

٣ - راجع كتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) من موسوعة فقه الخلاف: القسم الثاني.

لإخراج الناس من دينهم واعدتهم الى الجاهلية، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾^١.

وفي بعض الروايات أن الفتنة بمنزلة الكفر، ففي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «وَأِنَّمَا سُمِّيَ الْكُفْرُ فِتْنَةً لِأَنَّ الْكُفْرَ يُوْدِي إِلَى الْهَلَاكِ كَمَا تُوْدِي الْفِتْنَةُ إِلَى الْهَلَاكِ»^٢.

ولا فرق في تحقق هذه الفتنة بين أن تكون بالتهديد والايذاء المباشر، او بإقامة البيئة الفاسدة الضاغطة التي من شأنها أن تضلّ الناس عن دينهم وتبعدهم عن الصراط الالهي القويم بتوفير أسباب الفساد المؤثرة والاغراء وادوات التلويث الفكري والعقائدي في مناهج التعليم والثقافة والمعرفة او سنّ القوانين التي تشرعن للرديلة والظلم وتعيق نشر الفضيلة والصلاح.

وبناءً على هذه الحقيقة القرآنية فإن الذين ينشرون الفساد والرديلة في المجتمع ويشككون الناس في عقائدهم الحقّة ويدعونهم الى الالحاد والانحلال الخلقي ونبذ الدين تحت مسميات عديدة منها قديمة كالدين افيون الشعوب والمضي على ما كان عليه الاباء ﴿أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبُرُوا عَلَيَّ

١ - البقرة: ٢١٧.

٢ - التبيان في تفسير القرآن؛ ج ٢؛ ص ١٤٧.

أَلِهَتَكُمْ ^١ او حديثه تحت عناوين متعددة معروفة لا يقلون خطراً واجراماً عن الجماعات الارهابية الذين ينشرون القتل والخراب في كل مكان، بل ان الجماعة الأولى اكثر اجراماً من الثانية لان القتل المعنوي بحسب هذه الحقيقة القرآنية اعظم في الواقع من القتل المادي.

وفي مقابل ذلك فإن من يحيي وظيفة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقيم الدين في المجتمع امثالاً لقوله تعالى ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ ^٢ وينصح الناس ويرشدهم ويقوي عقائدهم، ويدفع عنهم الشبهات والأباطيل التي يبثها اعداء الله ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور، ويهدونهم الى الحياة الباقية هم أعظم اجراً ومنزلة عند الله من المجاهدين المقاتلين الذين يضحون بدمائهم من اجل حماية ارواح الناس وحفظ حياتهم المادية.

وفي ضوء هذه الحقيقة نفهم الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَمَعَ اللَّهُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَوَضَعَتِ الْمَوَازِينُ فَيُوزَنُ دِمَاءُ الشُّهَدَاءِ مَعَ مِدَادِ الْعُلَمَاءِ فَيُرْجَحُ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ عَلَى دِمَاءِ الشُّهَدَاءِ» ^٣.

١ - ص:٦.

٢ - الشورى:١٣.

٣ - عدة الداعي و نجاح الساعي ؛ ص٧٧.

وليس المراد مطلق المداد والحبر على الورق ما لم يكن علماً ينتفع الناس به ولا يكتفي صاحبه بحمله بل يعمل به وينشره بين الناس ويدعوهم اليه حتى يهتدوا به.

وتوجد كلمة قيمة للإمام الحسين عليه السلام مستفادة من هذه الآية تحث على العمل الاجتماعي وتعطيه أعلى قيمة، قال عليه السلام لرجل: «أَيُّهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ رَجُلٌ يَرُومُ قَتْلَ مُسْكِينٍ قَدْ ضَعَفَ، تَنْقُذَهُ مِنْ يَدِهِ أَوْ نَاصِبٌ يَرِيدُ إِضْلَالَ مُسْكِينٍ مِنْ ضِعْفَاءٍ شِيعَتِنَا تَفْتَحُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِعُ بِهِ مِنْهُ - وَ يَفْحَمُهُ وَ يَكْسِرُهُ بِحُجَجِ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ عليه السلام: بَلْ إِنْقَازَ هَذَا الْمُسْكِينِ الْمُؤْمِنِ مِنْ يَدِ هَذَا النَّاصِبِ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^١ وَ مَنْ أَحْيَاهَا وَ أَرَشَدَهَا مِنْ كُفْرٍ إِلَى إِيْمَانٍ، فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا - مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْتُلَهُمْ بِسَيُوفِ الْحَدِيدِ»^٢.

فهذا جواب وإلقاء المعلومة بصيغة السؤال (ايهما احب اليك) اي ليكن هذا الامر احب اليك من الآخر وانما عرضها عليه السلام بصيغة السؤال ليشترك المتلقي معه في صنع المعلومة والتفكير فيها والاستعداد اكثر لتقبلها، والقها بهذا التعبير الوجداني (أحب) لان القناعة العقلية بكون الفتنة عن الدين اشد من القتل حاصلة من الآيتين الكريمتين فالقناعة بهذه الحقيقة كاملة وانما انتقل

١ - المائة : ٣٢.

٢ - التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام : ص ٣٤٨.

الإمام الحسين عليه السلام الى مرحلة العمل بان يكون تعلقك بإنقاذ المجتمع من الجهل والشبهات والفتن وتعليمهم العقائد واحكام الدين والاخلاق الفاضلة اكثر من اهتمامك باي شيء اخر مهما كان مهماً كإنقاذ انسان مستضعف من القتل.

اما لماذا كانت الفتنة عن الدين اشد وأكبر من القتل، فيمكن الاجابة عنه بوجوه:

١- ان الدين وعبادة الله تبارك وتعالى أقدس شيء في هذا الوجود وهو غاية خلق الانسان والهدف من وجوده، لذا يرخص كل شيء من أجل الاحتفاظ بهذا الحق المقدس، فقد ضحى أكرم الخلق من الانبياء والمرسلين والائمة (صلوات الله عليهم أجمعين) ومن تبعهم من الصالحين بأرواحهم وأعز ما عندهم في سبيل اقامة الدين، واثمن تضحية ما نعيش ذكرها هذه الايام وهي تضحية الإمام الحسين عليه السلام.

اذن فالعدوان على الدين ومنع الانسان من ممارسة حقه فيه هو اشد من اي اعتداء اخر سواء على الجسد بالقتل او غيره.

٢- ان جهاد النفس الأمارة بالسوء ومعركة السيطرة على غرائزها وشهواتها وانفعالاتها اشد وأكبر من جهاد العدو بالقتل والقتال حتى سمي الأول الجهاد

الأكبر والثاني الجهاد الأصغر، فالخسارة في الجهاد الأول وهو الأكبر أشد وأخطر من الخسارة في الجهاد الثاني بالقتل.

٣- إنَّ الفتنة بلاء وامتحان دائم ومستمر ولا يمكن تجنبه فتحقيق الانتصار فيه عسير وشديد، أما القتل فهي حالة قليلة الحدوث ويمكن تجنب أسبابه فالأول أشد وأكبر من الثاني.

٤- إنَّ القتل ينهي حياة الإنسان المادية في هذه الدنيا وهي زائلة وفانية ولو لم يقتل فإنه يموت، بينما الفتنة تكون سبباً لشقائه في الحياة الآخرة الدائمة، وإنما تكتسب الحياة الدنيا قيمتها بمقدار تحقيقها لتنتج طيبة في الآخرة، فإعدام الحياة الدائمة أشدُّ وأكبر من إعدام الحياة الفانية.

٥- إنَّ القاتل يزهق روحاً واحدة، بينما المفتون عن دينه والمتجرد من خوف الله تعالى والمبادئ الإنسانية والملوث عقائدياً كالخوارج والتكفيريين يفتكون بالآلاف من البشر من دون أن يرفَّ لأحدهم جفن كما عبَّر بعض الطواغيت المعاصرين.

٦- إن القاتل ما كان ليقتل لولا أنه تخلى عن مبادئه الدينية قبل ذلك فالسبب الأصلي للقتل هي الفتنة عن الدين والانسلاخ عنه، ولو التزم بما يأمره به دينه لتورَّع عن القتل «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةٌ أَمْرِي»^١.

٧- لِإِنَّ خَطَرَ الْفِتْنَةِ خَفِيٌّ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ الْمَفْتُونُ غَالِبًا لِذَا فَأَنْذَهُ لَا يَتَّخِذُ الْإِجْرَاءَاتِ الْإِحْتِرَازِيَّةَ مِنْهُ، بَلْ قَدْ يَتَجَاوَبُ مَعَهَا لِأَنَّهَا تَوَافِقُ شَهْوَاتِهِ وَاهْوَاءَهُ، بَيْنَمَا خَطَرَ الْقَتْلِ بَيْنَ وَاضِحٍ يَخَافُ مِنْهُ وَيَحْتَرِزُ مِنْهُ.

٨- إِنَّ الْفِتْنَةَ تَعْمُ بِضَرَرِهَا مَسَاحَةً وَاسِعَةً وَلَا تَقْتَصِرُ عَلَى صَاحِبِهَا فَقَطْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^١ بَيْنَمَا الْقَتْلُ يَقَعُ عَلَى الْمَقْصُودِ خَاصَّةً.

٩- إِنَّ فِتْنَةَ الْإِنْسَانِ لِأَخِيهِ الْإِنْسَانِ شَرٌّ كُلُّهَا فَهِيَ مَذْمُومَةٌ أَمَّا الْقَتْلُ فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا لِحَيَاةِ الْأُمَّةِ وَنَجَاتِهَا وَصَلَاحِهَا كَاسْتِشْهَادِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَمِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الْوُجُوهِ يَتَبَيَّنُ مَعْنَى كَوْنِ الْفِتْنَةِ أَشَدَّ مِنَ الْقَتْلِ، وَإِنْ دَفَعَهَا لَا يَقِلُّ وَجُوبًا عَنْ دَفْعِهِ، لِذَلِكَ نَبَهْنَا دَائِمًا وَمَعْنَا حُكَمَاءَ الْقَوْمِ إِلَى أَنْ الْقَضَاءَ عَلَى الْإِرْهَابِ يَتَطَلَّبُ أَوَّلًا تَجْفِيفَ مَنَابِعِهِ الْفِكْرِيَّةِ التَّكْفِيرِيَّةِ، وَالْأَمَّا الْفَائِدَةُ مِنْ قَتْلِ أَفْرَادٍ مِنْهُمْ مَهْمَا كَثُرَ عَدَدُهُمْ مَا دَامَتِ الْبَيْئَةُ وَالْحَاضِنَةُ الَّتِي تَفَرِّخُهُمْ مَوْجُودَةً.

فَالْإِمَامُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَمَارِسُ دَوْرَهُ فِي إِمَامَةِ الْأُمَّةِ وَهَدَايَتِهَا يَرشِدُنَا إِلَى أَهْمِيَّةِ الْعَمَلِ الدِّينِيِّ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالتَّحَرُّكِ بِرِسَالَةِ الْإِسْلَامِ فِي أَوْسَاطِ الْأُمَّةِ

ونشر تعاليم اهل البيت عليهم السلام والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وصيانة عقيدة المجتمع واخلاقه من الشبهات والانحرافات.

وإنّ هذا العمل هو من اهم الواجبات الدينية وأعظم المسؤوليات الملقاة على عاتقنا خصوصاً نحن الحوزة العلمية والمثقفين والكتّاب والمفكرين والاعلاميين؛ لأنّ انحراف العقيدة وتلوّث الغذاء الفكري الذي يتلقاه المجتمع خصوصاً الشباب هو الذي يحوِّله الى سرطان خبيث يسري في جسد الامة ويرى ان أقرب القربات الى الله تعالى قتل الابرياء وسبي وتهجير النساء والاطفال وتدمير المقدسات وتخريب الحياة كاللوثة التي اصابت عقول الخوارج فاستحلوا الحرمات وبقروا بطون الحوامل وقتلوا الاجنّة.

ويعلمنا الإمام الحسين عليه السلام ان تكون أدواتنا الحوار البناء المفعم بالحجج والادلة والدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ولا مكان للعنف والتكفير والغاء الاخر، ويدعونا الإمام عليه السلام الى اعتماد مبدأ (الوقاية خير من العلاج) وذلك بقوله عليه السلام: «**مَا يَمْتَنَعُ بِهِ**» اي لا تنتظر وقوع الشبهة لترفعها بل ان نسلح ابناؤنا بالفكر والعلم ليكونوا محصنين من اختراق الشبهات لهم ولو وقعت لسبب او لآخر فيجب العمل على رفعها قال عليه السلام: «**تَفْتَحُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنَعُ بِهِ وَ يَفْحَمُهُ وَ يَكْسِرُهُ بِحُجَجِ اللَّهِ تَعَالَى**».

وان تكون هذه الادلة رصينة وقوية وبنفس الوقت مفهومة وواضحة لتفتح بها النفس وينشرح لها الذهن قال عليه السلام: «**تَفْتَحُ عَلَيْهِ**» فإنها ادعى للطمأنينة

والاقناع كدليل القرآن على التوحيد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^١
وقول امير المؤمنين عليه السلام: «وَأَعْلَمُ يَا بَنِيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتَكَ
رَسُولُهُ»^٢ او ادلة كتاب (المراجعات) على الإمامة او بحث (كيف خطط رسول
الله صلى الله عليه وآله للإمامة من بعده).

ان فرص القيام بهذا الوظيفة الالهية العظيمة اليوم ونيل الدرجات الرفيعة عند
الله تعالى اوسع واكثر تأثيراً من اي زمان مضى للتقدم الهائل في تكنولوجيا
الاتصالات والتواصل، واصبح من في اقصى الشرق يسمع ويرى من في
اقصى الغرب مباشرة، والكلمة تصل الى انحاء المعمورة والى كل الناس في
آن واحد، وما علينا الا ان نشمر عن ساعد الجد ونوصل الليل بالنهار بالعمل
على بناء انفسنا اولاً اخلاقياً وعقائدياً وفكرياً ثم ننطلق بهذه الرسالة الى
المجتمع، لتتصف بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا
يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^٣.

ونلفت نظر الخطباء الاعزاء الذين يظهرون على شاشات التلفزيون او
المثقفين الذين ينشرون على مواقع التواصل الاجتماعي الى أن يكون
خطابهم عاماً شاملاً مؤثراً في كل التنوعات الانسانية وليس مقتصرأ على

١ - الأنبياء: ٢٢.

٢ - تحف العقول ؛ ص ٧٢.

٣ - الأحزاب: ٣٩.

﴿٢٤٢﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

الفئة او الشريحة التي ينتمي إليها او الموجودة أمامه، فاستحضر انك تخاطب
الموجودين في المغرب او الجزائر ومصر او في اليمن والخليج او الهند
وباكستان وروسيا واوربا وامريكا وغيرها من بقاع العالم.



سنة

فتح البركات مع الإيمان



﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ﴾

[الأعراف: ٩٦]

سُنَّةُ فَتْحِ الْبَرَكَاتِ مَعَ الْإِيمَانِ

سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ تَكْشِفُ عَنْهَا الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ، وَهِيَ أَنَّ النَّاسَ إِذَا آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِمَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَتَمَسَّكُوا بِتَعَالِيمِ الدِّينِ وَثَبَتُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَفْتَحُ لَهُمْ بَرَكَاتٍ مَادِيَّةً وَمَعْنَوِيَّةً مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَانَتْ مَغْلُقَةً عَلَيْهِمْ، وَالتَّعْبِيرُ بِالْجَمْعِ لِلإِشَارَةِ إِلَى تَنْوَعِ الْبَرَكَاتِ وَتَعَدُّدِهَا، هَذَا الْفَتْحُ الَّذِي قَالَ عَنْهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾^٢.

وهذه البركات خاصة غير النعم العامة التي يفيضها الله تعالى على جميع خلقه سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين، وبها يعيشون حياتهم ويتمتعون بها، وهي أيضاً غير النعم الذي يغدق الله تعالى بها على العاصين استدراجاً لهم

١- وهم أهل القرى الذين ارسل لهم الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين) المشار إليهم في قوله تعالى قبل آيتين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: ٩٤] والقرية الموضع الذي يجتمع فيه الناس.

﴿٢٤٦﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

ولقطع أعضائهم، فتكون وبالاً عليهم لأنها تكون سبباً في تماديهم وزيادة آثامهم، قال تعالى في الآية السابقة ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَّوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^١!

وقد وصفت الآية الكريمة هذه النعم المفتوحة بالبركات وهي الخيرات الخالصة الطيبة التي تكون سبباً لحياة أفضل للناس مع ما فيها من الاستمرارية والنماء، وليست هي كالحسنة التي ذكرتها الآية السابقة فإن الحسنة ما يوافق طبع الإنسان وليس بالضرورة أن تكون خيراً له بل قد تكون وبالاً عليه كما في الاستدراج.

ومثاله اليوم الأمم الغربية فإنهم بعد أن خاضوا حربين عالميتين أهلكت عشرات الملايين منهم ودمرت مدنهم، نشأ جيل في عافية ﴿حَتَّىٰ عَفَّوْا﴾^٢ ورغد من العيش وانهمرت عليه النعم، فأصبح همهم الانغماس في الشهوات والملذات بلا حدود حتى أصبح يشرعن الشذوذ الجنسي ويبيح قتل أجنّة الحوامل، ويستحلّ إبادة الشعوب المستضعفة لاستعبادهم، ويظهرون عراة أمام الملأ، ويعبثون بما أنعم الله تعالى عليهم من الثمرات، وهم يظنون أنهم قد عَفَّوْا^٢ مما ابتلي به آبائهم.

١ - الأعراف: ٩٥.

٢ - وهو معنى آخر لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَّوْا﴾.

سنة فتح البركات مع الإيمان.....﴿٢٤٧﴾

وحينئذ بدأت تظهر عليهم النتائج السيئة لأعمالهم القبيحة من انهيار أخلاقي، وتفكك اجتماعي، وانقراض النسل، وأمراض فتاكة وجفاف، وأزمات في الاقتصاد والغذاء والطاقة، وخوف وقلق من المستقبل المجهول المحفوف بالمخاطر، قال تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مَّهِينٌ﴾^١، وقال تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^٢، وهذا سيكون حتماً مصير الدول المستكبرة الظالمة.

وقد بدأت الآية بـ﴿وَلَوْ﴾ لحث وترغيب الأجيال الحاضرة والمستقبلية على الإيمان والتقوى، وأخذ العبرة من الأمم السابقة التي كانت عاقبتها قاسية لأن أغلب الناس لا يتعظون، ولا يعون هذه الحقيقة فيهلكون أنفسهم ومجتمعهم، واقرنت ﴿فَتَحْنَا﴾ باللام لتأكيد النتيجة، فالآية الكريمة لا تتحدث عن حالة الأمم السابقة وعاقبة تكذيبهم فقط، وإنما ترشد لسنة إلهية جرت فيهم وتجري في أمثالهم فتبشّر المؤمنين وتحذّر العصاة والكافرين؛ لأن الكون بكل أجزائه يسير في حركة منتظمة بحسب ما أراد الله تعالى، فمن انسجم معها من البشر تنعم بها، ومن خالفها شقي بها، مثلاً من أراد أن يخالف قانون الجاذبية ويرمي نفسه من شاهق فإن الأرض ستجذبه وتهشم عظامه.

١ - آل عمران: ١٧٨.

٢ - الأنعام: ٤٤.

ولأهمية التعرف على هذه السنة الإلهية فقد ورد التأكيد عليها في غير هذه الآية كقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾!

إذن إقامة الدين في حياة الناس وتمسكهم بالإيمان والعمل الصالح سبب أكيد للسعادة ورفاهية العيش في الدنيا، ونيل رضوان الله تعالى والنعيم في الآخرة، فالدين ليس أفعالاً عبادية يؤديها الإنسان بينه وبين الله تعالى بمعزل عن الواقع بل إنه قانون لتنظيم حياة الإنسان مع الكون كله.

لقد احتجّت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام على أصحاب أبيها بهذه الآية الكريمة رحمةً بهم وشفقة عليهم لأنها تعلم بأن ما يحصل في ذلك اليوم إيجاباً أو سلباً سيزلزل الأرض جميعاً ويرسم خارطة مستقبل البشرية جمعاء إلى قيام الساعة، فطالبتهم بالوفاء ببيعتهم لأمير المؤمنين عليه السلام التي أخذها رسول الله صلى الله عليه وآله منهم يوم غدیر خم، وأنهم إن التزموا بها فتح الله تعالى عليهم بركات من السماء والأرض، وحذرتهم من مغبة النكول والنكوص على الأعقاب، ومما قالت عليها السلام في حثهم على الوفاء ببيعة أمير المؤمنين عليه السلام: «وَلَأُورِدَهُمْ مِنْهَا نَمِيراً صَافِياً رَوِيّاً تَطْفَحُ ضَفَّتَاهُ - لغزارته - وَ

لَا يَتَرَنَّكَ جَانِبَاهُ - فَإِنَّهُ نَقِي حَتَّى فِي جَوَانِبِهِ خِلَافًا لِأَنْهَارِ الدُّنْيَا - وَ لَأَصْدَرَهُمْ
بَطَانًا - أَي شِبَعِي - وَ نَصَحَ لَهُمْ سِرًّا وَ إِعْلَانًا وَ لَمْ يَكُنْ يَتَحَلَّى مِنَ الدُّنْيَا
بَطَائِلَ وَ لَا يَحْظَى مِنْهَا بِنَائِلٍ غَيْرَ رِيِّ النَّاهِلِ وَ شَبَعَةَ الْكَافِلِ - فَكَافِلِ الْعِيَالِ
يُؤْثِرُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ - وَ لَبَانَ لَهُمُ الزَّاهِدُ مِنَ الرَّغْبِ وَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ^١
ثُمَّ تَلَّتِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ
مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^٢.

وهي عليها السلام لم تدعهم إلى علي عليه السلام الشخص فقط وإنما دعتهم إلى التمسك
بعلي عليه السلام المشروع الذي أسسه النبي صلى الله عليه وآله، وهو الإسلام النقي كما أنزل
من الله تبارك وتعالى، وتعاقب على تمثيله أبناؤه المعصومون البررة عليهم السلام،
ومن بعدهم مراجع الدين العظام.

فعلينا أن نستجيب لدعوة السيدة الزهراء عليها السلام ونعمل على إقامة دين الله تعالى
وهداية الناس إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة وإصلاح أحوالهم، وأن نبداً من
داخل أسرتنا أولاً وننتقل إلى المجتمع، وأن نستثمر كل الوسائل المتاحة
خصوصاً ما كانت منها واسعة الانتشار وبالغة التأثير ولا تعيقها حدود
الجغرافيا، وحينئذ ستحظى الأسرة والمجتمع بانفتاح هذه البركات التي لم
تذكرها الآية لكنها تُعرف من الآيات الأخرى والروايات الشريفة، كحالة

١- الإحتجاج على أهل اللجاج (للطبرسي)؛ ج ١؛ ص ١٠٩.

٢- الأعراف: ٩٦.

الاطمئنان والسكينة وزوال الخوف والقلق الذي ينكّد حياة البشر اليوم
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^١
﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^٢ وينعمون بحياة هنيئة
سعيدة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^٣.

ولا بد أنه سيأتي اليوم الذي تسعد فيه البشرية بإقامة دين الله تعالى وهيمنته
على كافة الأنظمة والأيدولوجيات البشرية، وحينئذٍ تنفتح البركات على نحو
غير متصور مما أسهبت الروايات في ذكرها، ووصف الحياة الطيبة والرغيدة
والمرفهة التي يعيشها الناس في ظل الدولة المباركة بقيادة الإمام المهدي
الموعود (صلوات الله وسلامه عليه).

اسأل الله تعالى أن يتقبل منا ومنكم هذه النصره، ويجعلها بلسماً لجروح
فاطمة الزهراء عليها السلام العميقة، والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين.

١ - الرعد: ٢٨.

٢ - يونس: ٦٢.

٣ - النحل: ٩٧.



سنة إعمار الحياة



﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

[هود : ٦١]

سُنَّةُ الْإِسْلَامِ وَإِعْمَارُ الْحَيَاةِ

في معنى إستعمار الأرض:

هذه الفقرة من الآية تبين واحدة من قواعد الرؤية القرآنية لدور الانسان في الحياة وعلاقته بما حوله، فتكون أساساً ومنطلقاً لسلوكه وبرنامجه في الحياة.

(استعمر) على صيغة استفعل والمعروف في معناها انها طلب الفعل كقولك (استخرج) أي طلب الإخراج، ويمكن ان يكون لها عدة معان اخرى، فتأتي بمعنى الفعل الثلاثي المجرد نحو (استقرّ) أي قرّ، وغير ذلك. فيكون معنى الآية أن الله تعالى خلقكم من الأرض واستعمركم فيها أي طلب منكم اعمارها وفوض اليكم أمر إصلاحها والانتفاع بها، أو أنه تعالى عمركم فيها أي جعل لكم أعماراً مديدة فيها لأن إعمار الأرض يحتاج الى عمر مديد، ولو كانت الأعمار قصاراً لما استطعنا إنجاز شيء، ويمكن أن يكون ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ بمعنى أنه تعالى اعطاكم قدرات وجعلكم بوضع تقدرون فيه على الإعمار.

والعمارة نقيض الخراب، وهي تعني جعل الشيء واستعماله على النحو الذي ينتفع به ويحقق الغرض منه، وهي لكل شيء بما يناسبه من ذلك، «فَالْعِمَارَةُ تَحْوِيلُ الْأَرْضِ إِلَى حَالٍ تَصْلُحُ بِهَا أَنْ يَنْتَفَعَ مِنْ فَوَائِدِهَا الْمَتْرَقِبَةِ مِنْهَا، كَعِمَارَةِ الدَّارِ لِلسُّكْنَى، وَالْمَسْجِدِ لِلْعِبَادَةِ، وَالزَّرْعِ لِلْحَرْثِ، وَالْحَدِيقَةِ لِاجْتِنَاءِ فَاكْهَتِهَا وَالتَّنْزَهُ فِيهَا. وَالاسْتِعْمَارُ هُوَ طَلْبُ الْعِمَارَةِ، بَأَنْ يُطَلَبَ مِنَ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْعَلَ الْأَرْضَ عَامِرَةً تَصْلُحُ لَأَنْ يَنْتَفَعَ بِمَا يُطَلَبُ مِنْ فَوَائِدِهَا»^١.

إعمار الأرض:

ولأن الغرض من وجودنا على هذه الأرض إعمارها فان وظيفة كل فرد هو اعمار واصلاح ما يقع في دائرة مسؤوليته، فرب الأسرة يعمر أسرته ومدير المدرسة يعمر طلابه، والقائد يعمر اتباعه ومريديه وهكذا القائد السياسي، لذا جعل امير المؤمنين عليه السلام من الوظائف المهمة للحاكم عمارة الأرض، قال عليه السلام في عهده الذي كتبه لمالك الأشتر لمّا ولاه مصر: «وَلْيَكُنْ نَظْرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظْرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ لَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَدْرُكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ وَ مَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بَغَيْرِ عِمَارَةِ أَخْرَبَ الْبِلَادَ وَ أَهْلَكَ الْعِبَادَ وَ لَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا، وَقَالَ عليه السلام: وَ لَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفَتْ بِهِ الْمَوْنَةُ عَنْهُمْ فَإِنَّهُ ذَخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ وَ تَزْيِينِ وِلَايَتِكَ»^٢.

١- الميزان في تفسير القرآن ؛ ج ١٠ ؛ ص ٣١٠.

٢- نهج البلاغة (للصبيحي صالح) ؛ ص ٤٣٦.

ملاحظات وتفسيرات:

ويمكن ملاحظة عدة امور في الآية:

١- إن الله تعالى يذكّر عباده بنعمه العظيمة عليهم وذلك لأنه خلقهم من نفس هذه الأرض مباشرة -كخَلَقَهُ لَادَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ- أو انه خلق الانسان من نفس عناصر الأرض ومكوناتها وغذائها ومع ذلك فانه أعطاهم هذا التكريم العظيم وفضلهم على مخلوقاته ومكّنهم من هذه الأرض ليعمروها واستخلفهم عليها كجنس بشري أو كأفراد باعتبار أنهم يخلفون من سبقهم في التملك والاستيلاء والاعمار.

٢- وفي الآية بيان لحقيقة اعتقادية وزجرٌ وتوبيخٌ وردعٌ للذين تركوا عبادة الله تعالى وأطاعوا أهواءهم وزين لهم الشياطين عبادة آلهة وهمية من دون الله تعالى، فيلفت نظرهم الى أن فعلهم مثيرٌ للسخرية حين مكّنهم الله تعالى من الأرض واستعمرهم فيها والآية تفيد الحصر بـ(هو) أي أنه تعالى وحده الذي أنشاءكم وهياكم لأن تتفعلوا بهذه الأرض بما ينفعكم في حياتكم وتحتاجون اليه ولا تحتاجون الى غيره تعالى، لكن المؤسف أن هؤلاء البشر يتسافلون ويجعلون مما صنعت ايديهم آلهةً يعبدونها، ويعتبرونها اربابا تدبر شؤونهم من الرزق والحياة والضر والنفع باعتبار انهم لا يناقشون حقيقة ان الله تعالى هو الخالق ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ

اللَّهُ ^١ لكنهم يعتقدون أنه سبحانه فوض تدير شؤون الكون الى اولئك الارباب الوهميين، فالآية تدعوهم الى ان يثوبوا لرشدهم لان تلك الارباب لو كانت مدبرة لشؤونكم لكان لها دور في تهيئة مستلزمات الحياة في الارض والسماء والهواء والشمس وكل شيء، وانتم تعترفون بانها لا يد لها في ذلك كله لذا جاء بعد هذه الفقرة من الآية مباشرة الأمر بالاستغفار والتوبة من هذه الاوهام والخيالات الفاسدة.

٣- إن الله تعالى فوض أمر إعمار الأرض الى الانسان وهياً له الوسائل والظروف التي تعينه على ذلك وطلب أن يفكر ويبحث ويسعى ويتتج، وبدون ذلك لا يحصل إعمار ولا يستفيد من منابع الرفاه والسعادة الموجودة في هذه الأرض ويكون من الخاسرين، فلا اتكالية ولا تقاعس ولا كسل وإنما لابد من العمل والله تعالى يبارك فيه ويؤتي ثماره بلطفه.

٤- بما أن الإنسان مأمور بان يتخلّق بأخلاق الله تعالى ^٢ كما في الحديث الشريف وفي الآية الكريمة ﴿**وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى**﴾ ^٣ ونحن مأمورون

١ - لقمان: ٢٥.

٢- ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ» [بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ٥٨ ؛ ص ١٢٩].

٣ - النحل: ٦٠.

بأن نقيم الدين والسنن الإلهية وهذا يوجب علينا أن نعطي الفرصة الكاملة لكل فرد أو مؤسسة أو مجتمع ونهيئ الأسباب والإمكانات لكي يعمروا الأرض بالحياة ويتنفعوا من الخيرات المتاحة لهم على كل الأصعدة سواء على الصعيد العلمي أو الإقتصادي أو السياسي أو الديني أو الإجتماعي وغير ذلك، بالتصويت لهم اذا توقفت المسألة على الانتخاب، او بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب بالتعيين او بتقديم الدعم المادي والمعنوي لأي مشروع مثمر او فكرة مفيدة او مؤسسة نافعة ونحو ذلك.

٥- إن الإستعمار مصطلح قرآني مثمر وإيجابي ويغني الحياة بالخير، لكن الدول المستكبرة اختطفته وحوّلتها الى معنى معاكس يتضمن القتل والتدمير والخراب والاستحواذ على ثروات الشعوب وتجويعهم والاستيلاء على زمام الامور في بلدانهم، ككثير من المصطلحات التي شوهوها كالحريّة التي تعني الانعتاق من اغلال الاهواء والشهوات والتعصّب والعبودية الخالصة لله تعالى فأصبحت تعني عندهم الانفلات من كل الضوابط الأخلاقية أو السياسة التي تعني رعاية مصالح البلاد والعباد وصلاح امورهم ونصف أئمتنا عليهم السلام بها كما ورد في الزيارة «يَا سَاسَةَ الْعِبَادِ» وهكذا، لكنهم وظّفوها لمآربهم الخبيثة المعادية للإنسانية.

ولابد من الإلتفات الى الجوانب المعنوية للإعمار لأن الله تعالى أنشأ لنا هذه الأبدان لتكون وسيلة لتكامل النفس والعقل وسمو الروح، فالبدن هو أرض النفس الذي أنشأه الله تعالى لإعمارها بطاعة الله تعالى وعلى هذا فان إعمار الأرض لابد أن يكون مقترنا بنية التقرب الى الله تعالى لأن الإعمار الحقيقي هو ملئ القلب بحب الله تعالى وذكره وتحلية النفس بالفضائل وتهذيبها من الرذائل والأغلال والآصار، فالأمر بالإعمار إنما يراد منه تهيئة أسباب الطاعة والتمكين منها. أذ كلما كانت الأسباب المساعدة على الطاعة متوفرة كان إقبال النفس عليها أكثر فعوالم الإنسان مترابطة، كما قيل في المثل المشهور: (العقل السليم في الجسم السليم). وكما أن الأرض مستودع لكثير من الخيرات وعلى الانسان ان يستصلحها ويستعمرها ليستخرجها، فكذلك طاقات الانسان لا حدود لها لو احسن تفجيرها، وتشهد وقائع كثيرة بذلك كقلع امير المؤمنين عليه السلام لباب خيبر التي عجز اربعون شخصا عن حملها، وخذ مثالا قريبا من مسيرة الموالين لأهل البيت عليهم السلام حين يقطعون مسافة اكثر من ٥٠٠ كيلومتراً مشياً في ظروف جوية قاسية وتهديدات ارهابية جديّة من دون اصطحاب طعام او فراش، فحبهم للحسين عليه السلام وولاؤهم للنبي صلى الله عليه وآله واله فجر طاقات يجدونها مستحيلة التحقق في غير هذا الحافز، وكسير بعض الاخوة ٢٠٠٠ كيلومتراً من الإمامين الكاظمين عليهما السلام الى مشهد الإمام

الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ في ارض مجهولة لهم وظروف جوية صعبة ويمرّون بمناطق فيها وحوش مفترسة.

٦- إن الله تعالى خلقنا من الأرض، فالأرض سابقة بوجودها علينا، وقد سخّرها الله تبارك وتعالى لنفعنا ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^١ فنعم الله تعالى سابقة على وجودنا وهو جلّت آلؤه المبتدئ بالفضل وبالنعم، والدرس الذي نستفيده هو أن نبادر نحن بالعتاء للأخرين قبل أن نتوقع منهم تقديم شيء من الخير.

٧- ما دام معنى إعمار الارض يتحقق بجعلها على نحو مثمر ينتفع به، كما تقدم في التعريف فإذن هو يشمل كل نواحي الحياة لكل بحسبه، فهناك الإعمار السياسي والإقتصادي والاجتماعي والزراعي والعلمي وغير ذلك، لأنها كلها تساهم في تحقيق هذا المعنى فكأن الإعمار مرادف للإصلاح أو هو نتيجته.

الإصلاح الحسيني في كل اتجاهات الحياة:

لذلك فإنّ شريعة الاسلام - وهي خاتمة الشرائع الالهية وأكملها - لم تكتف بالإعمار والإصلاح الديني وانما عمّت بقوانينها واحكامها كل شؤون الحياة وقضايا الناس، وقد عبّر الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وارث الانبياء وحامل رسالاتهم

﴿٢٦٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

كلها عن هذا المشروع الإيماري الشامل وأشار في كلماته الشريفة الى كل هذه المجالات.

ففي مجال الاعمار والاصلاح الديني قال عليه السلام: «وَأَنِّي لَمْ أَخْرَجْ أَشْرًا وَلَا بَطْرًا وَلَا مَفْسَدًا وَلَا ظَالِمًا وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لَطَلَبِ الْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةٍ جَدِّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ أَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَسِيرَ بِسِيرَةِ جَدِّي وَأَبِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ عليه السلام»!

وفي مجال الإعمار القانوني قال عليه السلام: «... إِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى نَبِيِّهِ فَإِنَّ السُّنَّةَ قَدْ أُمِيتَتْ فَإِنْ تَجَبَّيُوا دَعْوَتِي وَتَطِيعُوا أَمْرِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ»^٢؛ أي ان هؤلاء الطغاة عطّلوا العمل بالدستور والقانون فالإمام عليه السلام يدعوهم الى العودة الى العمل بالدستور - وهو القرآن- والقوانين المبيّنة له - وهي السنة الشريفة-.

وفي مجال الإعمار السياسي وبيان صفات المستحقين للإمامة والقيادة وولاية امور الأمة قال عليه السلام: «فَلَعَمْرِي مَا الْإِمَامُ إِلَّا الْحَاكِمُ بِالْكِتَابِ الْقَائِمُ بِالْقِسْطِ الدَّائِنُ بِدِينِ الْحَقِّ الْحَابِسُ نَفْسَهُ عَلَى ذَاتِ اللَّهِ»^٣.

كلُّ الخراب نتيجة لتولّي قادة الزور على مقدرات الشعوب:

١- بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ٤٤ ؛ ص ٣٢٩.

٢- مثير الأحزان ؛ ص ٢٧ ؛ عنه في موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام ؛ ص ٣٨٣.

٣- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ؛ ج ٢ ؛ ص ٣٩.

واعتبر عليه السلام سبب الخراب والفساد الاقتصادي والاجتماعي والاخلاقي والديني وضياع الحقوق والعدالة يرجع الى ولاية القادة غير الشرعيين لأمر الناس قال عليه السلام بعد ان حمّله كل افراد الامة مسؤولية التغيير: «**مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا لِحَرَمِ اللَّهِ نَاكثًا لِعَهْدِ اللَّهِ مُخَالِفًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ يَعْمَلُ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ثُمَّ لَمْ يَغْيِرْ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ كَانَ حَقِيقًا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ مَدْخَلُهُ** قال عليه السلام في تحليله: **وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ قَدْ لَزِمُوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ وَتَوَلَّوْا عَنْ طَاعَةِ الرَّحْمَنِ وَأَظْهَرُوا الْفُسَادَ وَعَطَّلُوا الْحُدُودَ وَاسْتَأْثَرُوا بِالْفِئَةِ وَأَحْلَوْا حَرَامَ اللَّهِ وَحَرَمُوا حَلَالَهُ وَإِنِّي أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ لِقَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»^١.

وفي رواية اخرى «وأنا أولى من قام بنصرة دين الله وإعزاز شرعه والجهاد في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا»^٢.

وهذا بعينه هو مشروع الإمام المهدي المنتظر عليه السلام وقد ادخره الله تعالى لإقامة الحق والعدل وارساء قواعد الدولة الكريمة العامرة بالخيرات والبركات والعزة والكرامة، كما ورد في دعاء الافتتاح لليالي شهر رمضان المبارك

١- بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ٤٤ ؛ ص ٣٨٢.

٢- موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام؛ ص ٤٠٨.

﴿٢٦٢﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

«اللَّهُمَّ إِنَّا نَرْغَبُ إِلَيْكَ فِي دَوْلَةٍ كَرِيمَةٍ»، ولا تكون الدولة كريمة الا اذا سادها الاعمار والاصلاح في جميع المجالات.

ما الذي استفدناه من النهضة الحسينية؟

اقول: ونحن ننهي الموسم الحسيني لشهري محرم وصفر لا بدَّ ان نقف ونراجع ونحلل مقدار استفادتنا من اقامة الشعائر الحسينية، كما امرنا الائمة المعصومون عليهم السلام في كل طاعة، كالصلاة حينما جعل الإمام عليه السلام مقياسا لقبولها والانتفاع بها وهو مقدار نهيها عن الفحشاء والمنكر.

فدرجة استفادتنا من النهضة الحسينية المباركة يحددها مقدار نجاحنا في انجاز الرسالة الحسينية المباركة وتحقيق الاعمار في نواحي الحياة الانسانية الكريمة.

وهي نفس الدرجة التي نستحقها في اختبار التمهيد للظهور المبارك للإمام المهدي عليه السلام لأن الرسالة واحدة والغرض واحد، فلنراجع انفسنا ونقيم افعالنا بدقة ولا نكون من الغافلين المخدوعين ببعض الشكليات والعناوين المزوّقة والطقوس المتخلّفة لنقنع انفسنا باننا قد احيينا شعائر الحسين عليه السلام وهي لا تزيد إلا بعداً عن الإمام الحسين عليه السلام وأهدافه المباركة لأنها تساهم في تجهيل الناس وتسطيح عقولهم وهو مخالف لما أراده الإمام عليه السلام كما ورد

في زيارته المخصوصة انه «...وَبَدَلَ مَهْجَتَهُ فِيكَ لِيَسْتَنْقِذَ عِبَادَكَ مِنَ الْجَهَالَةِ
وَحَيْرَةِ الضَّلَالَةِ...»^١ والله المستعان.

١- تهذيب الأحكام (تحقيق خرسان)؛ ج ٦؛ ص ١١٣.



سنتا

تخفيف آلام العاملين الرساليين



﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾

[الحجر : ٩٧]

القرآن الكريم يخفف آلام العاملين الرساليين

من السنن الجارية في الأمم عبر التاريخ تعرّض المصلحين والعاملين الرساليين وعلى رأسهم الأنبياء والرسل والأئمة المعصومون (صلوات الله عليهم أجمعين) إلى الإيذاء المادي والمعنوي من قبل المتسلطين والطواغيت وأصحاب النفوذ (الذين يسميهم القرآن بالملأ) وأتباعهم من الجهلة والمنتفعين والغوغاء ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾^١ ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾^٢، مما يسبب لهم المأ وحرناً لتضيق به صدورهم وييدي الله تبارك وتعالى على لسان أوليائه الحسرة والألم والتفجع لهذا الموقف السلبي ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^٣، فيخبر الله تعالى نبيه في هذه الآية بأنه تعالى يعلم ما يحلّ به ويجري عليه ﴿فَإِنَّكَ

١ - فصلت: ٤٣.

٢ - آل عمران: ١٨٦.

٣ - يس: ٣٠.

بِأَعْيُنِنَا^١ ورعايتنا مستمرة ودائمة ويعلمه الاجراء الذي يتخذه لتحصيل الطمأنينة وتخفيف هذه الآلام، قال تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^٢.

ويحكي القران الكريم فصولاً عديدة من هذه المواجهة تضمنت أقسى ألوان البطش والقسوة والإنحطاط من قبل المعسكر الآخر وأسمى ألوان الصبر والمصابرة والجهاد والرحمة والشفقة من أولياء الله وعباده الصالحين، ورغم أن الإيذاء المادي المشتمل على القتل والتشريد والتعذيب الجسدي والسجن والتجويع وغيرها كان قاسياً إلا أن ما يؤلم الصالحين أكثر هو الإيذاء المعنوي بالإعراض عن الاستماع إلى الحق وإتباعه وخلط الأوراق على الناس بالافتراء والكذب وقتل الشخصية بالتسقيط والتشويه لأن الثاني هو الذي يحول دون نجاح مشروعهم الرّسالي ويضع الحواجز بينهم - أي المصلحين- وبين الناس فيؤلمهم ابتعاد الناس وعدم اهدائهم إلى الحق وتنعمهم بالرحمة التي جاؤوهم بها من ربهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^٣، أما الأول فإنه يؤدي إلى التعاطف معهم والالتفات إليهم واعتناق مبادئهم ولو بعد حين للشعور بمظلوميته.

١ - الطور: ٤٨.

٢ - الحجر: ٩٨-٩٩.

٣ - الأنبياء: ١٠٧.

سنة تخفيف آلام العاملين الرساليين.....﴿٢٦٩﴾

ومما يزيد في شدة وطأة الإيذاء المعنوي أن أتباع نفس الرسل والمصلحين يساهمون فيه عن علم وعمد أو عن جهل وغرور وأناية بسوء تصرفهم وبعضيانهم وعدم الالتزام بتعاليم قاداتهم وبضعفهم وتشتتهم والخلافات بينهم ونحوها، بينما لا يتوقع صدور النوع الأول من الأتباع والموالين.

وكان الإيذاء المعنوي أشدَّ على قلب رسول الله ﷺ الذي وصفه الله تبارك وتعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^١، لذا كان ربُّه الكريم الرحيم يسلي قلبه ويخفف عن آلامه ويطيّب خاطره ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾^٢، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^٣.

بل إنَّ سوراً كاملة نزلت لهذا الغرض كسورتي القصص ويوسف ﷺ، فالأولى تصف حالة الاستضعاف التي كان عليها قوم موسى ﷺ حيث كان فرعون يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم وفي ذلك البلاء العظيم ولد موسى ﷺ فكان من لطف الله به وتدييره له أن يأخذه فرعون الطاغية نفسه ويرعاه حتى أصبح رجلاً رافضاً لما عليه فرعون وقومه ثم غادر مصر خوفاً من

١ - التوبة: ١٢٨.

٢ - النحل: ١٢٧.

٣ - الحجر: ٩٧-٩٩.

القتل حتى ورد ماء مدين وتزوج هناك ثم عاد نبياً رسولاً كليماً لله تبارك وتعالى بمعجزة عظيمة يدعو فرعون إلى عبادة الله تبارك وتعالى واستطاع أن يهدي بمعاجزه سحرة فرعون وآمن به من آمن حتى عبأ له فرعون من الجيوش ما لا قبل لموسى والمؤمنين بهم ففلق الله تبارك وتعالى لموسى البحر وأنجاه ومن معه وأغرق فرعون وجنوده لينتصر موسى ﷺ ويقيم الحق والعدل وقد عبّر الله تبارك وتعالى عن هذا التدبير بتعبير رقيق ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾^١، أي لتصنع هذه القيادة الفذة برعاية وتدبير مباشرين من الله تبارك وتعالى، وفي نهايتها تصل السورة إلى الهدف وهو تطيب قلب رسول الله ﷺ والتخفيف عن آلامه التي اشتدت في السنين الأخيرة من وجوده المبارك في مكة حيث حوَّصر ثلاث سنين في الشَّعب حتى فقد ناصرِيه خديجة وأبا طالب ثم أمر بالهجرة ومغادرة مكة التي تعلق بها قلبه فوعده الله تبارك وتعالى بأنه عائدٌ إليها ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ﴾^٢، وما مرت إلا ثمان سنوات - وهي ليست كثيرة في عمر الزمن - حتى تحقق الوعد الإلهي بفتح مكة.

وتتحدث سورة يوسف عن ذلك الغلام الصغير الذي حسده أخوته فألقوه في الجب ليهلك ولم يكن هناك أمل بنجاته لكن التدبير الإلهي أتاه بقافلة لتستقي فخرج مع الدلو وباعوه في مصر إلى عزيزها الذي رباه واعتنى به ثم

١ - طه: ٣٩.

٢ - القصص: ٨٥.

سنة تخفيف آلام العاملين الرساليين.....﴿٢٧١﴾

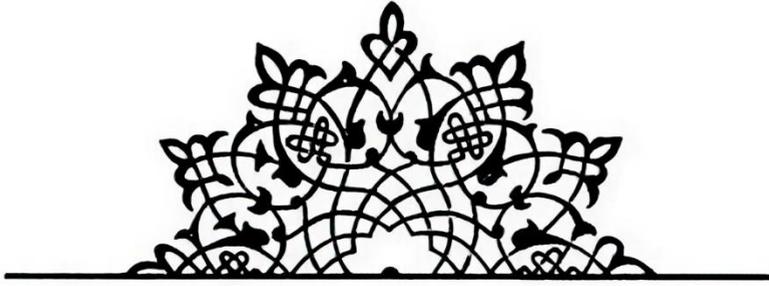
قربّه لما وجد عنده علماً وحكمة وتدبيراً وأمانة وصار بيد النبي الكريم مقاليد أمور الولاية بعد وفاة عزيزها وجاء نفس أخوته الذين كادوا له معترفين بجريمتهم طالبين العفو والصفح فتعامل معهم بسمو الأخلاق.

هكذا يُلطف الله تعالى بعباده وهكذا يصنع أوليائه ويدبر شؤونهم، وهكذا يخيب كيد الباغين والحاسدين والمنافقين والكافرين ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾!

إن ما يمرّ بنا اليوم من بلاء وما مرّ بنا أيام صدام وغيره من الطواغيت لا يستحق أن يذكر في جنب ما أصاب أولياء الله الصالحين في الأمم السالفة حيث ورد في الروايات أنهم نشروا بالمناشير وقرضوا بالمقاريض وحفرت لهم أخاديد النار وألقوا فيها ففضوا حرقاً (سورة البروج) والمتوقع من المتهاككين على السلطة وحب الدنيا أن يفعلوا ما هو أسوأ لولا لطف الله تبارك وتعالى، فخير ما يسليكم ويطمئن قلوبكم وينور بصائرهم ويثبت أقدامكم هو القرآن الكريم فاتخذوه قائداً وهادياً. وقد عشت مثل هذه التجربة مع القرآن ولا زلت أعيش لذة الأيام التي قضيتها في كنفه في ثمانينات القرن الماضي حينما كنت حبيساً في الدار لا ادري في أي لحظة يقبض عليّ الطغاة ويعدمونني الحياة.

وإنّ مما يخفّف الآلام والمصاعب ويدفعنا إلى بذل المزيد من الجهود هو أن نلتفت إلى النعمة التي منحنا الله تبارك وتعالى إياها في هذا الزمن حيث تتوفر أعظم فرصة لبناء المستقبل الزاهر لامتنا وبنفض غبار السبات الذي أصابها منذ أكثر من ألف عام، ونمهّد لدولة الحق والعدل ببناء أنفسنا ومجتمعنا ومؤسساتنا على أسس الإخلاص والتقوى والعمل الصالح بعيداً عن المتصارعين على الدنيا الفانية الزائلة. لقد كان أصحاب الإمام الحسين عليه السلام يتسابقون إلى الموت فرحين مسرورين لان الإمام عليه السلام كشف لهم عن بصائرهم فأوا منازلهم في الجنة أي رأوا نتائج تضحياتهم والمستقبل العظيم لما يقومون به فصغر في أعينهم ما يلاقون من ألم الجراح وهذا التفسير منسجم مع ما نعتقده من تجسّم الأعمال.

وإذا كانت تلك التضحيات لإبقاء الحياة وجذوة الضمير والايمان في جسد الأمة فإن تضحيات اليوم ستؤدي إلى بعثها من جديد وحركتها نحو بناء دولة الحق والعدل.



سنتا

المصائب بما كسبت الأيدي



﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾

[الشورى : ٣٠]

سنة المصائب بما كسبت الأيدي

حقيقة قرآنية تكشف عن واحدة من السنن الإلهية الجارية في العباد، فالمصيبة هي النازلة والنائبة التي تحل بالإنسان وسميت بذلك لأنها تصيب الإنسان المقصود والمستهدف بها وتحقق الغرض المطلوب كما يصيب السهم الهدف بدقة، وسياق الآية ظاهر في كون المراد من ﴿كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ خصوص السيئات والمعاصي وستأتي الإشارة إلى احتمال آخر بإذن الله تعالى، والباء سببية.

فيكون معنى الآية ان المصائب التي تنزل بكم أيها الناس في دينكم أو أنفسكم أو أهليكم أو أموالكم أو امتيازاتكم وسائر ما أنعم الله به عليكم من نعم معنوية ومادية هي بسبب بعض ما صدر منكم من الذنوب وليس كلها، لأن الله تعالى ﴿يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ابتداءً بالفضل أو جزاءً على عمل صالح، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾!

وكون المصائب بسبب افعالكم لا يلغي كونها من عند الله وإذن الله

لأنه تعالى مسبب الأسباب ومدبر الأمور فالأسباب طولية، فالمصائب تقع بسبب أفعال العباد المباشرة وغير المباشرة لكن بإذن الله تعالى وبفعل القوانين التي جعلها الله تعالى للموجودات ولو شاء سبحانه لدفع عنهم ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ لكن الله تعالى يتركهم أحياناً أهدافاً للسهام التي اعدوها هم لأنفسهم لتصيبهم بفعل القوانين الطبيعية التي جعلها الله تعالى، كمن يسقط من شاهق بفعل الجاذبية الأرضية فتتكسر عظامه فان ما أصيب به نتيجة فعله ولو شاء الله تعالى لعطل قانون الجاذبية كما عطل قانون الاحراق للنار التي اوقدت للنبي إبراهيم عليه السلام لكن حكمة الله تعالى اقتضت جريان قانون الجاذبية لتستقر الحياة وتتنظم، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^١.

ومن هنا يتضح الفرق بين السيئة التي فيها رفع يد وعدم دفع من الله تعالى وبين الحسنة التي هي بتوفيق وتمكين مباشر من الله ومن عند الله قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تَصَبَّهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا، مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾^٢.

وقد أضاف الله تعالى مزيداً من فضله بأن جعل هذه البلاءات التي تمر على الانسان بسبب أفعاله أو أفعال المجتمع كفارة لذنوبه وعلواً في درجاته،

١ - النغابن: ١١.

٢ - النساء: ٧٨-٧٩.

لذا دلت بعض الروايات على ان هذه الآية من أكثر الآيات الكريمة التي تعيد الأمل والرجاء إلى العاصين لما تضمنته من البشارة بسقوط الكثير من الذنوب بالمصائب والبلاءات أو العفو والمغفرة ابتداءً بإذن الله تعالى ففي مجمع البيان والدر المنثور عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خير آية في كتاب الله هذه الآية يا علي عليه السلام ما من خدش عود ولا نكبة قدم إلا بذنب وما عفا الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه وما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثنى على عبده»^١، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «إني أحدثكم بحديث ينبغي لكل مسلم، أن يعيه - ثم أقبل علينا فقال: ما عاقب الله عبداً مؤمناً في هذه الدنيا إلا كان الله أحلم وأمجداً - وأجود من أن يعود في عقابه يوم القيامة»^٢.

فالآية فيها تطمين بكرم الله تعالى ورحمته اذ إن ما يحل بهم من مصائب هو بعين الله تعالى وفيه تخفيف للذنوب والاوزار التي تثقل الظهر، والله تعالى شفيق رؤوف بعباده فيختار لهم الحال الذي يناسب صلاحهم، ففي مجمع البيان: روى أنس عن النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن الله جل ذكره «إن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالسقم ولو صححت جسمه لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالصحة ولو

١- بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ٧٠ ؛ ص ٣١٦

٢- تفسير القمي ؛ ج ٢ ؛ ص ٢٧٦.

أَسَقَمْتَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ إِنِّي أَدْبَرُ عِبَادِي بَعْلَمِي بِقُلُوبِهِمْ»^١.

وفيها تحذير أيضاً من اقتراف المعاصي لأنها ستكون سبباً لتعرضهم لمزيد من البلاء في الدنيا فاذا أرادوا دفع هذا البلاء أو تقليله فليتجنبوا أسبابه وهي الذنوب، فهذا التحذير رحمة أخرى بالإنسان وشفقة عليه، روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «تَوَقَّوْا الذُّنُوبَ فَمَا مِنْ بَلِيَّةٍ وَلا نَقْصِ رِزْقٍ إِلاَّ بِذَنْبٍ حَتَّى تُخَدِّشَ وَالكِبُوبَةَ وَالمُصِيبَةَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾، وَقَالَ عليه السلام: ... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِذَا عَاهَدْتُمْ فَمَا زَالَتْ نِعْمَةٌ وَلا نَضَارَةٌ عَيْشٍ إِلاَّ بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوا إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ وَلو أَنَّهُمْ اسْتَقْبَلُوا ذَلِكَ بالدُّعَاءِ وَالإِنَابَةِ لَمْ تَنْزَلْ وَ لو أَنَّهُمْ إِذَا نَزَلَتْ بِهِم النِّقَمُ وَزَالَتْ عَنْهُمْ النِّعَمُ فَرَعَوْا إِلَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ وَ لَمْ يَهِنُوا وَ لَمْ يَسْرِفُوا لِأَصْلَحِ اللهُ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ وَ لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ صَالِحٍ»^٢ وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ وَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنَ العَمَلِ مَا يَكْفُرُهَا ابْتِلَاءً بِالْحَزَنِ لِيَكْفُرَهَا»^٣ وعلى هذا فالآية عامة للمؤمنين والكافرين.

وهنا تثار عدة أسئلة حول مضمون الآية:

١- بحار الأنوار (ط - بيروت)؛ ج ٥؛ ص ٢٨٤.

٢- بحار الأنوار (ط - بيروت)؛ ج ٧٠؛ ص ٣٥٠.

٣- الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج ٢؛ ص ٤٤٤.

سنة المصائب بما كسبت الأيدي.....﴿٢٧٩﴾

السؤال الأول: كيف نطبق الآية على ما يصيب الأنبياء والأئمة عليهم السلام من البلاءات وهم معصومون من الزلل والذنب؟ أو الأطفال الذين هم دون سن التكليف مثلاً؟ والجواب يمكن أن يكون بوجوه:

١. أن يقال إن المعصومين عليهم السلام خارجون عن موضوع الآية وهم الناس الذين يكونون عرضة للمعاصي بعد ان علمنا ان المقصود بها المصائب التي تحصل بسبب الذنوب فالمخاطب بها من يجوز صدور المعصية منه، والأئمة عليهم السلام معصومون منها فهم خارجون عن الخطاب أصلاً أي تخصصاً لا تخصيصاً.

وان بلاءاتهم تكون لرفع مقاماتهم عند الله تبارك وتعالى ففي الكافي بإسناده عن علي بن رئاب^١ قال: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ قَالَ: أَرَأَيْتَ مَا أَصَابَ عَلِيًّا عليه السلام وَأَهْلَ بَيْتِهِ عليهم السلام؟ هُوَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَهُمْ أَهْلُ طَهَارَةٍ مَعْصُومِينَ قَالَ عليه السلام: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله كَانَ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مِائَةَ مَرَّةٍ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ إِنَّ اللَّهَ يَخْصُ أَوْلِيَاءَهُ بِالْمَصَائِبِ لِيَأْجِرَهُمْ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ» وفي قول النبي صلى الله عليه وآله لسبطه الحسين عليه السلام «إِنَّ لَكَ فِي الْجَنَّةِ دَرَجَاتٍ لَا تَنَالُهَا إِلَّا بِالشَّهَادَةِ»^(٢).

١- بحار الأنوار (ط - بيروت) ؛ ج ٧٨ ؛ ص ١٨٠.

٢- الأمالي (للصدوق) ؛ ص ١٥٢.

فبلاءاتهم سلام الله عليهم مشمولة بخطاباتها المناسبة فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**إِنَّ الْبَلَاءَ لِلظَّالِمِ أَدَبٌ وَلِلْمُؤْمِنِ امْتِحَانٌ وَلِلنَّبِيِّاءِ دَرَجَةٌ وَلِلنَّوَلِيَاءِ كَرَامَةٌ**»^١ وهذا مستفاد من الحوار الذي جرى بين الإمام زين العابدين عليه السلام والملعون يزيد، حينما أدخل أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله على يزيد فقال للإمام السجاد عليه السلام متشفياً شامتاً: «**يَا عَلِيٌّ: مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ فَقَالَ عليه السلام: كَلَّا مَا هَذِهِ فِينَا إِنَّمَا نَزَلَ فِينَا ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مَصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾^٢ فَنَحْنُ الَّذِينَ لَا نَأْسَى عَلَى مَا فَاتَنَا وَلَا نَفْرَحُ بِمَا أُوتِينَا**»^٣. فيمكن ان يكون البلاء للترهيد في الدنيا وزيادة التبصرة في حقيقتها.

٢. ان يقال ان الخطاب في الآية ليس موجهاً لأفراد الناس بما هم افراد أي لكل فرد على حدة بل بما هم مجموع فالعموم هنا مجموعي وليس استغراقياً، أي أن ما أصابكم كمجتمع من بلاءات خاصة أو عامة كالمجاعة والزلازل والفتن الداخلية والعدوان الخارجي ونحو ذلك هي بسبب ما صدر من بعضكم من معاصي وسكوت أو رضا بعض آخر فأصاب البلاء الجميع بلا استثناء حتى من لم يكن من

١- جامع الأخبار (للشعيري)؛ ص ١١٣.

٢ - الحديد: ٢٢- ٢٣.

٣- بحار الأنوار (ط - بيروت)؛ ج ٧٠؛ ص ٣١٥.

هذين القسمين ويكون البلاء رحمة للمؤمنين ونقمة على الكافرين،
وحيث أن يكون ضمير (كم) في (أصابكم) أعم من (كم) في (أيديكم)
لأن الأول يشير إلى الكل والثاني إلى البعض، وتكون حينئذ الآية
بمعنى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^١، وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ﴾^٢. وفي الحديث الشريف عن محمد بن عرفة قال: «سَمِعْتُ
أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ
لَيَسْتَعْمَلَنَّ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَيَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يَسْتَجَابُ لَهُمْ»^٣.

٣. أن نقول كأطروحة ان ﴿مَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ تشمل الحسنات أيضاً
فتكون المصائب التي تقع على الصالحين هي بما كسبت أيديهم
ولكن من الحسنات لأنها تثير حسد الأعداء وتوغر صدورهم ويزين
لهم الشيطان الانتقام من الصالحين بألوان الظلم والعدوان قال تعالى
﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^٤ فتكون أصابتهم
في سبيل الله على يد أعداء الله ويكون للآية حينئذ دور في تخفيف

١ - الأنفال: ٢٥.

٢ - الروم: ٤١.

٣ - الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج ٥؛ ص ٥٦.

٤ - النساء: ٥٤.

الأم ومعاونة الصالحين والعاملين الرساليين بأن ما يصيبهم نتيجة نجاحهم وتألقهم.

السؤال الثاني: ان المعروف ان الدنيا دار عمل ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل فكيف حصل الجزاء في الدنيا؟ والجواب يكون بأكثر من وجه أيضاً:

١. ان هذا المعنى المعروف صحيح في الجملة وعلى القاعدة الا أنه ليس

بشكل مطلق ولا يمنع من حصول جزاء في الدنيا تخفيفاً على العبد

وإشفاقاً عليه حتى لا يتعذب بها في الآخرة كما أسلفنا والأول لا

يقارن بالثاني كما في دعاء أمير المؤمنين عليه السلام المعروف بدعاء كميل

«أَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفِي عَنْ قَلِيلٍ مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا وَ عَقُوبَاتِهَا..»^١ «فَكَيْفَ

احتمالي لبلاء الآخرة وجليل وقوع المكاره فيها، وهو بلاء تطول

مدته..»، أو تحذيراً للعبد حتى يراقب نفسه أكثر ويجتنب المعاصي.

أن الانتقال إلى الآخرة لا يمنع من استمرار العمل ووصول الأجر على

العمل ففي الحديث الشريف: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا عَنْ ثَلَاثٍ

وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ وَ عِلْمٍ يَنْتَفِعُ بِهِ بَعْدَهُ وَ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ»^٢ وقال النبي صلى الله عليه وآله:

«مَنْ سَنَّ سَنَةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَ أَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ

١ - مصباح المتهجد و سلاح المتعبد ؛ ج ٢ ؛ ص ٨٤٧

٢ - جامع الأخبار (للشعيري) ؛ ص ١٠٥.

أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ^١!

٢. ان هذه المصائب ليست جزاءً للأعمال وإنما هي آثار طبيعية لها اقتضتها العلاقات الوثيقة والسنن الكونية الرابطة بين المخلوقات والقوانين اذ تؤكد الآيات الشريفة ان الناس كلما وافقوا النظام الكوني وانسجمت طاعتهم للقوانين التشريعية مع انقيادهم للقوانين الكونية فانهم سينالون بركات كثيرة وان خالفوها أصابتهم الكوارث قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ^٢!

ويظهر هذا الارتباط الوثيق من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ^٣﴾ فإن حالهم في جميع نواحي الحياة المادية والمعنوية يتغير من الصلاح إلى الفساد وبالعكس بحسب سلوكهم هم في هذا الاتجاه او ذلك.

هذا بغض النظر عما تقتضيه بعض الاستثناءات أحياناً كالاتلاء لرفع الدرجات أو اغداق النعم للاستدراج ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَّوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ^٤!

١ - الكافي (ط - الإسلامية) ؛ ج ٥ ؛ ص ٩.

٢ - الأعراف: ٩٦.

٣ - الرعد: ١١.

٤ - الأعراف: ٩٥.

السؤال الثالث: ان مقتضى الآية حينئذ عدم بقاء ذنوب على الناس لأنها بين مكفرة بالمصائب أو معفى عنها فلا يؤخذون على ذنب في برزخ أو قيامة وهو خلاف ما دلّ على وجود العذاب والمؤاخذة في القبر وفي القيامة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^١، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^٢ فكل مظلمة وذنوب يؤخذ بها في البرزخ أو القيامة الا ما غفرت بالتوبة أو تذهب بحسنة أو بشفاعة في الآخرة ونحو ذلك، ويزداد الاشكال في الكافرين باعتبار شمول الآية للمؤمنين والكافرين.

والجواب:

١. لا مانع من الالتزام بعدم بقاء ذنوب على من محصهم البلاء وطهرهم في الدنيا ولو لخصوص المؤمنين بفضل الله تعالى وكرمه وقد ورد هذا المعنى في بعض الروايات كقول النبي ﷺ: «لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي جَسَدِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ حَتَّىٰ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَىٰ وَ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^٣.

٢. ان الآية لا تفيد هذا المعنى لأنها بصدد بيان الترابط بين الذنوب

١ - آل عمران: ١٨٥.

٢ - النحل: ٦١.

٣ - جامع الأخبار (للشعيري)؛ ص ١١٣.

وأثارها الوضعية في الدنيا بإصابته بأنواع البلاء وليست بصدد بيان
المجازاة على الأفعال مع ملاحظة العفو عن كثير بلطف الله تعالى
وكرمه حيث جعل اسباباً لتكفير الذنوب والعفو عنها كالصدقة
والدعاء والاستغفار وفعل الحسنات ونحو ذلك.

وفي الختام ينبغي الانتباه إلى ان هذه المعنى للآية لا يبرر الاستسلام
للمصاعب والمشاكل وعدم السعي لمعالجتها وإزالتها بإذن الله تعالى على
أساس أن الله تعالى أرادها أن تكون كذلك فهذا فهم غير مستقيم، وإنما على
المؤمن التوسل بالأسباب لدفع الضرر والاذى والسوء، فاذا لم ينجح في
دفعها لاحظ المعنى المذكور في الآية وحينئذٍ تحصل له حالة الندم على
فعل المعصية فيستغفر منها ويعقد العزم على عدم العودة إليها.
فتكون الآية وسيلة تربوية ناجحة لعودة الانسان إلى رشده وإعادة
الأمل إليه، وتكشف عن مظهر من مظاهر الرحمة الإلهية.



سنتا

إعطاء الفرصة لهداية المزيد



﴿وَلَوْ لَّا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ...لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا

أَلِيمًا﴾

[الفتح : ٢٥]

سنة إعطاء الفرصة لهداية المزيد

قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَّا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَّوَّهُمْ
فَتَصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَّعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِّيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا
لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾!

السياقات التاريخية للآية الكريمة:

الآية من سورة الفتح التي سجّلت الفتح المبين الذي منّ الله تعالى به على
نبيه الكريم ﷺ وعلى المسلمين بصلح الحديبية الذي انقلبت فيه موازين
القوى ومعادلة الصراع بين المؤمنين والمشركين حيث كسر الله تعالى شوكة
المشركين بقيادة قريش وشتت شملهم واصبحوا يغزون في عقر دارهم

﴿٢٩٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

وكانوا قبل عام من ذلك يحشدون عشرة الاف من الاحزاب ويحاصرون المدينة وأهلها، فصاروا يطلبون من النبي ﷺ الصلح والرجوع عن مكة ذلك العام، مما مهد الطريق لانتشار الاسلام في جزيرة العرب وفتح مكة، وكل ذلك تحقق بدون قتال، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^١، ودع عنك ذكر بعض اصحاب النبي ﷺ الذين لم يفهموا هذا الفتح المبين فاعترضوا على رسول الله ﷺ وشككوا في مصداقته كما ورد في كتب العامة^٢.

معنى الآية الكريمة:

وجواب (لولا) في الآية محل البحث غير مذكور ولكنه يعرف من هذه الآية السابقة عليها، أي لولا وجود هؤلاء لما كفَّ الله تعالى أيديكم وأيديهم عن القتال الذي كان سينتهي حتماً بانتصار المسلمين كما في الآية السابقة عليهما ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^٣.

١ - الفتح: ٢٤.

٢ - أنظر: جامع البيان- ابن جرير الطبري: ٢٦/١٣٨/ح/٢٤٤٦١- تفسير القمي: ٣١٥/٢.

٣ - الفتح: ٢٢.

سنة إعطاء الفرصة لهداية المزيد.....﴿٢٩١﴾

فيكون معنى الآية انه لولا وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات ما زالوا يقيمون بين المشركين يخفون اسلامهم تقية واستضعافاً او لمصالح معينة لكونهم عيوناً للنبي ﷺ على المشركين وانتم لا تعرفونهم، لأوقع الله تعالى القتال بينكم وبين قريش وقد اقتحتم عليهم ديارهم والنصر لكم، لكن الله تعالى كف أيديكم وأيديهم عن القتال، حمايةً لكم ولأولئك المؤمنين، لأنكم بسبب جهلكم بهم فيخشى عليكم من إصابتهم بقتل أو جرح فتصيبكم بسبب ذلك (معرفة) أي ضرر وعار في الدنيا أو الآخرة، لأن المشركين سيعيرون المسلمين ويقولون أن هؤلاء مجرمون قساة لم يرحموا حتى جماعتهم المؤمنين، وسيقولون أيضاً أن النبي ﷺ لم يراعي حرمة بيت الله الآمن فقاتل على أرض الحرم.

ولو تزيّل هؤلاء المؤمنون أي انفصلوا وتباينوا عن مجتمع المشركين لوقع العقاب على الكافرين خاصة ﴿لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من دون محذور، كما ان الفريقين متزايلون يوم القيامة فيحل العذاب بالكافرين.

﴿٢٩٢﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

والغرض الآخر الذي لوحظ في تجنب القتال وكفّ الأيدي عنه هو قوله تعالى ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^١ أي لإعطاء مزيد من الوقت والفرصة حتى يخرج المؤمنون من وسط قريش ويأووا إلى كهف رسول الله ﷺ الرحيم، أو حتى يهتدي من يشاء الله من هؤلاء المشركين والمعاندين، وهؤلاء لا تعرفون عنهم شيئاً أكيدا، فلو تزيل هؤلاء أي تحقق الغرض بهداية من يريد الله تعالى هدايته وانفصالهم عن المشركين لعذبنا الذين كفروا فالكفّ عن القتال يحقق مصلحتين:

١- دفع الخطر عن المؤمنين غير المعروفين ودفع المعرة عن المسلمين.

٢- إعطاء الفرصة لهداية المزيد من الأعداء للإيمان.

من معاني الرحمة في الآية:

وهذه الرحمة لا تختص بالقوم الموجودين في ذلك الزمان، بل يشمل من سيأتون لاحقا كما ورد عن أهل البيت عليهم السلام في عدة روايات^٢، وفي إحداها

١ - الفتح: ٢٥.

٢- ذكرها في تفسير البرهان: ٧١/٩.

سنة إعطاء الفرصة لهداية المزيد..... ﴿٢٩٣﴾

قال الراوي للإمام الصادق عليه السلام: مَا بَالَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام لَمْ يِقَاتِلْ مُخَالَفِيهِ فِي الْأَوَّلِ؟ قَالَ عليه السلام: لَأَيَّةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قَالَ: قُلْتُ: وَ مَا يَعْنِي بِتَزَايَلِهِمْ؟ قَالَ عليه السلام: وَدَائِعَ مُؤْمِنُونَ فِي أَصْلَابِ قَوْمٍ كَافِرِينَ وَ كَذَلِكَ الْقَائِمُ عليه السلام لَمْ يَظْهَرِ أَبَدًا حَتَّى تَخْرُجَ وَدَائِعُ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ فَإِذَا خَرَجَتْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ ظَهَرَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ فَفَقَّتْ لَهُمْ^١.

سنة الله في عباده:

وهذه سنة الهية ثبتها القرآن الكريم في قصة النبي نوح عليه السلام، لذلك فإنه عليه السلام لم يستنزل العذاب على قومه إلا بعد أن حصل عنده اليأس من ولادة شخص مؤمن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يَظْلُمُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^٢ ولكن العذاب لم ينزل إلا عندما أخبره الله تعالى بهذه الحقيقة وعندئذ أيقن النبي نوح عليه السلام بنزول العذاب، قال تعالى: ﴿وَأَوْحِيَ إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ

١- كمال الدين و تمام النعمة ؛ ج ٢ ؛ ص ٦٤١.

٢ - نوح: ٢٦-٢٧.

قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتِئُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ، وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿١﴾!

دروس من الآية:

والآن بعد أن فهمنا أكثر من وجه لتفسير الآية نستطيع استنباط عدة دروس من الآية:

ان الغرض الذي يجب أن يكون مائلاً دائماً أمام كل القادة والعاملين في السلم وفي الحرب وفي كل عمل هو إدخال الناس في الرحمة الإلهية ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ لأن الغرض من الخلق رحمتهم ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^٢ فالرحمة المشار إليها في الآية يمكن أن يكون المقصود بتحصيلها المؤمنين المستضعفين المتخفين بإيمانهم، أو المؤمنين الموجودين في أصلاب المشركين ولو بعد عدة أجيال، أو لنفس المشركين

١ - هود: ٣٦-٣٧.

٢ - هود: ١١٩.

سنة إعطاء الفرصة لهداية المزيد.....﴿٢٩٥﴾

بأن يوفقوا للإيمان، وقوله تعالى ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ ليس اعتباطياً وإنما مبني على أهلية الشخص وقابليته وحسن اختياره، لأن الله تعالى حكيم والحكيم يضع الأشياء في مواضعها.

فليست الحرب في الاسلام لتوسيع النفوذ وبسط السلطة وجني المزيد من المكاسب والمغانم وإنما لشمول الناس بالنفحات الالهية فإذا تحقق ذلك بالسلم والكفّ عن القتال فقد تحقق الغرض ولا معنى للحرب، فليفهم المعترضون على تشريع الاسلام للقتال.

١- إن الآية تعطينا تفسيراً لصبر أمير المؤمنين عليه السلام على الظلم الذي لحق به وبالصديقة الزهراء عليها السلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وعجز الكثيرون عن فهم موقفه عليه السلام لذا بادروا الى إنكار أصل الموضوع مع تسليم المصادر بوقوعه، لكن أمير المؤمنين عليه السلام كان يعلم بما علّمه الله تعالى من أن في أصلاب هؤلاء من يكونون موالين عاجلاً أو آجلاً ولو قتلهم فإنه سيقطع نسلهم ويحرم اولئك من الكمال.

٢- وتعرفنا أيضاً على سرٍّ من أسرار طول غيبة الإمام المهدي عليه السلام وهو استفراغ الوسع في إخراج المؤمنين من أصلاب الكافرين والمنافقين وتوفير فرصة الهداية لكل البشر كما ان النبي نوح عليه السلام لبث طويلاً في قومه ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾^١ للوصول الى هذه النتيجة فلا نستغرب من طول غيبة الإمام عليه السلام - وان ضاقت صدور المؤمنين بذلك - لأنه مدّخر لإقامة دولة العدل الالهي، واذا كان النبي المعصوم المزوّد بالعلم اللدني يعجز عن معرفة هذا الوقت فيظن انهم لا يلدون الا فاجراً كفار فكيف يعرفه الجهلة، وفي هذا جواب للمشككين والمتسائلين.

٣- ان الله تعالى يدفع بالمؤمنين عن غيرهم ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ... لَعَذَّبْنَا﴾ وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بِمَنْ يَصَلِّي مِنْ شِيعَتِنَا عَمَّنْ لَا يَصَلِّي مِنْ شِيعَتِنَا، وَ لَوْ أَجْمَعُوا عَلَى تَرْكِ الصَّلَاةِ لَهَلَكُوا، وَإِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بِمَنْ يَزْكِي مِنْ شِيعَتِنَا عَمَّنْ لَا يَزْكِي مِنْ شِيعَتِنَا وَ لَوْ أَجْمَعُوا عَلَى

تَرَكَ الزَّكَاةَ لَهْلَكُوا، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَدْفَعُ بِمَنْ يَحِبُّ مِنْ شِيعَتِنَا عَمَّنْ
لَا يَحِبُّ مِنْ شِيعَتِنَا وَلَوْ أَجْمَعُوا عَلَى تَرْكِ الْحَجِّ لَهْلَكُوا، وَهُوَ
قَوْلُ اللَّهِ ﴿وَلَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ
الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾!

وقد قلت في الخطاب الفاطمي في نيسان من العام الماضي ان تخاذل
الكثيرين عن نصره القانون الجعفري ومعارضة البعض الآخر حتى أجهضوه
كانت سبباً في التقدير الإلهي لنزول بلاء عام لولا نصره البعض للقانون
وحماسهم للدفاع عن إقراره وتثقيف الأمة على المطالبة به، وبعد شهرين
من ذلك نزلت بلاءات لم تكن نعهد لها من سقوط عدة محافظات بيد داعش
وتهجير الملايين وتدمير المدن وأخذ النساء سبايا ووقوع مذابح بالآلاف
جملة واحدة وكادت تسقط بعض المدن المقدسة لولا أن الله تعالى رفع
جزءاً من البلاء ببركة تلك النصره، فأقرأوا جيداً السنن الإلهية وتأثيرها في
الحياة لئلا تتكرر الاخطاء والخطايا الكارثية.

ولا زالت الفرصة موجودة لأنهم قرروا في حينها تشكيل لجنة علمائية للنظر في القانون وآلية اقراره وقد مرت مدة كافية لإنجاز هذا الامر والله المستعان.

٤- إن الكف عن القتال كان رعاية لجمع من المؤمنين أن يصيبهم

ضرر جهلاً بغير علم ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ وهذا يكشف

حكمة المرجعية الرشيدة في توقفها عن الاذن بالتشكيلات

الشعبية المسلحة إلا في ساحات المواجهة والدفاع عن الدين

والنفس والعرض والمال، واشترطت أن يكون العمل

العسكري منضبطاً ومحدوداً بإشراف قيادات مهنية وكفاءة

ومخلصة ونزيهة وأن ينال المتطوعون تثقيفاً كاملاً حول

واجباتهم الدينية والوطنية وتدريباً جيداً وتسليحاً يناسب

المعارك التي يدخلونها، أما اطلاق الدعوة للناس عامة من

دون وضع التدابير والخطط لتحقيق هذه الشروط وتنظيم

العمل والسيطرة عليه، فإنه تقع هذه المحاذير التي ذكرتها

الآية الشريفة، حيث تتناول وسائل الاعلام هذه الايام وقبلها

اخباراً عن وقوع انتهاكات وجرائم بحق الابرياء من قبل

المندسين والجهلة والمتعصبين والنزقين الذين لم يتعرفوا

على آداب وأخلاق العمل العسكري وأهدافه وقوانينه الشرعية والمهنية، فالجهد الشعبي غير المنظم يلزم منه الوقوع في هذه الكوارث، فكيف وهم لا يعلمون ولا يميزون المسلمين الابرياء (لم تعلموهم)(بغير علم).

٥- عدم اليأس من صلاح الناس وهدايتهم مهما رتعا في الكفر والشرك فمن الممكن شمولهم بالرحمة الالهية فقد دخل المشركون بعد ذلك في الاسلام طوعاً أو طمعاً أو لأي سبب آخر، وعلى العاملين أن يستمروا في محاولاتهم فأن كل شيء ممكن عند الله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾^١ وان الاسلام قادر على استيعاب حتى اعنى الناس واكثرهم همجية ووحشية كالمغول الذين اكتسحوا العالم الاسلامي وأوغلوا فيه قتلاً وتدميراً، وما اسرع ما دخلوا في الاسلام واصبحوا جزءاً من المجتمع المسلم وآمن كثير منهم بولاية أهل البيت عليهم السلام.

﴿٣٠٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

وقد وجهت في عدد من لقاءاتي مع المسؤولين بأن يكون من اولوياتنا في مواجهة داعش والقاعدة والتنظيمات الارهابية الأخرى هدايتهم وإقناعهم وإلقاء الحجج عليهم وإزالة الشبهات والأوهام عن اذهانهم والغشاة عن بصائرهم لان أكثرهم مضللون تعرضوا لغسيل الدماغ وقد تناقلت وسائل الاعلام خلال المدة الماضية رجوع كثير منهم الى بلدانهم والتبري من داعش والقاعدة بعد ان اطلعوا على التصرفات المشينة والوحشية لقياداتهم والتقطت عدة رسائل نصية وبريدية لمقاتلين اجانب في العراق وسوريا تبين شعورهم بانهم قد خدعوا واتخذهم الذين جندوهم كبش فداء لاغراضهم الشيطانية.

فيمكن الاستفادة من مواقع التواصل الاجتماعي للحوار معهم وسلوك الطرق الممكنة للوصول الى عقولهم وقلوبهم وفضح الاجندات المعدة له، كما فعل امير المؤمنين عليه السلام مع أسلافهم من الخوارج عندما حاججهم وناظرهم قبل خوض معركة أمير المؤمنين فتاب ثلثا عددهم «**ستة الاف من تسعة**»^١ وتركوا عقيدتهم وهو إنجاز عظيم، والشواهد الحاضرة كثيرة أيضاً حيث أن كثيراً من الوهابيين والسلفيين استبصروا بعد الاطلاع على حجج وبراهين أهل البيت عليهم السلام عندما تلقى اليهم بالحكمة والموعظة الحسنة من دون استفزاز

١- الإحتجاج على أهل اللجاج (للطبرسي)؛ ج ١؛ ص ١٨٧.

سنة إعطاء الفرصة لهداية المزيد.....﴿٣٠١﴾

في بعض البرامج والحوارات الرصينة التي تعرضها الفضائيات فلا نقلل من
اهمية هذا التوجه ولنباشر به جميعاً، ولنعطه الجهد الذي يستحقه.



سنة الامتحان الدائم



أتم في امتحان دائم فأحسنوا العمل^١

بسم الله الرحمن الرحيم

ما دام الإنسان في هذه الدنيا فهو في امتحان وابتلاء قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^٢ فالابتلاء سنة ثابتة من السنن الإلهية، ولا يفهم منها معنى القهر وإظهار الغلبة والانتقام، فإن الله تعالى غني عن ذلك، وإنما أجرى هذه السنة لمصلحة العباد، واضرب لكم مثلاً من الحياة الأكاديمية فإن السنة الدراسية تشتمل على امتحانات متنوعة من أولها إلى آخرها، ومهما أشكل بعض التربويين وعلماء النفس على الامتحانات وتأثيرها على نفسية الطالب، وإنها ليست معبراً حقيقياً عن مستويات الطلبة، إلا أن هذا الإجراء هو لمصلحة الطالب من أكثر من

١- من حديث سماحة الشيخ العنقوي مع حشد من طلبة جامعة الصدر الدينية في النجف الأشرف من المرحلتين الخامسة والسادسة، يوم ٢٤ ج ٢ ١٤٣١ المصادف ٢٠١٠/٦/٨ بمناسبة الامتحانات النهائية وقرب العطلة الصيفية.

جهة:

١- إن الامتحان يميّز مستويات الطلبة ويبين استحقاق كل طالب ليكرّم الناجح ويحفّز الفاشل ويأخذ كل ذي حق حقه.

٢- إن الامتحان يحفز الطلبة على القراءة والمراجعة، ولو خلت الدراسة من الامتحانات فإن النادر من الطلبة سيبدل جهداً لمراجعة دروسه واستيعابها حباً للعلم لا أكثر.

وهذا الابتلاء الذي يجري على الإنسان في هذه الدنيا فإنه لمصلحته لكي يثاب المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته، ويلتزم الناس بالحقوق والواجبات، ولو شعر الناس بأنه لا ثواب ولا عقاب ينتظروهم لانتشر الظلم والعدوان والفساد، ولعمّ اليأس الحياة.

وكما أن الدروس تتفاوت في ثقل احتسابها لإخراج المعدل العام للدروس - وهذا يعرفه طلبة الجامعات - أو تفاوت الدرجات الموضوعية بإزاء الأسئلة في الامتحانات فسؤال عليه درجة كاملة، وآخر فرع بمثابة نصف سؤال وآخر أقل منه، فكذلك الابتلاءات التي يمر بها الإنسان متفاوتة الدرجات والتأثير في ميزان الأعمال، فقد ورد في الحديث الشريف «...فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمَصِيبَةِ

حَتَّى يَرُدَّهَا بِحَسْنٍ عَزَائِهَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ثَلَاثَمِائَةَ دَرَجَةٍ... وَ مَنْ صَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ سِتِّمِائَةَ دَرَجَةٍ... وَ مَنْ صَبَرَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ تِسْعَمِائَةَ دَرَجَةٍ...^١ فهذه الأمور كلها تحتاج إلى الصبر لكن درجات الصبر متفاوتة فالصبر على الطاعة - كالقيام من النوم اللذيذ الدافئ في الشتاء لأداء صلاة الصبح، وكبذل المال وفراق الأحبة وتحمل أعباء السفر لأداء الحج - أعلى من الصبر على الحرام - كمن تعرض له امرأة متبرجة فيصرف نظره عنها أو الذي يعرض له مال مغري إلا أنه من طريق غير مشروع فلا يمدُّ يده إليه - وهذا أعلى من الصبر على النوائب كفقْد عزيز.

وكما أن الامتحانات في الدراسة الأكاديمية على نوعين، فبعضها ثابتة معلومة مسبقاً ومحددة المواعيد كالامتحانات الفصلية والنهائية، وبعضها يفاجئ الأستاذ بها الطالب من دون إشعار مسبق كالامتحانات اليومية ليكشف عن الاستعداد المتواصل والتحضير اليومي، ولا يعذر الطالب فيه أن يقول: لا أعلم بموعده وأنني لو علمت لحضرت له، لأن وظيفته التحضير باستمرار والاستعداد لمثل هذه الامتحانات فكذلك الامتحانات التي تمر

بالإنسان في الحياة الدنيا ويراد منه تأديتها بنجاح على نوعين:

١. ثابتة معلومة كالصلوات اليومية وصوم شهر رمضان والحج عند الاستطاعة وحرمة الخمر والزنا ووجوب بر الوالدين ونحوها.

٢. تعرض له وتتهياً فرصتها أمامه امتحاناً له، قال تعالى ﴿إِنَّا مَرْسَلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ﴾^١، فإن أحسن استغلال الفرصة فقد أصاب الخير وأدركته الرحمة، وإلا فقد ضاعت عليه الفرصة وإضاعته غصّة، كما لو قصده صاحب حاجة وهو يقدر على قضائها ولو بالتعاطف مع صاحب الحاجة والتفاعل مع قضيته، وكالشاب الذي يتعرض لغواية امرأة متبرجة فيتركها خوفاً من الله وحباً وطاعة لله تبارك وتعالى فهذه كلها امتحانات عارضة له.

وكما أن بعض الامتحانات في الدراسة الأكاديمية ذات أنماط معروفة متداولة كالامتحانات التحريرية والشفهية، وبعضها لا يشعر بها الطالب وإنما يحدّد معايير التقييم فيها المدرّس البصير كمشاركاته في المناقشات خلال الدرس ونوعية أسئلته وإشكالاته وهكذا، فإن من الامتحانات في

هذه الدنيا ما تخفى على صاحبها، ولكنها لا تخفى على الله تبارك وتعالى
«...فَإِنَّ النَّاقِدَ بَصِيرٌ»^١ كما ورد في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، وشبّهت
بعض الأحاديث خفاء الشرك في النفس بلأنه أخفى من ديب النملة بين
الصخور في الليلة الظلماء^٢، ويوم تبدو السرائر وتتكشف الحقائق سيتفاجأ
الإنسان مما يجده في كتابه الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها،
وهذه الامتحانات هي الأخطر لعدم الالتفات إليها إلا ممن بصّره الله تبارك
وتعالى.

وقد ورد ذكر الفتنة والابتلاء التي هي بمعنى الامتحان في آيات كريمة
ورويات شريفة كثيرة كما ورد نفس لفظ الامتحان في كثير من الموارد،
نذكر واحداً منها لإلفات النظر إلى أننا فعلاً في امتحان مستمر أولاً ومنوع
في أشكاله ثانياً، ومتفاوت في درجاته ثالثاً.

في الخصال بسنده عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «امْتَحِنُوا
شِيعَتَنَا عِنْدَ ثَلَاثٍ: عِنْدَ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ كَيْفَ مَحَافِظَتِهِمْ عَلَيْهَا، وَ عِنْدَ

١ - الإختصاص : ص ٣٤١

٢ - «...قَالَ الْإِمَامُ الْهَادِي عليه السلام: الْإِشْرَاكُ فِي النَّاسِ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى الْمَسْحِ الْأَسْوَدِ فِي

اللَّيْلَةِ الْمُظْلَمَةِ». المصدر: تحف العقول : ص ٤٨٧.

﴿٣١٠﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

أَسْرَارِهِمْ كَيْفَ حَفِظَهُمْ لَهَا عِنْدَ عَدُوِّنَا، وَإِلَى أَمْوَالِهِمْ كَيْفَ مَوَاسَاتَهُمْ
لِإِخْوَانِهِمْ فِيهَا!.

وإزاء هذه الامتحانات فإن وظيفتكم هو إحسان العمل وإتقانه والإتيان
به على وجهه، فإن الله تعالى لا ينظر إلى كثرة الأعمال بل إلى حسناتها كما
في الآية التي أوردنا في بداية الكلمة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^٢ وليس
أكثر ولا أي شيء آخر، وأمامكم الآن - وانتم على أبواب العطلة الصيفية
فرص للعمل فاغتنموها، لأن الشباب منتظرون لعودتكم إليهم حتى تقيموا
لهم للدورات الصيفية لتعلموهم فيها الفقه والقرآن والأخلاق والعقائد
وسيرة أهل البيت عليهم السلام وهي تتزامن مع هذه الأشهر المباركة (رجب
وشعبان ورمضان) مما يزيد الحافز إلى العمل ويوجب عظيم الأجر.

وعندكم الكثير من المساجد والحسينيات المعطلة فالفرصة متاحة
لإعمارها بصلوات الجماعة والشعائر الدينية ومجالس الوعظ والإرشاد،
وفي المجتمع انحرافات ومفاسد وتفصيرات يراد منكم أن تعالجوها
وتصلحوا أحوال الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، وتوجد بينهم نزاعات

١ - الخصال ؛ ج ١ ؛ ص ١٠٣.

٢ - الملك: ٢.

ومشاكل تستطيعون التوسط لحلها والإصلاح بين المتخاصمين، ومن الناس من هم أصحاب حوائج يطلبون مساعدتكم بما تقدرون عليه فهذه كلها امتحانات تمر بكم ليلوكم الله تعالى كيف تتصرفوا إزاءها، وهكذا كل الشرائح في المجتمع لها امتحاناتها، فالشباب ممتحن بوالدين يراد منه البر بهما والإحسان إليهما بأقصى الدرجات، وممتحن بشهوات تعرض له والمطلوب منها اجتنابها، وهكذا.

ونؤكد ما قلناه سابقاً من أن هذه الامتحانات ليست لقهر الإنسان وإثبات الغلبة عليه وإفشاله والانتقام منه، بل هي لإعطائه المزيد من الكرامات والألطف الإلهية وإظهار جدارته واستحقاقه لها.

وقد عرضت عليكم فرصة ثمينة لعمل الخير مع بساطتها، وهي أن يقوم كل واحد بتعميم رسالة قصيرة على من يحتفظ بأرقام هواتفهم المحمولة ويوصيهم بتعميمها تتضمن الرسالة القصيرة تعليم مسألة شرعية أو موعظة أو إرشاد إلى عمل الخير كالتنبيه على زمن شريف قريب - كالأول من رجب، والنصف منه، والمبعث الشريف أو آخر أيام من رجب - والأعمال الواردة فيه ليستعد لها ولا تفوته بسبب الغفلة عنها، أو تتضمن الرسالة مسألة شرعية غير ملتفت إليها فيتورط فيها الناس - كحرمة الزواج بأخت

﴿٣١٢﴾.....السنن الإلهية في القرآن الكريم

وبنت من لاط به آخر على اللائط، أو حرمة الزواج بامرأة لم تطلق بشكلٍ صحيح - فإن الالتفات إلى مثل هذه المسائل لاحقاً يوقع الزوجين في الحرج وهكذا.

أو يبعث بموعظة قصيرة توقظه وتحيي قلبه من الأحاديث الشريفة المباركة المؤثرة في النفوس، كأن يبعث على الشباب المبتلين بالنظر إلى النساء الأجنيات قوله ﷺ: «النَّظْرُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سَهَامِ إبْلِيسَ فَمَنْ تَرَكَهَا خَوْفًا مِنْ اللَّهِ أَعْطَاهُ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ»^١ فلعل شاباً يتأمل بهذه الكلمات فيستحقر هذه النظرة ويتركها لاكتساب ذلك النور الإلهي.

والخلاصة أن الإنسان المؤمن الواعي الراغب بالكمال عليه أن يكون ملتفتاً دائماً إلى أن كل ما يجري له ويتعرض إليه هو امتحان له وعليه أن يحسن في اتخاذ التصرف المناسب بإزائه وان ينتهز فرص الخير بلطف الله تبارك وتعالى.

١ - جامع الأخبار (للشعيري)؛ ص ١٤٥.



كشاف

السنن الإلهية في القرآن الكريم
(مرتبة حسب المصحف)



كشاف السنن الإلهية في القرآن الكريم

(مرتبة حسب المصحف)

م	اسم السنّة	السورة	الآية
١	الهداية لمن طلبها	الفاتحة	٧-٦
٢	الابتلاء والتمحيص	البقرة	١٥٥-١٥٧، ٢١٤
٣	الجزاء من جنس العمل	البقرة	٢٦١-٢٧٤
٤	عدم التكليف بما لا يطاق	البقرة	٢٨٦
٥	الإمامة لا تنال الظالمين	البقرة	١٢٤
٦	تداول الأيام بين الناس	آل عمران	١٤٠-١٤٢
٧	عدم ضياع العمل	آل عمران	١٩٥
٨	النصر المشروط بالصبر والتقوى	آل عمران	١٢٥، ٢٠٠
٩	العدل الإلهي ونفي الظلم	النساء	٤٠، ١٣٥
١٠	تحمل تبعه السيئة	النساء	٧٩
١١	سقوط العذاب بالشكر والإيمان	النساء	١٤٧
١٢	التعاون على البرّ والتقوى	المائدة	٢

١٣	نقض العهود يورث القسوة	المائدة	١٢-١٣
١٤	الاستبدال عند الارتداد	المائدة	٥٤
١٥	الأجل المسمّى	الأنعام	٢
١٦	الانفساح أو الضيق بالهدى	الأنعام	١٢٥
١٧	الاستدراج	الأنعام	٤٤
١٨	قيام الحجة قبل العقوبة	الأنعام	١٣١
١٩	فتح البركات مع الإيمان	الأعراف	٩٦
٢٠	الابتلاء بالحسنات والسيئات	الأعراف	١٦٨
٢١	الأخذ بعد الإنذار	الأعراف	١٦٥-١٦٧، ٤-٥
٢٢	تغير النعم بتغير النفوس	الأنفال	٥٣
٢٣	وحدة الصف والطاعة	الأنفال	٤٦
٢٤	قيمة الصبر في موازين القوى	الأنفال	٦٥-٦٦
٢٥	الابتلاء بالمال والولد	التوبة	٥٥، ٨٥
٢٦	الولاية الإيمانية	التوبة	٧١
٢٧	تسطير العواقب على السابقين	التوبة	٦٩
٢٨	التوكّل مع القضاء	التوبة	٥١
٢٩	نفع الإيمان قبل العذاب	يونس	٩٨
٣٠	الأجل المحفوظ	يونس	٤٩

١٠٣-١٠٢	هود	الاستئصال بعد الحجة	٣١
١١٧	هود	وجود المصلحين مانع للهلاك	٣٢
١١٤	هود	محو السيئات بالحسنات	٣٣
٩٠، ٥٧-٥٦، ٢١	يوسف	التمكين للصابرين المتقين	٣٤
٨٧	يوسف	الفرج بعد البلاء	٣٥
١١	الرعد	التغيير من الداخل	٣٦
٢٨	الرعد	الطمأنينة بذكر الله	٣٧
٧	إبراهيم	الزيادة بالشكر	٣٨
٤٢	إبراهيم	الإمهال لا الإهمال	٣٩
٢٦-٢٤	إبراهيم	تراكم أثر الكلمة الطيبة	٤٠
٩	الحجر	حفظ الذكر (القرآن)	٤١
٩٠	النحل	العمران بالعدل والإحسان	٤٢
٩٧	النحل	الحياة الطيبة	٤٣
١١٢	النحل	زوال الأمن بالكفر	٤٤
١٢٨-١٢٦	النحل	المقابلة بالمثل	٤٥
١٥	الإسراء	قيام الحجة قبل المؤاخذة	٤٦
٢١-١٨	الإسراء	الجزاء بحسب المقصد	٤٧
٧٧	الإسراء	ثبات السنن (سنة الأولين)	٤٨

٢٩	الكهف	الابتلاء بالاختيار	٤٩
٤٤-٣٢	الكهف	زوال النعمة بالكبر	٥٠
٩٨-٩٥	الكهف	الأخذ بالأسباب مع التوكل	٥١
٨٢-٦٠	الكهف	خفاء الحكمة وتأخر الفهم	٥٢
٧٦	مريم	زيادة الهدى للمهتدين	٥٣
٥٩	مريم	الغي عند إضاعة الصلاة	٥٤
١٢٦-١٢٤	طه	الضنك بالإعراض	٥٥
١٨-١٦	الأنبياء	قذف الحق على الباطل	٥٦
٣٥	الأنبياء	الابتلاء بالخير والشر	٥٧
١٠٥	الأنبياء	وراثة الأرض للصالحين	٥٨
٤٠	الحج	التدافع	٥٩
٤١	الحج	التمكين بإقامة الدين	٦٠
٧١	المؤمنون	فساد الأهواء	٦١
١٠٠-٩٩	المؤمنون	انقطاع العمل بالموت	٦٢
٥٥	النور	الاستخلاف المشروط	٦٣
١٩	النور	عقاب إشاعة الفاحشة	٦٤
٢٦	النور	الطيبين للطيبات	٦٥
٢٠	الفرقان	الأعداء فتنة	٦٦

٢٠٨ ، ١٠-٤	الشعراء	أخذ المكذبين	٦٧
٦-٥	القصص	توريث المستضعفين	٦٨
٣٥	القصص	القوة بالثبات	٦٩
٣-٢	العنكبوت	التمحيص بالإيمان	٧٠
٦٢	العنكبوت	نصر المؤمنين	٧١
٣٠	الروم	الفطرة	٧٢
٤١	الروم	الفساد بما كسبت الأيدي	٧٣
٣٣	لقمان	الجزاء الفردي	٧٤
١٤-١٣	السجدة	إنظار الأمم	٧٥
٦٢	الأحزاب	ثبات السنن	٧٦
٤٤	فاطر	الاستدراج	٧٧
٤٣	فاطر	ثبات السنن (تأكيد)	٧٨
٣٣	يس	إحياء الأرض	٧٩
١٧٣-١٧١	الصفات	إهلاك المكذبين	٨٠
٥١	غافر	نصرة الرسل	٨١
٣٠	الشورى	المصائب بما كسبت الأيدي	٨٢
٢٥-٢٣	الزخرف	اتباع المترفين للهلاك	٨٣
٣٨	محمد	الاستبدال	٨٤

٢٣	الفتح	ثبات السنن (تأكيد)	٨٥
٥٦	الذاريات	خلق الخلق للعبادة	٨٦
٢٥	الحديد	إرسال الرسل والكتاب والحديد	٨٧
٢	الحشر	الحشر والإجلاء	٨٨
٢	الملك	الابتلاء بالحياة والموت	٨٩
٢٥	نوح	الأخذ العام بالاستكبار	٩٠
١٦	الجن	الاستقامة تجلب الرزق	٩١
٣	الإنسان	التخيير بين الشكر والكفر	٩٢
٨-٧	الزلزلة	تجلّي الأعمال	٩٣
٣-١	العصر	الخسارة إلا بالمنهج الرباعي	٩٤
٢-١	الكوثر	العطاء مقابل العبادة	٩٥
٤-١	الإخلاص	التوحيد الخالص	٩٦
٦-١	الفلق/الناس	الاستعاذة والحماية	٩٧



قائمة المصادر



قائمة المصادر

- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: المفيد ؛ محمد بن محمد ؛ ت : ٤١٣ هـ ؛ تحقيق: مؤسسة آل البيت (ع) ؛ الناشر: مؤتمر الشيخ المفيد ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤١٣ هـ
- إقبال الأعمال (ط - قديمة): ابن طاووس ؛ علي بن موسى ؛ ت : ٦٦٤ هـ ؛ الناشر: دار الكتب الإسلامية ؛ طهران ؛ الطبعة: الثانية ؛ ١٤٠٩ هـ
- الأمالي (للصدوق) ؛ ابن بابويه، محمد بن علي ؛ ت : ٣٨١ هـ ؛ طهران ؛ الطبعة: السادسة ؛ ١٤١٨ هـ .
- الامالي (للطوسي): الطوسي ؛ محمد بن الحسن ؛ ت : ٤٦٠ هـ ؛ الناشر: دار الثقافة ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤١٤ هـ

- الامالي (للمفيد): المفيد ؛ محمد بن محمد ؛ ت : ٤١٣ هـ ؛ تحقيق :
أستاذ ولي، حسين وغفاري علي أكبر ؛ الناشر: مؤتمر الشيخ المفيد ؛
قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤١٣ هـ
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (ط - بيروت):
المجلسي ؛ محمد باقر بن محمد تقي ؛ ت : ١١١٠ هـ ؛ تحقيق :
جمع من المحققين ؛ الناشر: دار الكتب الإسلامية ؛ بيروت ؛ الطبعة:
الثانية ؛ ١٤٠٣ هـ
- تحف العقول عن آل الرسول (ص): ابن شعبة الحراني ؛ الحسن بن
علي ؛ ت : القرن ٤ ؛ تحقيق : غفاري، علي أكبر ؛ الناشر: جماعة
المدرسين ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الثانية ؛ ١٤٠٤ هـ
- تفسير من نور القرآن اليعقوبي ، محمد بن موسى ، من نور القرآن ،
دار الصادقين ، النجف الاشرف ، ٢٠٢٤.
- التمهيد: ابن همام الإسكافي ؛ محمد بن همام بن سهيل ؛ ت :
٣٣٦ هـ ؛ تحقيق : مدرسة الإمام المهدي (عج) ؛ الناشر: مدرسة
الإمام المهدي (عج) ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤٠٤ هـ

• التوحيد (للصدوق) : ابن بابويه ؛ محمد بن علي ؛ ت : ٣٨١ هـ ؛
تحقيق : الحسيني، هاشم ؛ الناشر: جماعة المدرسين ؛ قم المقدسة ؛
الطبعة : الأولى ؛ ١٣٩٨ هـ

• جامع الأخبار (للشعيري): الشعيري ؛ محمد بن محمد ؛ ت : القرن ٦
؛ الناشر: المطبعة الحيدرية ؛ النجف الاشرف ؛ الطبعة: الأولى.

• الجعفریات (الأشعثيات): ابن الأشعث ؛ محمد بن محمد ؛ ت : القرن
٤ ؛ الناشر: مكتبة النينوى الحديثة ؛ طهران ؛ الطبعة: الأولى.

• الخصال: ابن بابويه ؛ محمد بن علي ؛ ت : ٣٨١ هـ ؛ تحقيق : غفاري،
علي أكبر ؛ الناشر: جماعة المدرسين ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى
؛ ١٤٠٣ هـ

• جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير» ؛ جلال الدين السيوطي
(٨٤٩ - ٩١١ هـ) ؛ مجموعة محققين ؛ الناشر: الأزهر الشريف،
القاهرة - جمهورية مصر العربية ؛ الطبعة: الثانية، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥

م

• دعائم الإسلام و ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام: ابن حيون
؛ نعمان بن محمد المغربي ؛ ت : ٣٦٣ هـ ؛ تحقيق : الفيضي، آصف

؛ الناشر: مؤسسة آل البيت (ع) ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الثانية ؛ ١٤٢٧ هـ

هـ

• الدعوات (للاراوندي) / سلوة الحزين: قطب الدين الراوندي ؛ سعيد

بن هبة الله ؛ ت : ٥٧٣ هـ ؛ الناشر: منشورات مدرسة الإمام المهدي

(عج) ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤٠٧ هـ

• الزهد: مسائل عليّ بن جعفر ومستدركاتهما ؛ العريضي ؛ علي بن جعفر

؛ ت : ٢٢٠ هـ ؛ تحقيق : مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث ؛

الناشر: مؤسسة آل البيت (ع) ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤٠٩ هـ

هـ

• شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ابن أبي الحديد ؛ عبد الحميد

بن هبة الله ؛ ت : ٦٥٦ هـ ؛ تحقيق : إبراهيم، محمد أبو الفضل ؛

الناشر: مكتبة آية الله المرعشي النجفي ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى

؛ ١٤٠٤ هـ

• صحيفة الإمام الرضا (ع): علي بن موسى، الإمام الثامن (ع) ؛ ت :

٢٠٣ هـ ؛ تحقيق : نجف، محمد مهدي ؛ الناشر: مؤتمر الإمام الرضا

(ع) العالمي ؛ مشهد ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤٠٦ هـ

- الصحيفة السجادية ؛ الامام زين العابدين عليه السلام ؛ تقديم السيد محمد باقر الصدر ؛ الناشر : دار القاريء - لبنان ؛ الطبعة : الأولى ؛ ٢٠٢٣ م - ١٤٤٥ هـ .
- عدة الداعي ونجاح الساعي: ابن فهد الحلبي ؛ أحمد بن محمد ؛ ت : ٨٤١ هـ ؛ تحقيق : موحدي القمي، أحمد ؛ الناشر: دار الكتب الإسلامي ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤٠٧ هـ
- علل الشرائع: ابن بابويه ؛ محمد بن علي ؛ ت : ٣٨١ هـ ؛ الناشر: مكتبة داوري ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤٢٧ هـ
- عيون أخبار الرضا (ع): ابن بابويه ؛ محمد بن علي ؛ ت : ٣٨١ هـ ؛ تحقيق : اللاجوردي، مهدي ؛ الناشر: نشر جهان ؛ طهران ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤٢٠ هـ
- غرر الحكم ودرر الكلم (مجموعة من كلمات وحكم الإمام علي ع): التميمي الأمدي ؛ عبد الواحد بن محمد ؛ ت : ٥٥٠ هـ ؛ تحقيق : رجائي، السيد مهدي ؛ الناشر: دار الكتاب الإسلامي ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الثانية ؛ ١٤١٠ هـ

• الغيبة (للطوسي) / كتاب الغيبة للحجة: الطوسي ؛ محمد بن الحسن ؛ ت : ٤٦٠ هـ ؛ تحقيق : الطهراني، عباد الله وناصر، علي أحمد ؛ الناشر: دار المعارف الإسلامية ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤١١ هـ

• قرب الإسناد (ط- حديثه): الحميري ؛ عبد الله بن جعفر ؛ ت : النصف الثاني من القرن ؛ تحقيق : مؤسسة آل البيت (ع) ؛ الناشر: مؤسسة آل البيت (ع) ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤١٣ هـ

• الكافي (ط- الإسلامية): الكليني ؛ محمد بن يعقوب بن إسحاق ؛ ت : ٣٢٩ هـ ؛ تحقيق : غفاري، علي أكبر وآخوندي، محمد ؛ الناشر: دار الكتب الإسلامية ؛ طهران ؛ الطبعة: الرابعة ؛ ١٤٠٧ هـ

• كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ؛ علاء الدين علي المتقي الهندي (ت ٩٧٥ هـ) ؛ صححه: الشيخ صفوة السقا ؛ الناشر: مؤسسة الرسالة ؛ الطبعة: الخامسة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

• كنز الفوائد: الكراجكي ؛ محمد بن علي ؛ ت : ٤٤٩ هـ ؛ تحقيق : نعمة، عبد الله ؛ الناشر: دار الذخائر ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤١٠ هـ

- مصباح المتهجد وسلاح المتعبّد: الطوسي ؛ محمد بن الحسن ؛ ت : ٤٦٠ هـ ؛ الناشر: مؤسسة فقه الشيعة ؛ بيروت ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤١١ هـ
- مصباح الزائر ؛ جمال العارفين رضى الدين ؛ السيد علي بن موسى بن طاووس ؛ المتوفى سنة ٦٦٤ هـ ؛ تحقيق : مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.
- معاني الاخبار: ابن بابويه ؛ محمد بن علي ؛ ت : ٣٨١ هـ ؛ تحقيق : غفاري، علي أكبر ؛ الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤٠٣ هـ
- المقنعة: المفيد ؛ محمد بن محمد ؛ ت : ٤١٣ هـ ؛ الناشر: مؤتمر ألفية الشيخ المفيد ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤١٣ هـ
- مكارم الأخلاق: الطبرسي ؛ الحسن بن الفضل ؛ ت : القرن ٦ ؛ الناشر: الشريف الرضي ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الرابعة ؛ ١٤١٢ هـ
- من لا يحضره الفقيه: ابن بابويه ؛ محمد بن علي ؛ ت : ٣٨١ هـ ؛ تحقيق : غفاري، علي أكبر ؛ الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الثانية ؛ ١٤١٣ هـ

- نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: الحلواني ؛ حسين بن محمد بن حسن بن نصر ؛ ت : القرن ٥ ؛ تحقيق : مدرسة الإمام المهدي (عج) ؛ مدرسة الإمام المهدي (عج) ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤٠٨ هـ
- نهج البلاغة ؛ الشريف الرضي ؛ محمد بن الحسين ؛ ت ٤٠٦ هـ ؛ تحقيق : هاشم الميلاني ؛ الناشر : مؤسسة انوار الرسول لاعظم ؛ طهران ؛ الطبعة التاسعة ؛ ٢٠١٢ - ١٤٣٣ هـ .
- نهج الفصاحة (الكلمات القصار للنبي ص):. پاينده ؛ أبو القاسم ؛ ت : ١٤٠٤ هـ ؛ الناشر: عالم المعرفة ؛ طهران ؛ الطبعة: الرابعة ؛ ١٤٢٤ هـ
- تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: الشيخ الحر العاملي ؛ محمد بن حسن ؛ ت : ١١٠٤ هـ ؛ تحقيق : مؤسسة آل البيت (ع) ؛ الناشر: مؤسسة آل البيت (ع) ؛ قم المقدسة ؛ الطبعة: الأولى ؛ ١٤٠٩ هـ



فليس



الفهرس

٩.....	المقدمة
٣١.....	سنة التدافع
٤٧.....	سنة الاستبدال
٥٧.....	سنة الاستدراج
٦٩.....	سنة خلافة المستضعفين
٨٧.....	سنة الابتلاء والتمحيص
١٠٧.....	شُقُوا أمواج الفتن بسفن النجاة
١١٧.....	سنة التعامل مع الحياة بإيجابية
١٣١.....	سنة النصر الالهي
١٤١.....	سنة دفع البلاء بالتوبة
١٥١.....	سنة ارتباط فساد الحياة وصلاحها بأفعال الناس
١٦٥.....	سنة الاستغفار وتواتر النعم
١٨٣.....	سنة تيه الامة
٢١٣.....	سنة الفوز والفلاح
٢٢٩.....	سنة الافتتان
٢٤٣.....	سنة فتح البركات مع الإيمان
٢٥١.....	سنة إعمار الحياة
٢٦٥.....	سنة تخفيف آلام العاملين الرساليين
٢٧٣.....	سنة المصائب بما كسبت الأيدي

٢٨٧.....	سنة إعطاء الفرصة لهداية المزيد.....
٣٠٣.....	سنة الامتحان الدائم.....
٣١٤.....	كشاف السنن الإلهية.....
٣٢١.....	قائمة المصادر.....
٣٣١.....	الفهرس.....

الحمد لله رب العالمين
منمّا

